ثائر سلامة (أبو مالك)

مفاهيم على طريق استئناف الحياة الإسلامية

الطبعة الثانية: مزيدة ومنقحة

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م



الفهرس



استئناف الحياة الاسلامية

المبحث الأول

دراسات في العقيدة : واقع العقيدة

يقول الحق سبحانه: [وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)] النحل

يعيش الانسان في هذه الدنيا متعلما، مستخدما حواسه لنقل صورة العالم الخارجي وما فيه من مجاهيل تحتاج لسبر اغوار إلى دماغه ليتفكر، ولا شك أن بعض الأسئلة تشكل لديه عقدة لطبيعة أغوارها العميقة، ومن أكبر هذه العقد، تساؤلات الانسان الكلية عن الكون والانسان والحياة، مصدرها ومصيرها ، وصلتها بما قبلها وما بعدها وما الغاية من وجودها والوظيفة التي وجدت من أجلها، وصلته بالوجود وصلة الوجود به، وتشكل الإجابة على هذه التساؤلات حلا للعقدة الكبرى ينشأ عنه فكرة كلية نسميها العقيدة.

قال في اللسان: العَقْد نقيض الحَلِّ؛ عَقَدْتُ الحبْلَ والبيع والعهد فانعقد والعَقْد العهد، والجمع عُقود وهي أوكد العُهود. و عُقْدَةُ كلِّ شيءٍ: إبرامه. وقال ابن الأنباري: في قولهم لفلان عُقْدة: العقدة عند العرب الحائط الكثير النخل. ويقال للقَرْية الكثيرة النخل: عُقْدة، وكأَنّ الرجل إذا اتخذ ذلك فقد أحكم أمره عند نفسه واستوثق منه، ثم صيروا كل شيء يستوثق الرجل به لنفسه ويعتمد عليه عُقْدة. ويقال للرجل إذا سكن غضبه: قد تحللت عُقَدُه واعتقد كذا بقلبه

وليس له معقودٌ أي عقدُ رأي. وفي الحديث: أن رجلاً كان يبايع وفي عُقْدته ضعف أي في رأيه ونظره في مصالح نفسه. انتهى.

رب العالمين بين أن طريق الايمان هو استعمال العقل والتدبر والتفكر، وأنه بهذا الأمر يمتاز الانسان الناهض عن الحيوان عن الانسان المنحط، [وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ] (١٧٩) الأعراف، [أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً] (٤٤) الفرقان، [وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ] (١٠١) يونس.

والايمان عمل قلبي: [وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] (١٤) الحجرات، والقلب يطلق على العقل ويطلق على القلب المعروف ويراد منه في هذه الحالة الوجدان. لقد جعل الحق سبحانه في غير موضع من القرآن محل الفقه أي الفهم القلب كناية عن العقل، لأننا نعرف أن الانسان يفكر ويعقل ويتدبر بعقله ولا ضير من استعمال القلب بهذا المعنى، ولا شك أن ما يُعقل هو الأفكارُ قطعا مما يدل على أن الايمان أفكار (هدى) قطعا ولا جدال،، والآيات تشير بوضوح إلى أن العملية التي تتم مع قضايا الايمان في القلب / العقل هي الفهم والفقه أي أنها أفكار، فلا إله إلا الله فكر، (هدى) والإيمان بالجنة فكر.

[أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ] (٤٦) الحج

معلوم أن الأبصار في الوجه وآلتها العيون، وأن الذي يعمى حقيقة هو الأبصار، قال الزمخشري في الكشاف: والمعنى: أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها، وإنما العمى بقلوبهم. أو لا يعتدّ بعمى الأبصار، فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب. فإن قلت: أي

فائدة في ذكر الصدور؟ قلت: الذي قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها. واستعماله في القلب استعارة ومَثَلٌ، فلما أريد إثبات ما هو خلاف الـمُعتَقَدِ من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا التصوير إلى زيادةِ تعيينٍ وفضلِ تعريفٍ، ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار، كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: «الذي بين فكيك» تقرير لمّا ادّعيته للسانه وتثبيت لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهواً مني، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً. إ.هـ.

وبالمثل فمحل الفهم والتفكر هو العقل ولكن في مسائل الاعتقاد والايمان بعد أن تتم العملية العقلية المفروض أن تصل الأفكار لدرجة الاطمئنان والسكينة وربط القلب عليها، فالعقيدة ما انعقد القلب عليه، وكأنّ الرجل إذا اتخذ ذلك فقد أحكم أمره عند نفسه واستوثق منه، وبالتالي تنتقل هذه الأفكار من العقل إلى القلب أي الوجدان ليحصل العقد عليها والاعتقاد بها فلا تتنازعها الشكوك ولا يداخلها الريب،، من هنا استعار المولى سبحانه القلبَ في قضايا الايمان مكان العقل / الدماغ واللّه تعالى أعلم.

لقد استعار الحق سبحانه مثلا عظيما يجلي حقيقة عظيمة حول الايمان، فقد قال: [فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ] فالدنيا من حول الضرير الذي لا يبصر تعج بالألوان والحياة تضج في جنباتها، ولكن حدقته التي بها يمكنه أن يرى هذا كله معطلة، فلم يعد يدرك شيئا من ذلك، وبالمثل [وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون] ، ومع ذلك تعمى العقول عن كل هذه الحقائق التي تضج بها الدنيا، ولا تتوصل إلى خالقها سبحانه، ويسمى الجهل بالعمى لأن الجاهل لكونه متحيراً بشبه الأعمى، ولعمري فهذا هو العمى الحقيقي!

الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة ، يبدأ بانشراح الصدر وينتهي بطمأنينة القلب،

[فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٢٥)] الأنعام

[أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٢٣)] الزمر

قال الألوسي: (والإيمان في اللغة التصديق أي إذعان حكم المخبر وقبوله وجعله صادقاً، وهو إفعال من الأمن كأنّ حقيقة آمن به آمَنَهُ التكذيب والمخالفة، ويتعدى باللام كما في قوله تعالى [قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ] (١١١) الشعراء وبالباء كما في قوله صلى اللّه عليه وسلم: "الإيمان أن تؤمن باللّه" الحديث، قالوا: والأول باعتبار تضمينه معنى الإذعان والثاني باعتبار تضمينه معنى الاعتراف إشارة إلى أن التصديق لا يعتبر ما لم يقترن به الاعتراف، وقد يُطلق بمعنى الوثوق من حيث أن الواثق صار ذا أمن. إ.هـ. فهذه المراحل التي تمر بالوجدان ليصل إلى التصديق الجازم، إذعان للحقيقة الكونية ودلالتها على الحقيقة العقدية، بخلاف من قال فيهم اللّه سبحانه: [فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] (١٤) النمل. فلم يذعنوا وجحدوا ما استيقنته نفوسهم، فلم يحصل لهم الإيمان، فلم يعترفوا بصدق موسى عليه السلام، ولا بد للوجدان حتى يصل للتصديق الجازم من موافقة العقل، أي إعمال الفكر في الحقائق الكونية ليتوصل إلى الوثوق بصدق دلالتها على الايمان.

فاذا تم هذا الامران : التصديق الجازم من قبل القلب اي الوجدان، وموافقة العقل لهذا التصديق، فقد حصل انعقاد القلب اي حصلت العقيدة بمعنى حصل الاعتقاد. ثم بعد ذا قد يقسو القلب أو يسكن لإيمانه، [هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ] ٤ الفتح.

[فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ...] الآيـة (١٣) المائـدة [لِيَجْعَـلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُـوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّـالِمِينَ لَفِـي شِـقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِـهِ فَتُخْبِـتَ لَـهُ قُلُـوبُهُمْ وَإِنَّ اللّه لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ] (٥٤) الحج.

فهذا الارتباط العضوي بـين مـا يعتـور القلـب مـن قسـوة ومـا يجلبـه لـه ذكـر اللّه وعمـل الصالحات من سكينة يدفعه نحو الإخبات للّه تعـالى، يبـين شـدة ارتبـاط الايمـان بإقبـال القلـب وإدباره، أي بالارتقاء به نحو الطمأنينة أو الهبوط به نحو القسوة، مما يترتـب عليـه مـا نـراه فـي أنفسنا من الإحساس بالإيمان أو الإحساس بانقباض الصـدر، والغفلـة، لـذا جعـل الحـق سـبحانه غاية الايمان بلوغ طمأنينة القلب: [قَالَ أَوَلَـمْ تُـؤْمِن قَـالَ بَلَـى وَلَــكِن لِّيَطْمَـئِنَّ قَلْبِـي] (٢٦٠) البقرة .

هذا هو واقع العقيدة - اي عقيدة- مع وضوح وجلاء هذه الحقائق حول العقيدة الاسلامية، الا ان انعقاد القلب على افكار فرعية ليست أساسية لا يرتفع الى مستوى العقيدة، لانـه لا يتفـرع عنها شيء، ولا يترتب عليها شيء، ولذلك فانها لو أخذت في أول الامر التصديق الجـازم ولكنهـا لا تلبث أن تخرج من دائرة الوجدان إما الى دائرة العمـل وإمـا الـى الـرفض لـذلك فـان القلـب لا ينعقد الا على افكار اساسية يمكن ان يتفرع عنها ويمكن أن يترتب عليها شـيء او اشـياء، ومـن هنا كانت العقائد هي الافكار الاساسية، ويكون مثلها اي عقيدة كل فكرة تعتبر جزءا منها، سواء بانبثاقها عنها او ببنائها عليها واما الافكار الفرعية فلا تدخل ضمن العقائد.

والفكرة الاساسية التي لا يوجد قبلها افكار هي الفكرة التي تحل العقدة الكبـرى للانسـان من حيث هو انسان، وذلك ان الانسان اي انسان ترد عليه ثلاثة اسـئلة تلـح الجـواب عليهـا، هـل يوجد قبل هذا الوجود الذي يقع تحت حسه شيء ام هـو ازلـي قـديم لا يوجـد قبلـه شـيء، وهـل يوجد بعد هذا الوجود شيء اي وجود اخر، فالاشياء تنعدم وتـذهب فهـل تعـود ثانيـة ام لا وهـل

هناك مكان اخر تذهب اليه ام لا ؟ وهل هذا الوجود له صلة بما قبله ام منقطع عنه وهل له بما بعده ام منقطع عنه .

فالفكرة الاساسية هي الفكرة التي تحل العقدة الكبرى للانسان، وهذه هي العقيدة، اي هي التي ينعقد عليها القلب. ومن هنا كانت العقيدة هي الفكرة الكلية عن الكون والانسان والحياة، لان الفرد انسان يحيا في الكون، وبحكم حياته هو في الكون تنشأ عنده الاسئلة الثلاثة، وتنشأ عنده العقدة الكبرى، فاذا وجد لديها الحل – أي حل- وجدت عنده الفكرة الاساسية، او فكرة اساسية، اي وجدت عنده العقيدة او عقيدة، وذلك بوجود فكرة عن الكون والانسان والحياة مجتمعة، اي عنه كانسان يحيا في الكون. فالعقيدة هي فكرة اساسية عن انسان يحيا في الكون، وهذه الفكرة الاساسية لا تكون الا كلية، فالعقيدة هي الفكرة الكلية عن الكون والانسان والحياة، وعما قبلها وما بعدها، وعن علاقتها بما قبلها وبما بعدها.

المبحث الثاني

المبدأ: عقيدة ونظام حياة

لا شك أن الاسلام عقيدة ونظام حياة، لم يكن في يوم من الأيام فلسفة يبحث عنها في بطون الكتب، ولا كان أفكارا خيالية عن جمهوريات فاضلة لا تحيا في أرض الواقع، وإنما هو معالجات لواقع البشر، لقد جاء الإسلام مجموعة مفاهيم عن الحياة، تشكل وجهة نظر معينة، جاء ليرسم للناس طريقة معينة في العيش، فهذه الأفكار والتي يرافقها طريقة تطبيقها، تشكل في مجموعها المبدأ الاسلامي.

قلنا في الحلقة السابقة:

يعيش الانسان في هذه الدنيا متعلما، مستخدما حواسه لنقل صورة العالم الخارجي وما فيه من مجاهيل تحتاج لسبر اغوار إلى دماغه ليتفكر، ولا شك أن بعض الأسئلة تشكل لديه عقدة لطبيعة أغوارها العميقة، ومن أكبر هذه العقد، تساؤلات الانسان الكلية عن الكون والانسان والحياة، مصدرها ومصيرها ، وصلتها بما قبلها وما بعدها وما الغاية من وجودها والوظيفة التي وجدت من أجلها، وصلته بالوجود وصلة الوجود به، وتشكل الإجابة على هذه التساؤلات حلا للعقدة الكبرى ينشأ عنه فكرة كلية نسميها العقيدة.

أما أنها كلية، أي أنها فكر أساسي يكون مقياسا للافكار، فلأن الانسان إذ تعترضه الأشياء التي سخرها الله له في الكون، ينظر إليها متفكرا فتتكون لديه مفاهيم عنها، تكاد تكون متطابقة عند كل الناس، فالبصل يؤكل والسم يميت لو أكل، والحائط يقي من القيظ، ولكن السلوك المطلوب تجاه هذه الأشياء، هل يجوز له أكل البصل أو الخنزير، وهل يجوز له شرب الماء أو الخمر؟ وهل يجوز له أن يُزارع أرضا؟ هذا السلوك بحاجة لمفاهيم عن الحياة تشكل مقياسا للانسان في أفعاله وتصرفاته، وهذه المفاهيم إنما توجد بعد حل العقدة الكبرى، وإن

كان يستطيع التصرف إزاء هذه الأشياء وفق أهوائه لكن هذا لا يوصل إلى رقي الانسان ونهضته، ولأن العقيدة هي فكرة كلية، فهي بذا تعطي جوابا عن كل شيء ليشكل مفهوما يتخذه المسلم مقياسا إزاء الواقع الذي يريد التعامل معه.

يسير كثير من الناس في الحياة على غير هدى، فيقومون بأعمالهم على غير مقياس يقيسون عليه. ولذلك تراهم يقومون بأعمال قبيحة يظنونها حسنة. ويمتنعون عن القيام بأعمال حسنة يظنونها قبيحة. فالمرأة المسلمة التي تمشي في شوارع أمهات المدن الإسلامية كبيروت ودمشق والقاهرة تكشف عن ساقيها، وهي تظن أنها تقوم بفعل حسن، والرجل الورع الملازم للمساجد يمتنع عن الخوض في تصرفات الحكام الفاسدة لأنها من السياسة، وهو يظن أن الخوض في السياسة فعل قبيح.

وهذه المرأة وهذا الرجل وقعا في الإثم: فكشفت هي عورتها، ولم يهتم هو بأمر المسلمين، لأنهما لم يتخذا لأنفسهما مقياساً يقيسان أعمالهما بحسبه، ولو اتخذا مقياساً لما تناقضا هذا التناقض في تصرفاتهما مع المبدأ الذي يعلنان بصراحة أنهما يعتنقانه. ولذلك كان لا بد للإنسان من مقياس يقيس أعماله عليه حتى يعرف حقيقة العمل قبل أن يقدم عليه.

والإسلام قد جعل للإنسان مقياساً يقيس عليه الأشياء، فيعرف قبيحها من حسنها، فيمتنع عن الفعل القبيح، ويقدم على الفعل الحسن. وهذا المقياس هو الشرع وحده ؛ فما حسنه الشرع من الأفعال هو الحسن وما قبحه الشرع هو القبيح. وهذا المقياس دائمي فلا يصبح الحسن قبيحاً، ولا يتحول القبيح إلى حسن ؛ بل ما قال عنه الشرع حسناً يبقى حسناً، وما قال الشرع عنه قبيحاً يبقى قبيحاً.

ولما كان الانسان اجتماعيا بطبعه، فهو بحاجة لتنظيم الانتفاع بالأشياء، تنظيما يجعل سلوكه، أي أفعاله في الحياة التي يشبع بها غرائزه وحاجاته العضوية، موقع رضا للمجموعة التي ينتمي إليها، فكريا ومشاعريا، (ومن قولنا: فكريا: يتضمن أن المسلم يطلب رضا الله بالتزامه)، فالمجتمع بحاجة لنظام، ولا بد لهذه العقيدة من أن تحوي إمكانية انبثاق نظام عنها ينظم

علاقات المجتمع على أساسه، ليضمن حسن انضباط أفراد المجتمع وفق نظام مخصوص، وإلا فهي عقيدة روحية كهنوتية فلا تصلح لتسوس الناس وتهديهم سبيل نهضتهم.

ولأن هذه الأسئلة أساسية إذ أنها لا تبنى على أفكار أخرى سبقتها، فهي وحدها التي تنتج مبدأ، تبنى عليه الأفكار الأخرى، فما لم يوجد عند المرء فكر عن نفسه وعن الحياة وعن الكون من حيث الوجود والإيجاد، والغاية والمصير، لا يمكن أن يعطي فكراً يصلح أساساً لحياته، ولذلك تبقى حياته سائرة دون أساس، مائعة، متلونة، متنقلة، ما لم يوجد هذا الفكر الأساسي، أي ما لم توجد الفكرة الكلية عن نفسه وعن الحياة وعن الكون .

ولأن كل الأفكار التي تدخل في ما تفرع عن هذه الأجوبة من نظام تبنى عليها، كانت فكرة كلية أساسية فهي وحدها تسمى مبدأ، وهكذا أطلقت كلمة مبدأ على الفكرة الشاملة وأنظمتها ، أي العقيدة ومعالجاتها؛ ويقابل كلمة المبدأ كلمة الإيديولوجيا بالتعبير الغربي.

إلا أن هذه العقيدة لا يمكن أن تنبثق عنها أفكار، ولا أن تبنى عليها أفكار إلا إذا كانت هي فكراً، أي كانت نتيجة بحث عقلي؛ أما إذا كانت تسليما وتلقياً، فلا تكون فكراً، ولا تسمى فكرة كلية، وإن كان يصح أن تسمى عقيدة. ولذلك كان لا بد أن تكون الفكرة الكلية قد توصل إليها الإنسان عن طريق العقل، أي أن تكون نتيجة بحث عقلي، فتكون حينئذ عقيدة عقلية، وحينئذ تنبثق عنها أفكار وتبنى عليها أفكار. وهذه الأفكار هي معالجات لمشاكل الحياة، أي هي الأحكام التي تنظم للإنسان شؤون الحياة. ومتى وجدت هذه العقيدة العقلية وانبثقت عنها أحكام تعالج مشاكل الحياة فقد وجد المبدأ. ولذلك عرف المبدأ بأنه عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام.

لقد خاطب الشارع سبحانه البشر بالعقائد والأحكام الشرعية العملية، فنظم علاقة الانسان بخالقه من خلال العقيدة، أي الفكرة الكلية عن الكون والانسان والحياة وكونها مخلوقة لله سبحانه، فيدين بدينه الحق،

وتنظم علاقة الانسان بالخالق أيضا من قبيل واجبه تجاهه من الامتثال لأوامره وأداء العبادة له وحده،

وتنظم علاقة الانسان بنفسه عبر منظومة الأخلاق والمطعومات والملبوسات وأحكامها،

وتنظم علاقة الانسان بغيره عبر منظومة المعاملات، وما يلحق ذلك من تشريعات، وعقوبات.

فهذا كله يرجع إلى منبعين رئيسين: العقيدة والنظام المنبثق عنها،

فالنظام إذن ينضمن: الفكرة وطريقة تطبيقها في الواقع، كما وأن له طبيعة تدعو لحمله أي حمل المبدأ والدعوة إليه، ويتطلب أن يوفر الحماية للعقيدة، فهذه أركان أربعة يقوم عليها النظام: الفكرة والطريقة وحمل المبدأ وحماية العقيدة.

لكننا نلاحظ أن الأركان الثلاثة الأخيرة يمكن جمعها في أنها من طريقة تطبيق المبدأ، لذلك نقول:

المبدأ: فكرة، والفكرة هنا: العقيدة

ومعالجات (والطريقة هنا : طريقة تنفيذ المعالجات + حمل المبدأ + حماية العقيدة)

المبدأ أيضا: عقيدة ونظام: النظام هنا: معالجة المشاكل، طريقة تنفيذ المعالجات ، حمل المبدأ، حماية المبدأ.

وهنا لا بد من ملاحظة هامه :

لا شك أن قضية نهضة الانسان، هي القضية المركزية التي ينبغي صرف الانتباه لها دوما، وأن حجر الزاوية في هذه القضية هو الفكر، فبالفكر يكون نهوض الانسان وبالفكر تنهض المجتمعات، وقد أولى القرآن الكريم هذه الحقيقة أهمية خاصة، فركز على أن يضع للانسان جملة من الأفكار تشكل لديه قاعدة فكرية يقيس عليها كل فكر، وخاطبه بجملة من

المفاهيم الضابطة لسلوكه، وبالتالي لعلاقات المجتمع، بحيث توضع هذه المفاهيم موضع القوانين والشرائع من كيان الدولة، فهي أفكار تسوس حياة الانسان، فشكل بمجموع هذين الأصلين، الأفكار التي تشكل قاعدة فكرية لديه، والأفكار التي تسوس حياته، ما يمكن الاصطلاح عليه بأنه الفكرة الاسلامية.

فالحق سبحانه عندما يقول: {فاعلم أنه لا اله إلا اللّه}، فهو يضع هنا الانسان أمام فكرة عليه أن يعمل عقله فيها، مستدلا عليها بالأدلة، كقوله تعالى: {أفي اللّه شك فاطر السموات والأرض؟} وقوله تعالى: {أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي؟}

فهذه الأدلة توصل العقل إلى قناعة أنه لا إله إلا اللّه، فهذه الفكرة تشكل قاعدة أساسية من جملة القواعد التي تدخل في صرح قاعدة المسلم الفكرية التي تقوده في الحياة.

كذلك عندما يأمره الحق سبحانه وتعالى بأن يمتنع عن الربا، ففكرة حرم اللّه الربا، أيضا فكرة، تخاطب العقل بما يفهمه، وتضع له قانونا عليه أن يتصرف حياله على ثلاثة أضرب، نوع يختص بالخطاب نفسه، فما كان منه قرآنا أو سنة متواترة عليه الايمان به، وما كان ظنيا عليه التصديق به، والنوع الثاني يختص بالمعالجة التي عالج بها الخطاب أي خطاب الشارع المشكلة، فلا بد من الايمان بما ثبت قطعا وأيضا بما توصل إليه اجتهاد المجتهد في حقه في الظنيات أنه العلاج الصواب للمشكلة، فمن ظن العلاج في غير ما نزل به الشرع انفصل عن هذه العقيدة، والثالث: ما تعلق بتطبيق هذه المعالجة فهذا علاقته الأساسية لا تكون بالايمان والكفر، وشرح ذلك:

ان ادراك الفكر والتصديق بوجود واقعه او عدم وجوده تصديقا جازما هو عقيدة، ويعتبر ان ادراك الفكر واعتباره معالجة لفعل من افعال الانسان او عدم اعتباره معالجة هو حكم شرعي، وبعبارة اخرى العقيدة هي الفكرة الكلية عن الكون والانسان والحياة وما قبل الحياة وما بعدها وعلاقتها بما قبلها وما بعدها. والذي يعين الفكر كونه من العقيدة أو من الاحكام الشرعية هو

دليله الشرعي؛ فان كان الدليل خطابا متعلقا بافعال العباد كان حكما شرعيا، وان كان غير متعلق بافعال العباد كان من العقيدة.

وأيضا فان كان الفكر مما طلب الايمان به فقط، او كان مما لا يطلب العمل به كالقصص والاخبار بالمغيبات فهو من العقيدة، وان لم يكن كذلك كان من الاحكام الشرعية .

أولا: عليه أن يؤمن بهذا الخطاب **إن كان ثبت** بالدليل القطعي، بحيث لو لم يؤمن بقوله تعالى وأحل الله البيع وحرم الربا يكفر.

ثانيا: عليه أن يؤمن أن هذه هي المعالجة الصواب والوحيدة للمشكلة التي تعطي هذه الفكرة حلا لها، بحيث لو لم يؤمن بأن قطع يد السارق مثلا هو العلاج الوحيد المثالي والصحيح لهذه المشكلة، وقال أن الصحيح أن تعالج لا بقطع اليد بل بالسجن فإنه يكفر.

فكما تلاحظ فإن الشقين الأولين من التصرف المطلوب إزاء هذا الحكم الشرعي المتمثل بخطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد، وهو هنا مثلا حكم الربا أو تحريم السرقة وعلاج مشكلتها، فإن الملاحظ أن التصرف المطلوب هنا يخاطب العقل ولا دخل له بالعمل نفسه لذا ترتب عليه كفر وإيمان، فهو فكر.

وثالثا: عليه أن يتصرف ويسلك السلوك المطلوب منه في ذلك الخطاب، فمثلا {وأقيموا الصلاة} عليه أن يقيم الصلاة، {وآتوا الزكاة} عليه أن يؤتي الزكاة، {حرمت عليكم الميتة} عليه أن يمتنع عن أكل الميتة، وهكذا فهذا التصرف علاقته المباشرة إنما هي مع سلوك الانسان أي أفعاله التي يفعلها لاشباع غرائزه وحاجاته العضوية، فهي تتضمن طريقة تطبيق الحكم الشرعي، أو الأمر بتطبيقه.

أما الأمر بتطبيقه أي {وأقيموا الصلاة} ففكرة، والقيام بها عمل، ولها أيضا أحكام أخرى تشرح طريقة تنفيذ هذه الفكرة، أي هذا الأمر إذ أن الأمر والنهي ما هي إلا أفكار، فقوله عليه السلام "صلوا كما رأيتموني أصلي" طريقة تنفيذ قوله تعالى {وأقيموا الصلاة}، وقوله عليه

الصلاة والسلام "خذوا عني مناسككم" طريقة لتطبيق الحكم المتعلق بالحج حتى لا نبتدع في الدين.

من هنا فالفكرة هي ما شرع لنفسه، والطريقة ما شرع لغيره، لا خيار فيه، فالطريقة ثابتة لا يجوز أن تصلي الظهر مثلا خمس ركعات ، وأما الأسلوب فما شرع لغيره وفيه تخيير، فالمبدأ إذن فكرة وطريقة تبين طريقة تنفيذ الفكرة، وما يتعلق بها من أحكام، ويتضمن النظام أيضا حمل المبدأ إلى غير المسلمين، وطريقة حمل المبدأ الاسلامي الدعوة والجهاد، ويتضمن النظام أيضا حماية العقيدة .

المبحث الثالث

الاسلام مبدأ، فكرة وطريقة

قال في لسان العرب:

البَدْء فِعْلُ الشيءِ أَوَّلُ . بَدأ بهِ و بَدَأَه يَبْدَؤُه بَدْءًا، إ.هـ. وقال في القاموس المحيط: مبادئُ العلم أو الفنّ أو القانون هي قواعده الأساسية التي يقوم عليها ولا يخرج عنها جمعه مَبادِئُ.

المبدأ في اللغة مصدر ميمي من بدأ يبدأ بدءاً ومبدأ. وفي اصطلاح الناس جميعاً هو الفكر الأساسي الذي تبنى عليه أفكار.

المبدأ: إن كلمة مبدأ لغة تعني مصدر الابتداء ، وهي في مجال بيان حقيقة الوجود في مصدره ومصيره وصلته بهما تعني مصدر بدء هذا الوجود وصلة هذا الوجود به . وهذا يعني الفكرة الشاملة للوجود وما تقدمه هذه الفكرة من أنظمة للحياة . وهكذا أطلقت كلمة مبدأ على الفكرة الشاملة وأنظمتها ، أي العقيدة ومعالجاتها . ويقابل كلمة المبدأ كلمة الإيديولوجيا بالتعبير المعاصر.

الفَكْرُ: والفِكْرُ إعمال الخاطر في الشيء ؛ الجوهري : التَّفَكُّر التأمل ، والاسم الفِكْرُ والفِكْرَة ، والمصدر الفَكْر بالفتح.

والطَّريقُ السبيل ، تذكَّر وتؤنث؛ تقول : الطَّريق الأعظم والطَّريق العُظْمَى وكذلك السبيل ، والجمع أطْرقة وطُرُق؛

و الطَّرِيقة السِّيرة . و طريقة الرجل : مَذْهبه . يقال : ما زال فلان على طَريقة واحدة أي على حالة واحدة . وفلان حسن الطَّريقة ، والطَّريقة الحال . يقال : هو على طَريقة حسَنة وطَريقة سَيِّئة؛

وقوله تعالى : {وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} أراد لَو استقاموا على طَريقة الهُدى... وقال الأخفش : {بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} أي بسُنَّتكم ودينكم وما أنتم عليه . وقال الفراء : {كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} أي كُنَّا فِرَقاً مختلفة أَهْواؤنا .

أُسْلوبٌ: وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ ، فهو أُسلوبٌ . قال : و الأُسْلوبُ الطريق ، والوجهُ ، والـمَذْهَبُ ؛ يقال : أَنتم في أُسْلُوبِ سُوءٍ ، ويُجمَعُ أَسالِيبَ والأُسْلُوبُ : الطريقُ تأْخذ فيه . والأُسْلوبُ ، بالضم : الفَنُّ ؛ يقال : أَخَذ فلانٌ في أَسالِيبَ من القول أَي أَفانِينَ منه ؛

الإسلام فكرة وطريقة : كلمة فكرة تشمل كل ما جاء به الإسلام من عقائد وأفكار متعلقة بالعقائد، وهذا يشمل ما في الإسلام من القصص وأخبار السابقين أو ما تنبّأ به من أنباء المستقبل. وكلمة فكرة تشمل أيضاً الأحكام الشرعية المتعلقة بالعبادات (ما عدا أحكام الجهاد، فهي من الطريقة) والمتعلقة بالأخلاق والمطعومات والملبوسات والمعاملات. فإن هذه الأحكام جاء الشرع بها من أجل ترسيخها عند الناس ومن أجل إقامة المجتمع الإنساني عليها، فهي الطابع للأفراد وهي الطابع للمجتمعات.

وأما كلمة طريقة، فهي تشمل أحكاماً شرعية فقط، ولا تشمل عقائد ولا أفكاراً متعلقة بالعقائد. والأحكام الشرعية المندرجة تحت الطريقة هي تلك الأحكام المقصود بها غيرها ولم يقصدها الشارع لذاتها. من هذه الأحكام (أحكام الطريقة) الأحكام المتعلقة بالعقوبات، من حدود أو تعزير، ومنها أحكام الجهاد، وأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأحكام السياسية الخارجية، وأحكام كيفية حمل الدعوة الإسلامية من قِبَل الأفراد أو من قبل الدولة. وأحكام نظام الحكم والخلافة. كل ذلك من أحكام الطريقة .

فهي أحكام شرعية ثابتة لا يلحقها تغيير ولا تبديل ولا تطور مهما تغيّرت الظروف وتبدلت الأمكنة والأزمنة . فمثلا أنظمة العقوبات التي حددها الشرع (كالحدود) ثابتة فلا يجوز أن نضع السجن مكان قطع السارق أو رجم الزاني المُحصن أو جلد القاذف، ولا يجوز أن **نكتفي** بالدعوة بدل الجهاد، ولا يجوز أن نضع النظام الديمقراطي في الحكم بدل نظام الخلافة، ولا

يجوز أن نجعل رعاية الشؤون الإلزامية بيد النقابات والجمعيات والبلديات، بدل أن تكون بيد الخليفة أو من ينوب عنه.

فالأفكار إذن هي كل ما يتعلق بالعقائد مثل القدر ، وكل ما يتعلق بالأمور النظرية مثل معنى العقل فالفكر متعلق بالنظر.

أما الأحكام فهي كل ما يتعلق بالمعالجات مثل أحكام الأراضي . فالحكم الشرعي متعلق بالعمل.

أما الأسلوب : فهو عمل ظرفي تقتضيه الأوضاع القائمة . ويجب أن ويتوفر فيه شرطان: الأول أن يكون من المباحات، أي ليس مندوباً ولا واجباً،

والثاني أن يكون ليس مقصوداً لذاته بل تم القيام به لإتمام عمل آخر. فليس كل مباح أسلوباً، بل لا بد أن يكون مباحاً، ولا بد أن يكون تابعاً لأحكام الطريقة وليس لأحكام الفكرة.

مثال ذلك: ترتيب الجيش في معركة بدر، وموقع النزول بحيث جعلوا الماء خلفهم، وحفر الخندق حول المدينة، وإرسال نعيم بن مسعود للإيقاع بين اليهود ومشركي قريش، وعقد معاهدات حسن جوار مع قبائل اليهود حول المدينة، وتكليفه صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبة وأبا سفيان بهدم اللات بدل أن يهدمها أهل الطائف، وإذنه بالهجرة إلى الحبشة.

كل ذلك من الأساليب التي يشرع لنا أن نعملها أو نعمل مثلها إذا لزمت لنا حسب ظروفنا، وليس مطلوباً منا شرعاً أن نعملها إذا كانت ظروفنا لا تحتاجها.

فالأسلوب هو عمل مشروع يقرّره نوع العمل الذي نقوم به.

وهذا كله هو ضمن الأعمال التي قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما خارج عمله عليه السلام، فإن كلمة (أسلوب) يمكن أن تطلق على أعمال محرّمة في بعض الحالات. فمثلاً السرقة حرام، ويمكن أن تتم السرقة بأساليب عدة: فيمكن كسر الباب أو

نقب الجدار أو تسلقه. وهنا فإن الأسلوب يأخذ حكم العمل: فالعمل الحرام تكون كل الأساليب المؤدية إليه حراماً.

أما العمل الواجب فلا تكون كل الأساليب المؤدية إليه واجبة، بل ربما يكون بعضها مباحاً وربما يكون بعضها محرماً.

ربما يتبادر إلى ذهن بعض الناس أن الأسلوب المباح الذي يكون أخذه بالخيار ليس من السنة، وهذا خطأ، فإن السنّة منها الواجب، ومنها المندوب إليه، ومنها المباح.

وكذلك فإن السنّة تعطينا أحكام التحريم وأحكام الكراهة. والمسلم حين يتّبع السنّة فإنه يعمل مثل عمل الرسول، على الوجه الذي عمله الرسول، لأجل عمل الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم. فأنت حين تعمل المباح (أو تترك المباح) لأنك تعلم أن الشرع خيّرك في ذلك، فإنك تكون قد اتّبعت السنّة ولك الثواب.

المبحث الرابع

المجتمع هو مجموعة من الناس تنشأ بينهم علاقات دائمية

المؤرِّخ البريطانيّ الشهير "أرنولد توينبي" يرى أنّ التاريخ البشريّ تاريخ حضارات، وفي الوقت نفسه يراه تاريخ مجتمعات[1]. ويقول "رالف لنتون":«من الأمور ذات الدلالة الخاصّة أنَّ اصطلاحَي حضارة ومجتمع يُستعملان كمترادفين في غالب الأحيان... فالمجتمع عبارة عن مجموعة منظّمة من الأفراد، والحضارة مجموعة منظّمة من الاستجابات الّتي تعلّمها الأفراد وأصبحت من مميِّزات مجتمع معيّن»[2].

وسواء استعملنا المصطلح "Culture" المستعمل لدى بعض علماء الاجتماع والانتروبولويجيا أو استعملنا المصطلح "Civilization" للدلالة على نمط العيش في مجتمعٍ ما، والّذي هو في نظر "إدوارد تايلور" «ذلك الكلّ المعقَّد الّذي يشتمل على المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والتقاليد والفلسفة والأديان وبقيّة المواهب والقابليّات والعادات الّتي اكتسبها الإنسان من مجتمعه الّذي يعيش فيه»[3]. وهو في رأي "كلايد كلوكهون" «مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معيّن، أي الميراث الاجتماعيّ الّذي يحصل عليه الفرد من مجموعته الّتي يعيش فيها، أو هي الجزء الّذي خلقه الإنسان في محيطه وهي الّتي تحدّد الأساليب الحياتيّة، أو هي طريقة في التفكير والشعور والمعتقدات، إنهّا معلومات الجماعة البشريّة مخزونة في ذاكرة أفرادها أو في الكتب أو في الموادِّ والأدوات»[4].

١- انظر : أرنولد توينبي - مختصر دراسة للتاريخ - تعريب فؤاد محمّد شبل - الادارة الثقافيّة في جامعة الدول العربيّة، القاهرة- الطبعة الأولى ١٩٦٠ – ج١ – المقدّمة ص٣ وما بعدها وانظر كتابي الأستاذ احمد القصص: أسس النهضة الراشدة ونشوء الحضارة الاسلامية فقد اقتبسنا في هذا المبحث منهما الكثير من الاقتباسات.

٢- رالف لنتون – شجرة الحضارة – ترجمة أحمد فخري – مكتبة الإنجلومصريّة – دون تاريخ - ج١ –ص ٦٥

٣- المرجع السابق – مادّة Culture

٤- نصر محمّد عارف - الحضارة ، الثقافة، المدنيّة- المعهد العالمي للفكر الإسلاميّ ، فرجينيا -١٩٩٥م - ص ٢١

فإننا نقصد المفهوم الذي يحمله ذلك المصطلح فنحن إنما نقصد التعبير عن طراز العيش الّذي يسود مجتمعاً من المجتمعات ، أي هويّة ذلك المجتمع. وعلى حدّ تعبير "رالف لنتون" «فالمجتمع عبارة عن مجموعة منظَّمة من الأفراد، والحضارة مجموعة منظَّمة من الاستجابات الّتي تعلَّمها الأفراد وأصبحت من مميِّزات مجتمع معيّن»[٥]. وواضح للعيان تاريخاً وحاضراً أنّ لكلّ مجتمع طريقة في العيش تميّزه عن سائر المجتمعات تجعل منه جماعة بشريّة ذات شخصيّة معيّنة ولون متميّز وهويّة خاصّة هذه الطريقة من العيش الّتي تميّز مجتمعاً عن آخر هي ما يعبَّر عنه "بالحضارة".

من المعلوم أنّ المجتمع هو مجموعة من الناس تؤلِّف بينهم علاقات مستمرّة، بها يقوم ذلك المجتمع وبتميّزها يتميّز، أو على حدّ تعبير "توينبي" « إنّ المجتمع البشريّ هو في ذاته نظام للعلاقات بين الكائنات البشريّة »[٦]. وهذا النظام الّذي يربط الأفراد فيشكلّ المجتمع إنّما هو مجموع ما يحمله هؤلاء الناس من أفكار ومشاعر وما يرعى شؤونهم من تشريعات وقوانين.

المجتمع هو مجموعة من الناس تنشأ بينهم علاقات دائمة، ففرد زائد فرد ...الخ يساوي جماعة، اي ينشأ عن هذه المجموعة من الافراد جماعة، فاذا انشأت بين هؤلاء الافراد علاقات دائمية كانوا مجتمعا، وان لم تنشأ بينهم علاقات دائمة ظلوا جماعة، ولا يشكلون مجتمعا الا اذا نشأت بينهم علاقات دائمية، فالذي يجعل مجموعة الناس تشكل مجتمعا انما هو العلاقات الدائمية فيما بينهم،

فالذي يجعل مجموعة الناس تشكل مجتمعا انما هو العلاقات الدائمية فيما بينهم، وهذه العلاقات انما تنشأ بدافع مصالحهم. فالمصلحة هي التي توجد العلاقة ومن غير وجود مصلحة لا توجد علاقة الا ان هذه المصالح انما يبينها من حيث كونها مصلحة او مفسدة مفهوم الانسان عن المصلحة، وبما ان المفاهيم هي معاني الافكار فتكون الافكار هي التي عينت المصلحة وبالتالي هي التي اوجدت العلاقة .

٥- شجرة الحضارة – ج١ – ص ٦٥ . انظر أيضاً في هذا الموضوع: مختصر دراسة للتاريخ – ج١ – ص ٣٥٤

٦- مختصر دراسة للتاريخ – ج١ – ص٣٥٣

وبما انه لا بد ان يوجد الى جانب الافكار المشاعر من فرح وسرور وغضب .. الخ الانظمة التي تعالج بها هذه المصلحة حتى يتم وجود هذه العلاقة، لذلك فان العلاقة حتى توجد بين الناس لا بد ان تتحقق بينهم وحدة الافكار والمشاعر والانظمة . فاذا لم توجد وحدة هذه الامور الثلاثة بينهم لا توجد علاقة ومن هنا كان المجتمع هو الناس وما يوجد بينهم من افكار ومشاعر انظمة .

فسلوك الإنسان وعلاقاته مع الآخرين إنّما تتحكّم بها مفاهيمُه الّتي هي مزيج من الفكر والشعور، كما أنّ التشريعات الّتي تقوم السلطة على رعايّة شؤون المجتمع بها، تتحكّم إلى حدّ كبير بعلاقات المجتمع، وبالتالي تؤثّر إلى حدّ بعيد في نمط العيش فيه.

وبناء عليه فإنَّ المجتمع هو «مجموعة من الناس تربطهم أفكار ومشاعر وأنظمة»، وإنّ هذا المجتمع يصنَّف بحسب هذه المنظومة من الأفكار والمشاعر والأنظمة، فإن كانت إسلاميّة مثلاً كان إسلاميّاً، وإن كانت ليبراليّة كان ليبراليّاً... وهذه هي عين الحضارة. فالحضارة والمجتمع على حدّ تعبير "رالف لنتون" «يتّصلان ببعضهما عن طريق الأفراد الّذين يكوِّنون المجتمع ويفصح سلوكهم عن نوع حضارتهم»[٧] .

في مجتمع كالمجتمع الأمريكي مثلا، قد تصل قيمة البيت إلى ربع مليون دولار، فمن أراد أن يشتريه، فلا بد له من أن يتوفر لديه الثمن أو يستدين، وبما أن الغالبية الساحقة من الناس لا تمتلك مثل هذا الثمن، فإن العلاقة بين البائع والمشتري لن تتحقق، وبالتالي فنشأت فكرة البنوك والتمويل، وقامت على أساس القروض الربوية، فكانت مصلحة للبائع ومصلحة للمشتري، فأمكن إذن إقامة العلاقة الدائمية، وتم تقنين القوانين التي تضبط هذه العملية، وعلى هذا قس سائر الأنظمة والعلاقات التي تحكم المجتمع،

ولو كان المسلم يعيش في تلك المجتمعات ورفض هذه العلاقة، فإنه لن يأثر في جريان المجتمع كله وفقا لتلك العلاقة، مما يدل على أن المجتمع إنما هو مجموعة الأفراد والعلاقات

٧- شجرة الحضارة - ج١ - ص٧١

القائمة على أفكار ومشاعر تقيم هذه العلاقات، والأنظمة التي تضبط سيرها، وأن الأفراد الـذين يرفضون هذه العلاقات لا يأثرون على صبغة المجتمع إلا أن يكونوا رأيا عاما يفرض نفسه فيـتم التغيير، ومن هنا فلو كان المجتمع مجرد أفراد بمعـزل عـن تلـك العلاقـات لمـا أمكـن وضـع حـد فاصل يبين صبغة المجتمع بين من يقبل بالعلاقات ومن يرفضها، والمسـلم يبقـى يعـيش فـي ذلك المجتمع بوصفه مسلما مع رفضه لتلك العلاقات وعدم إيمانه بها.

وها هم المسلمون في المجتمعات الغربية يزيدون على عشرات الملايين، ومع ذلك فتلك مجتمعات فرنسية، وهولندية، وأمريكية، ولم تتـأثر بهـذه الملايـين الكثيـرة الغريبـة علـى تلـك العلاقات وتلك الأنظمة، مما يدل قطعا على أن قوام المجتمعات الأساس هي تلك الأفكار وتلـك العلاقـات وتلـك الأنظمـة، ومقـدار حمـل الأفـراد وتـأثيرهم فـي الـرأي العـام الـذي يصـوغ تلـك العلاقات، وهذا الفهم مفتاح مهم لفهم طبيعـة العمـل التغييـري، فصـلاح الأفـراد قـد لا يفضـي بالضرورة إلى صلاح المجتمعات، إلا أن يصبح رأيا عاما قادرا على تغيير العلاقات، من هنا كـان لا بد للتغيير من ضرب تلـك العلاقـات ومـا تقـوم عليـه مـن أفكـار وأنظمـة بشـكل يبـين فسـادها وعوارها فتنفض الجموع عنها، أو تسعى لحمل نقيضها.

المبحث الخامس

تعريف الدولة:

عـرف حـزب التحريـر الدولـة علـى أنهـا كيـان تنفيـذي لمجموعـة المفـاهيم والمقـاييس والقناعات التي تحملها أمة من الأمم.

جاء في موقع موسوعة الحقوق العالمي[8] :

تعريف الدولة " على أنها هي مجموعة من البشر يرتبطون فيمـا بيـنهم بـروابط معينـة ، ويقيمون على إقليم معين و يخضعون لنظام وسلطة معينين.

وجاء في تعريف للدولة على أنها[9]:

A state is a political association with effective dominion over a geographic area. It usually includes the set of institutions that claim the authority to make the rules that govern the people of the society in that territory

مؤسسة (كيان) سياسي له سيادة فعالة علـى رقعـة مـن الأرض، عـادة تتضـمن مجموعـة مؤسسات لها السلطة لتشريع القوانين التي تحكـم مـن خلالهـا النـاس فـي المجتمـع فـي تلـك البلد.

8- http://ar.jurispedia.org/index.php/%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9

9- http://en.wikipedia.org/wiki/State

علاقة السلطة بالقوة:

وللوقوف على دقة تعريف الحزب للدولة، والذي قال به منذ نشأته في العام ١٩٥٣ تقريبا، والأمر الذي سنبني عليه إن شاء اللّه بناء مهما فيما يتعلق بطريقة أخذ السلطة، بالتفريق بين إنشاء الدولة وإقامة الدولة، وبعلاقة السلطة بالقوة، وبحكم أخذ السلطة من الحاكم بالقوة أقول وباللّه تعالى التوفيق:

وردت كلمة السلطة في التعريف وقولنا كيان تنفيذي يحمل معنى السلطة، فما هي السلطة؟

عرف السلطة على أنها[10]:

is often used interchangeably with the term" power ."However، their meanings differ" .Power "refers to the ability to achieve certain ends ، 'authority 'refers to the legitimacy، justification and right to exercise that power.

غالبا ما تستعمل كلمة السلطة بشكل تبادلي مع كلمة القوة مع أن معنييهما مختلفان فالقوة تعود على القدرة على الوصول إلى غايات معينة، والسلطة تعود على الشرعية والتبرير وحق استعمال القوة. انتهى

لو تفكرنا في هذا التعريف فسنجد أن السلطة هي غير القوة وهي تمثل الحق في تنفيذ تشريعات

واستعمال القوة في تنفيذها، وقد قال بهذا الكلام بهذه الدقة الحزب في نشرات كثيرة صدرت منذ أكثر من خمسين عاما! قالها نتاج تحليله المستنير لمفهوم السلطة، والقوة والدولة

10- http://en.wikipedia.org/wiki/Authority

في الفكر الاسلامي ودور كل منها، وهذه تعريفات عالمية لذا فلا عجب أن يوافق القانونيون في الغرب على عين التفريق والتعريف!

السلطان للأمة، توكل الخليفة عنها ليقيم فيها أحكام الاسلام

جاء في العدد الخامس والعشرين من مجلة الوعي:

السيادة عند الغرب: هي امتلاك الإرادة وامتلاك التنفيذ، فإذا سُلبت الإرادة وصار تسييرها بيد الغير، يُصبح مسلوب الإرادة عبداً، وإذا سيّر إرادته بنفسه كان سيداً.

أما السلطة عندهم فهي: ممارسة الحكم والقضاء. والفرق بين السيادة والسلطة هو أن السيادة تشمل الإرادة والتنفيذ أي تشمل تسيير الإرادة، وتشمل التنفيذ، بينما السلطة تختص فقط بالتنفيذ ولا تشمل الإرادة .... فالأمة الإسلامية مأمورة بأن تسيّر جميع أعمالها بأحكام الشرع، فالمسلم عبدٌ لله، فهو لا يسيّر إرادته ولا ينفذ ما يريد، وإنما يسيّر إرادته بأوامر الله ونواهيه، ولكنه هو المنفذ، ولذلك فإن السيادة ليست للأمة وإنما هي للشرع، أما التنفيذ فهو للأمة، ولذلك كان السلطان للأمة. انتهى

إذن:

فمجموع الأوامر والنواهي التي نزل بها الوحي والتي تسير سلوك الإنسان في الحياة، وتقيم العلاقات في المجتمع وفق نمط عيش خاص، وتضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين الرعية بعضها مع بعض، وتحيط بأفعال الإنسان وفق نظام خاص، على الفرد والدولة والحزب واجب تنفيذها وفق الآلية التي بينتها الشريعة، ويعتبر تنفيذها ممارسة للسلطان، ويعتبر إحلال منظومة أخرى محلها سلبا للسلطان من الأمة.

فأن ترى المنكرات في المجتمع تتناقض مع ما أمر الله به، ويعتبر إنكارك لها أمرا مستوجبا للمحاكمة، يعني أن السلطان مسلوب لأنه يطبق منظومة أخرى في الحياة تتناقض مع الإسلام.

مجموعة الأوامر هذه أي الشرع، ينفذ الفرد ما يخصه كفرد فيها بنفسه، فهو يصوم ويصلي ويحج ، ويتنفيذه لهذه الأوامر يكون أقام السلطان فيما يخصها في خاصة نفسه.

ومن هذه الأحكام ما أنيط بالدولة، فقطع يد السارق لم يترك للناس ينفذه أي شخص، ولو رآى مجموعة من المسلمين أن أحكام الله التي أناطها بالدولة معطلة، وقالوا في أنفسهم أن إقامتها خير من تعطيلها وشرعوا بذلك بأنفسهم فبدأوا بتنفيذ الحدود والقصاص، فإنهم يكونوا قد اعتدوا وعملهم غير مشروع.

قال الرازي محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي أبو عبد الله فخر الدين ولد بالري من أعمال فارس من تصانيفه الكثيرة: مفاتيح الغيب من القرآن الكريم. قال في تفسيره لقوله تعالى {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما} احتج المتكلمون بهذه الآية في أنه يجب على الأمة أن ينصبوا لأنفسهم إماماً معيناً والدليل عليه أنه تعالى أوجب بهذه الآية إقامة الحد على السراق والزناة، فلا بدّ من شخص يكون مخاطباً بهذا الخطاب، وأجمعت الأمة على أنه ليس لآحاد الرعية إقامة الحدود على الجناة، بل أجمعوا على أنه لا يجوز إقامة الحدود على الأحرار الجناة إلا للإمام، فلما كان هذا التكليف تكليفاً جازماً ولا يمكن الخروج عن عهدة هذا التكليف إلا عند وجود الإمام، وما لا يتأتى الواجب إلا به، وكان مقدوراً للمكلف، فهو واجب، فلزم القطع بوجوب نصب الإمام حينئذٍ.

وقال في تفسير قوله تعالى : {فاجلدوا} في أن المخاطب بقوله تعالى: {فَٱجْلِدُوا} من هو؟ أجمعت الأمة على أن المخاطب بذلك هو الإمام، ثم احتجوا بهذا على وجوب نصب الإمام، قالوا لأنه سبحانه أمر بإقامة الحد/ وأجمعوا على أنه لا يتولى إقامته إلا الإمام وما لا يتم الواجب المطلق إلا به، وكان مقدوراً للمكلف فهو واجب فكان نصب الإمام واجباً،

قال الشوكاني في قوله تعالى {والزانية والزاني } والخطاب في هذه الآية للأئمة ومن قام مقامهم، وقيل: للمسلمين أجمعين، لأن إقامة الحدود واجبة عليهم جميعاً ، والإمام ينوب عنهم، إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود.

أكتفي بهذه النقولات لأقول:

السلطان غير القوة وإن كان لا يعيش إلا بها. والقوة غير السلطان، وإن كان لا يستقيم أمرها إلا به.

فالسلطان هو الحكم، وولاية الأمر، وهو كيان تنفيذي لمجموعة الأفكار والمفاهيم والمقاييس التي تقبلتها الأمة، فعمله هو تنفيذ الأحكام، والرعاية لشؤون الناس، وتصريف أمورهم.

وبذلك يكون غير القوة، وإن كان السلطان لا يمكن أن يعيش إلا بالقوة، لأنها هي أداة الحماية للحكم، ولمجموعة الأفكار والمفاهيم والمقاييس والأحكام التي قام عليها السلطان، وهي في الوقت نفسه أداة بيد السلطان يستخدمها لتنفيذ الأحكام، وقهر المجرمين والظالمين والمعتدين، وقمعهم حتى يلتزموا بالأحكام.

أما القوة في الدولة، فهي ليست رعاية شؤون الناس، ولا تصريفاً لأمورهم، أي هي ليست السلطان، وإن كان وجودها وتكوينها وتسييرها وإعدادها وتجهيزها لا يتأتى بدون السلطان.

وهي عبارة عن كيان مادي يتمثل في الجيش، ومنه الشرطة، ينفذ به السلطان الأحكام، ويقهر به المجرمين والفسقة، ويقمع الخارجين، ويصدّ به المعتدين، ويتخذه أداة لحماية السلطان، وما يقوم عليه من أفكار ومفاهيم ومقاييس.

ومن هنا يتضح أن السلطان غير القوة، وأن القوة غير السلطان.

لذلك لا يجوز أن يصبح السلطان قوة، لأنه إن تحول السلطان إلى قوة فسدت رعايته لشؤون الناس، لأن مفاهيمه ومقاييسه تصبح هي مفاهيم القهر والقمع والتسلط، وليس مفاهيم الرعاية، ويتحول إلى حكم بوليسي، ليس له إلا الإرهاب والتسلط والكبت والقهر وسفك الدماء.

وكما لا يجوز أن يصبح السلطان قوة، كذلك لا يصح أن تكون القوة سلطاناً، لأنها ستصير تحكم بمنطق القوة، وترعى شؤون الناس بمفاهيم ومقاييس الأحكام العسكرية، ومقاييس القمع والقهر، وكلا الأمرين يسبب الخراب والدمار، ويولد الرعب والخوف والفزع، ويوصل الأمة إلى حافة الهاوية، مما سيوقع أشد الضرر بالأمة، والقاعدة الشرعية تقول: «لا ضرر ولا ضرار».

الخلافة في المصادر الإسلامية والتاريخ الإسلامي تعني:

السلطة السياسية الإسلامية.

وقد عرّف الماوردي الإمامة بقوله هـي: «... موضـوعة لخلافـة النبـوة فـي حراسـة الـدين، وسياسة الدنيا».

وعرّفها ابن خلدون بقولـه: «حمـل الكافَّـة علـى مقتضـى النظـر الشـرعي فـي مصـالحهم الأخروية، والدنيوية الراجعة إليها.. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الـدين وسياسة الدنيا به...».

وعرّفها الإمام الجُوَيْني «الإمامة: رياسة تامّة في مهمات الدين والـدنيا... لحفـظ الحَـوْزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، والانتصاف للمظلومين مـن الظـالمين، واسـتيفاء الحقوق من الممتنعين وإيفائها على المستحقين».

هذا.. ونلاحظ في التعريفات الإسـلامية تـوفر عنصـر القـوة للسـلطة السياسـية مـن أجـل القيام بمهماتها (في حراسة الدين).

(حمل الكافـة..) (لحفـظ الحَـوْزة... وإقامـة الـدعوة بالحجـة والسـيف....) كمـا نلاحـظ فـي التعريفات

الإسلامية أن المهمة التي تنهض بهـا السـلطة السياسـية مزدوجـة فهـي إقامـة الـدين، ورعاية الأمور الدنيوية والمعاشية على أساس أحكام الدين.

أختم هذا الجزء بهذه النقولات لأقول:

يوجد الإسلام في الأرض إن طبق عمليا، وتطبيقه العملي في أغلب أحكامه لا يتم إلا إن وجدت الدولة، تلك التي ترعى مصالح الناس الدنيوية والأخروية وتسوسهم وتحرس دينهم وتأخذ الحق من المعتدي وبدون هذه الدولة يغيب سلطان الإسلام عن الأرض

مَنْ حَالَتْ شفاعَتُهُ دونَ حدَ من حدودِ اللّه فقد ضَادَّ اللّه في مُلْكِهِ

والأمر بالغ الخطورة إذ روى البيهقي في سننه الكبرى: عن ابنِ عُمَرَ قالَ: قالَ رسولُ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {مَنْ حَالَتْ شفاعَتُهُ دونَ حدَ من حدودِ اللّه فقد ضَادَّ اللّه في مُلْكِهِ}، فكيف بمن يقيم أحكامه مكان أحكام اللّه، يضاد اللّه في ملكه ويرد عليه أحكامه!!

أقول بعد هذه المقدمة:

منظومة الأحكام الشرعية التي على المسلمين أن يسيروا حياتهم وفقها، هي أساس السلطان ، أي أساس الحكم.

رجل أشركه اللّه في سلطانه !!

الحمد للّه حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه والصلاة والسلام على رسوله القائل فيما روي عنه:كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذي نرى من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنا مخلدون بعدهم، قد نسينا كل واعظ وواعظة، ورمينا بكل جائحة، طوبى لمن ذل في نفسه، وطاب كسبه، وصلحت سريرته، وحسنت خليقته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من لسانه، وعزل عن الناس شره، ووسعته السنة، ولم ينسب إلى بدعة، وبعد

ذكر ابن قتيبة الدينوري في كتابه الإمامة والسياسة أن إبراهيم بن مسلم أخبرهم عن رجاء بن حيوة، أنه نظر إلى طاووس اليماني يصلي في المسجد الحرام، فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ بمكة قد حج ذلك العام. فقال: إني رأيت طاووس في المسجد، فهل لك أن ترسل إليه؟ قال: فأرسل إليه سليمان. فلما أتاه قال رجاء لسليمان: يا أمير المؤمنين، لا تسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يتكلم. فلما قعد طاووس سكت طويلاً. ثم قال: ما أول شيء خلق! فقلنا: لا ندري. فقال أول شيء خلق: القلم. ثم قال: أتدرون ما أوّل شيء كتب؟ قلنا: لا، قال: فإن أول ما كتب بسم اللّه الرحمن الرحيم، ثم كتب القدر خيره وشرّه إلى يوم القيامة. ثم قال: أتعلمون من أبغض الخلق إلى اللّه؟ قلنا: لا، فقال: إن أبغض الخلق إلى اللّه تعالى عبد أشركه اللّه في سلطانه، فعمل فيه بمعاصيه، ثم نهض. قال رجاء: فأظلم عليّ البيت، فما زلت خائفاً عليه حتى توارى، فرأيت سليمان يحك رأسه بيده، حتى خشيت أن تجرح أظفاره لحم رأسه.

لقد حفظ هذا عن طاووس اليماني رضي اللّه عنه ابنه عبد اللّه بن طاووس فقد جاء في شذرات الذهب، وفي كثير من كتب التاريخ والسير، روى زياد عن مالك بن أنس رضي اللّه تعالى عنه قال: لما بعث أبو جعفر في عام ١٤٢هـ إلى مالك بن أنس وابن طاوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون

الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا، فأطرق زماناً طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثني عن أبيك. قال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله: صلى الله عليه وسلم "إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه، فأدخل عليه الجور في حكمه". فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه، قال مالك: فضممت ثيابي خوفا من أن يصيبني دمه، ظنا منه أن المنصور لابد قاتله، ثم قال المنصور لعبد الله: ناولني تلك الدواة، ثلاث مرات، فلم يفعل، فقال له: لم لم تناولني الدواة؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها . فلما سمع ذلك قال لهما: قوما عني، فقال عبد الله: هذا ما كنا نبغي، قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاووس فضله من يومئذ .

وورد في الدر المنثور للسيوطي وأخرجه ابن أبي شيبة وفي سنن الترمذي:

عن عمرو بن الحارث بن المصطلق قال كان يقال أشد الناس عذابا يوم القيامة اثنان امرأة عصت زوجها وإمام قوم وهم له كارهون قال هناد قال جرير قال منصور فسألنا عن أمر الإمام فقيل لنا إنما عني بهذا أئمة ظلمة فأما من أقام السنة فإنما الإثم على من كرهه، جاء في تحفة الأحوذي: قال العراقي هذا كقول الصحابي كنا نقول وكنا نفعل فإن عمرو بن الحارث له صحبة وهو أخو جويرية بنت الحارث إحدى أمهات المؤمنين وإذا حمل على الرفع فكأنه قال قيل لنا والقائل هو النبي صلى الله عليه وسلم انتهى

وروى أحمد والبزار من حديث ابن مسعود موقوفا} : أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبي وإمام جائر {قال زين الحفاظ العراقي في شرح الترمذي إسناده صحيح.

وقال رب العالمين وهو أصدق القائلين سبحانه:

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.} ٢١٣ البقرة وقال عز من قائل سبحانه:

{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا}

١٠٥ النساء

والى جانب هذا امر ان تكون سيادة حكم الشرع هي المسيطرة على العلاقات بين الحاكم والرعية فقال: "يا أيها الذين امنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى اللّه والرسول إن كنتم تؤمنون باللّه واليوم الاخر ذلك خير وأحسن تأويلا"

فأمر الرعية والحكام اذا تنازعوا في شيء ان يردوه الى حكم الشرع، وجعل ذلك علامة على الايمان فقال "فردوه الى اللّه والرسول" وعقبه على ذلك بقوله"ان كنتم تؤمنون باللّه واليوم الاخر" ولم يكتف بذلك بل مدح هذا العمل بقوله "ذلك خير واحسن تأويلا" مما يدل على تأكيده وجزمه في رد الامر الى حكم الشرع وهذا من أبلغ الحث على تحقيق سيادة حكم الشرع، وبهذا كله يتبين مدى ما لتحقيق سيادة حكم الشرع من أهمية في نظر الاسلام.

وعلاوة على ذلك فقد قرن تعالى طاعته وطاعة رسوله بطاعة أولي الأمر منا، وذلك لأن أولي الأمر كما أخبر ابن طاووس عن أبيه أن اللّه تعالى أشركهم في سلطانه، وفي رواية في ملكه، أي جعلهم خلفاء يحكمون بما أنزل من العدل ليقوم الناس بالقسط، فإن أدخلوا الجور على الناس، لم يقم الناس بما خلقهم اللّه تعالى وأنزل عليهم شرائعه ليكونوه، فيكون هؤلاء الحكام قد أدخلوا الجور على الحق سبحانه وتعالى، فأي شيء أفظع!!

إن الناس إن احتكموا إلى شرع اللّه ساد العدل وقامت السموات والأرض بالحق، فيتنزل فضل اللّه تعالى على البرية مصداقا لقوله تعالى:

وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا،

فإذ أدخل عليهم حكامهم الجور وطغوا وبغوا، أبعدوا الناس عن الاستقامة، وإذ لم يأخذ الناس على أيدي حكامهم ليأطروهم على الحق أطرا، ضاع الحق، ففسدت السموات والأرض، فدخل الجور في الأرض، فاستبيحت الحرمات، وانتهكت الحقوق، وفسدت الأحكام، فدخل الجور

إلى ملكوت الأرض، فرض الله تعالى على الخلق حكاما ومحكومين أن يقوموا بالقسط، فأبى من أبى، ونكص على عقبيه من نكص، فدخل الجور، لذا يشتد سخط الله ويشتد عذابه.

إن قضية الحكم بما أنزل الله بهذا الحجم من الخطورة، لا يكاد يضاهيها في الخطر قضية مثلها، فإما أن يسود حكم الله الأرض فيسود العدل، وإما يدخل على الله الجور من قبل حكام الأصل أنهم يحكمون خلفاء في الأرض ليقوم الناس بالقسط، أو من قبل محكومين ارتضوا أن يحكموا بغير شرع الله فارتضوا أن يسود الأرض غير عدل الله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة.

في الحديث القدسي عن أبي ذرٍ جندب بن جنادة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا.

فقد حرم الله الظلم على نفسه، وحرمه على العباد وأنزل الشرع الذي يضمن أن لا يدخل الجور في ملكوت السموات والأرض، فالويل والثبور لمن أدخل الظلم في هذا الملكوت، فكيف بمن يحكم بغير العدل مما أنزل الله متبعا هواه، وكيف بمن يحكم بغير ما أنزل الله فيقضي بالظلم ولا يكتفي بأن يدخل على الله تعالى الجور في الحكم ولا يكتفي بأن يمنع الناس من العدل الذي شرعه لهم رب العزة سبحانه ليقوموا بالقسط، بل إنه يرد على الله تعالى أحكامه ويتخذ نفسه ربا من دون الله.

{وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١)}

والحمد لله رب العالمين

إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي، أن فاطمة زوجة الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز قالت: دخلت يوماً عليه، وهو جالس في مُصلاّه، واضعاً خدّه على يده، ودموعه تسيل على خديه، فقلت: ما لَكَ؟

فقال: ويحك يا فاطمة، قد وليت أمر هذه الأمة ما وليت، فتفكّرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي عزّ وجل سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت ألاّ تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي، فبكيت.

وجاء في طبقات ابن سعد أن عميراً بن سعد رضي الله عنه، وهو الذي ولاّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمص، كان يقول: «ألا إن الإسلام حائط منيع وباب وثيق فحائط الإسلام العدل وبابه الحق، ولا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل» .

وقال رب العزة سبحانه وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (٥٩) النساء

لقد كرم الله الإنسان، ورفع منزلته بعقله، وجعله خليفة في الأرض يعمرها، وأبى له أن يكون مثل البهائم أو دونها منزلة، لا يحكمها إلا شرع الغاب، يلتهم القوي منها الضعيف ولا يبقي له حقاً ولا يذر.

لقد وظف الإسلام القوة في خدمة السلطة لتحقيق العدل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وأبى الإسلام كل الإباء أن تكون القوة هي السلطة، واعتبر الحكم أمانة، وعلى أساس حسن أدائها لأهلها تترتب الطاعة وجوداً وعدماً.

هذه الآيات الكريمات وضعت ضابطين مهمين لوجوب الطاعة: أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، وهذا العدل لا يتحقق إلا بإرجاع كل أمر إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم نحكم بحكمهما، وإلا فلا عدل.

قلنا أن الشرع أبى أن تكون القوة هي السلطة، فالسلطة رعاية للشئون، والدولة إنما هي كيان تنفيذي لمجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقبلتها مجموعة من الناس، فهي تسهر على رعاية مصالح العباد وفقاً لهذه المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تهدف في نهاية المطاف إلى صبغ لون الحياة في تلك الأمة أو ذلك المجتمع بصبغة معينة متميزة تنطلق من وجهة النظر في الحياة.

ولا يشك شاك في أن الأمانات لا تؤدى لأهلها في هذا الواقع الذي يحياه المسلمون اليوم، بل إن الأمر كله موسد إلى غير أهله، والحكم لا يقوم على العدل، بل استشرى الظلم واستأسد وتقوى، والقوة لم تعد معينة للحاكم على أداء أمانته، بل أصبحت هي السلطة التي تقهر الناس لتستولي على البقية الباقية مما في أيديهم، وما عادت وجهة النظر في الحياة هي التي تصبغ المجتمعات في العالم الإسلامي، بل اختلط الأمر عليهم فلا هم يحيون حياة إسلامية ولا حياة رأسمالية!

لم يعد الحكام يعتبرون الحكم مغرماً بل عدوه مغنماً.

لم يعد منطقهم: قد وليت أمر هذه الأمة ما وليت، فتفكّرت في الفقير الجائع، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال

الكثير والمال القليل، فعلمت أن ربي عزّ وجل سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت ألاّ تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي، فبكيت

بل على النقيض من ذلك عملوا على أن يزداد الفقير الجائع جوعاً، واليتيم المكسور كسراً، والأرملة الوحيدة تشرداً، والشيخ الكبير قهراً وانكسارَ نفسٍ وغربةً، وكل هذا كان جراء التفريط في الأمانة التي ائتمن الله الأمة عليها ، وأخذها حكام لا يرعونها حق رعايتها، ولا يتصورون أنهم سيسألون عنها يوم القيامة.

خطآن قاتلان أخطأهما كثير من المسلمين اليوم ينبغي الوقوف عليهما:

أولهما: عدم التفريق بين السلطة وبين القوة.

وثانيهما: عدم التفريق بين السلطة وبين أدوات ووسائل اختيار الحاكم ومحاسبته!

ينصرف الذهن لدى المسلمين اليوم عند الحديث عن السلطة إلى القوة، لأنهم لم يعيشوا السلطة كرعاية شئون، بل لازمتهم السلطة قوةً تتحكم في رقابهم وتفرض عليهم الاغتراب عن دينهم ووجهة نظرهم في الحياة، فلم يكن من السهل عليهم تصور واقع الدولة الإسلامية الحقة، حتى تتوق نفوسهم إليها، لم يعيشوا نظاماً منبثقاً عن عقيدتهم متطابقاً مع وجهة نظرهم في الحياة يسهر على رعاية شئونهم ليكون الضعيف فيهم قوياً حتى يؤخذ الحق له، والقوي فيهم ضعيفاً حتى يؤخذ الحق منه، لم يروا السلطة تدور مع الحق حيث دار لتضمن حسن رعاية مصالح العباد بالنظام الذي نظمه رب العالمين لهم، بل أخذهم الواقع المرير للتفكير في البديل عن هذه القوة الحاكمة / الديكتاتورية عبر البديل الديمقراطي أو غيره، وهنا كان الخطأ القاتل.

المطلوب أن يفصل بين مفهوم السلطة ومفهوم القوة، لتكون القوة عوناً للسلطة لضمان حسن تطبيق الإسلام، فتكون إلى جانب الحاكم إذا اشتطت الرعية، وإلى جانب الرعية إذا زاغ الحاكم،

قال عليّ رضي اللّه عنه: «كلمات أصاب فيهنّ حقّ على الإمام أن يحكم بما أنـزل اللّه، وأن يؤدّى الأمانة، وإذا فعل ذلك فحقّ على الناس أن يسمعوا وأن يطيعوا وأن يجيبوا إذا دعوا» .

وقال صلى اللّه عليه وسلم : «كلا واللّه، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً أو ليضربن اللّه بقلوب بعضكم على بعض، ثم يلعنكم كما لعنهم» [رواه أبو داود والطبراني وأبو يعلى] .

فالمطلوب إذن إدراك واقع القوة والسلطة والعلاقة بينهما على أساس الإسلام.

أما الثانية: فكانت أيضاً نتاج إقصاء السلطة عن كتاب اللّه، نتاج وضع توسيد الأمر في غير أهله، حتى اضطربت الأمور وكممت الأفواه ومنعت المحاسبة، وأصبح قرار تشكيل السلطة في يد المتسلط والناس في نظره أقل شأناً من قطيع من الأغنام.

فكانت ردة الفعل التي لا يسبقها التفكير هي السبب في عدم تمييز البعض بين السلطة التي هي نظام الحكم، أي الكيان التنفيذي لوجهة نظر الناس في الحياة، وبين وسائل الوصول للحكم، ووسائل محاسبة الحاكم، فطالبوا بالأخيرة ونسوا الأولى وهي الأهم، فليس خروج الأمة من حالها المأساوي الراهن رهن إشارة صندوق الانتخاب، ولا طريقه فتح القنوات الإعلامية للقاصي والداني يتكلم كيف شاء، كلا، بل الأمر هو رهن طبيعة النظام البديل الذي ينبغي على المسلمين إيجاده في واقعهم ليحكمهم.

ذلك النظام المنبثق عن عقيدتهم، والذي ضمن لهم أن لهم الحق في اختيار الحاكم، وأمرهم بمحاسبته والسهر على حسن تطبيق الشرع، فلا ولم ولن ينهض الناس لمجرد أن يحوزا منابر الإعلام يتحدثون فيها بغير تغيير النظام واستبداله.

من هنا كان الخطأ الثاني في التركيز على وسيلة اختيار الحاكم وغض الطرف في الطرح كلية عن طبيعة النظام الذي سيرعى مصالح الناس، فسمعنا المطالبات بحرية التعبير ولم نسمع المطالب الموازية لها بقلع الطاغوت من منابته ووضع الإسلام محله.

فيا أيتها الأمة الكريمة، إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن توسدوا الأمر أهله، وأن تحكموا بالعدل ، وأن ترجعوا كل حكم من الأحكام للكتاب والسنة، وهذا وحده هو سبيل عزكم، وهذا وحده الضامن لتعيشوا حياة إسلامية.

لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف أو ضرباً بالسوط، ولكن قضاءً بالحق وأخذاً بالعدل.

دولة الخلافة بين النشوء والإقامة[11]

هناك الكثير من حملة الدعوة المخلصين في الأمة، لم يدرك بعد معنى حمل الدعوة لاستئناف الحياة الإسلامية، عن طريق إقامة الدولة الإسلامية، التي تحمل رسالة الإسلام إلى العالم بالدعوة والجهاد، فهم لم يتصوروا عظم وضخامة هذا المشروع وسمو الغاية، لذا فهم يتخيلون أن العمل هو لاستلام الحكم فقط ومنحصر به، فتجد الآراء والاقتراحات الكثيرة بلزوم التركيز على أخذ الحكم، وعلى إقامة الدولة بمختلف الطرق، وبشتى الأساليب والوسائل، حتى وإن لم يتم تغيير مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات المخالفة للإسلام التي تحملها الأمة، لأن الدولة (حسب تصورهم) كفيلة بتغييرها، وإيجاد مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات الإسلامية، عن طريق وسائل الإعلام، ومناهج التعليم، والتطبيق العملي للإسلام ... وهناك ممن حمل لواء الإسلام والعمل له، من يقول بعدم وجوب وجود حزب على الأقل يعمل لاستئناف الحياة الإسلامية، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، فيحرم الحزبية ويحارب وجودها، ويكفي في تصوره وجود مفكرين وكُتّاب ووعاظ يقومون بتأليف المؤلفات، ونشر الكتب والكتيبات، أو إصدار الخطب المسجلة لتقويم اعوجاج الأمة وإقامة الدولة.

إن هذه التصورات والآراء والاقتراحات تعبر عن مدى الجهل بكيان الأمة وكيان الدولة، والتفريق بينهما والغفلة عن مقوماتهما، وما الذي يؤثر فيهما. وللرد على هذه الأمور جميعها، وللإجابة عنها نقول وبالله التوفيق.

إن قضية الإسلام اليوم هي استئناف الحياة الإسلامية، وحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم، وأن طريقة ذلك هي الحكم، فأخذ السلطة إنما هو طريقة لجعل الحياة حياة إسلامية، أي جعل العلاقات القائمة بين الناس علاقات إسلامية، ولا يجوز أن ينظر إلى الحكم على أنه أكثر من طريقة فقط ليس أكثر، فالقضية ليست العمل فقط لتحطيم رجال الحكم، بل القضية هي جعل أفكار الإسلام طاغية في المجتمع حتى يجري هذا التحطيم لرجال الحكم واسترجاع

١١- أبو إبراهيم/ اليمن عن مجلة الوعي العددان ١٥٢ و ١٥٣

السلطان منهم، عن طريق طغيان هذه الأفكار. هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن الدولة تنشأ بنشوء أفكار جديدة تقوم عليها، ويتحول السلطان فيها بتحول هذه الأفكار، لأن الأفكار إذا أصبحت مفاهيم، أثرت في سلوك الإنسان وجعلت سلوكه يسير وفق هذه المفاهيم، فتتغير نظرته إلى الحياة، وتبعاً لتغيرها تتغير نظرته إلى المصالح؛ والسلطة إنما هي رعاية هذه المصالح والإشراف عليها وتسييرها، ولا تكون إلا للفئة الأقوى من فئات المجتمع، فإذا كان الناس في منطقة متفقين في نظرتهم إلى المصالح، أقاموا هم من يتولى رعاية شؤونهم، أي أقاموا هم السلطة التي تسير مصالحهم أو انقادوا لمن أقاموا أنفسهم في السلطة لتسيير مصالحهم، ومن هنا يأتي الحكم من الأمة قطعاً، إما باختيارها الفعلي، أو بسكوتها عن قيامه، والسكوت نوع من أنواع الاختيار.

وأما إن كانوا مختلفين في نظرتهم إلى المصالح، فإنهم يصبحون فئات متعددة، ولا بد أن تتولى السلطة الفئة الأقوى من هذه الفئات، فتسير مصالحها وتسير مصالح جميع الفئات وفق قناعاتها، ويضطر الجميع للخضوع لهذه الفئة وتسيير مصالحهم وفق قناعاتها، وعندها إما أن يستسيغوا هذا التسيير، وتصير نظرتهم إلى المصالح كنظرة هذه الفئة لها، وتنصهر الفئات كلها في فئة واحدة أو تتاح لهم الفرصة المؤاتية للتغلب على تلك الفئة، وأخذ السلطة منها وتسيير مصالح الجميع وفق قناعات الفئة المتغلبة. هذا هو الأمر الطبيعي والحتمي في كل سلطة تقوم على رعاية مصالح الناس، سواء أكانت سلطة قبلية أو سلطة ديمقراطية، أو سلطة إسلامية، وحتى السلطة الديكتاتورية هي سلطة فئة وليست سلطة فرد، لأن رعاية هذا الفرد لمصالح الناس لا تكون إلا بتأييد فئة قوية له أو السكوت عنه،

وفي كلتا الحالتين يقوم هو بسلطة هذه الفئة المؤيدة أو الساكتة لا بسلطته هو وحدها. وعليه فلا بد من وجود أفكار معينة عن الحياة، ولا بد من وجود فئة قوية تحمل هذه الأفكار عن قناعة، وتتقبلها برضا وحماس، حتى تُؤخذ السلطة، وليس المراد بالفئة هنا الحزب وإنما المراد جماعة من الناس في المجتمع، لأن الحزب ليس فئة، وإنما هو شخصية معنوية، فالأفكار المعينة عن الحياة التي تتمثل في مجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات هي الأساس،

وتقبّل مجموعة من الناس، أو فئة قوية منهم لهذه المجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات، ولو إجمالاً هو الذي يوجد الدولة ويحول السلطان فيها، بغض النظر عما إذا كان تقبُّل هذه الفئة أو المجموعة من الناس لهذه الأفكار ناتجاً عن صياغة دقيقة التصوير، شديدة التأثير، أو عن واقع محسوس ملموس شاهدت انطباقه على حوادث متعددة. وعلى ذلك كان لا بد من البدء في إيجاد الأفكار التي تحوي مجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات عن الحياة أولاً، ثم الحصول على تقبل مجموعة من الناس أو الفئة القوية فيهم لهذه المجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات حتى توجد الدولة وجوداً طبيعياً حتمياً. وأخذ الحكم في أي بلد لا يمكن أن يأتي إلا عن طريق اتخاذ مجموعة المقاييس والمفاهيم والقناعات التي تتبناها الأمة أو الفئة القوية منها طريقة للوصول إليه، وقضاء مصالح الناس حسب هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات، أما إذا كان يراد أخذ الحكم لتطبيق مفاهيم ومقاييس وقناعات تخالف أو تنافي المفاهيم التي قنع الناس بها أو تقبلوها أو ألفوها، فلا يمكن أن يأتي إلا بغزو خارجي تفوق قدرته المادية والفكرية قوة الأمة المادية والفكرية.

ومن هنا كان لا بد من البدء بالأمة لإيجاد مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات الإسلامية لديها، وحملها على تقبلها لها عن قناعة، ثم أخذ الحكم عن طريق الأمة، بإيجاد الدولة الإسلامية في منطقة، تنتقل بقوتها المادية وبزخمها الفكري إلى سائر أجزاء العالم الإسلامي لضمه كله في دولة واحدة.

أما ما هي هذه المجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات الإسلامية المراد إيجادها في الأمة، فهي الأفكار التفصيلية من الإسلام، لأن الفكرة الإجمالية، وهي العقيدة الإسلامية، تعتنقها الأمة وهي موجودة فيها، ولكن المطلوب هو إيجاد الأفكار التفصيلية في الأمة لتتشكل عندها مجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات، وهذه الأفكار التفصيلية منها ما يتعلق بالعقائد والأمور الأساسية، ومنها ما يتعلق بالأحكام الشرعية.

أما ما يتعلق بالعقائد والأمور الأساسية فمنها الأفكار والمفاهيم التي تضبط سلوك الإنسان في الحياة كمفهوم الرزق وانتهاء الأجل، والقدر، والقضاء والقدر، والهدى والضلال، والتوكل على الله، ومفهوم النصر، وأيضاً من المفاهيم مفهوم السعادة، ومقياس الأعمال، والحسن والقبح والخير والشر.

أما ما يتعلق بالأحكام الشرعية فمنها المتعلقة بنظام الحكم من مثل شكل الحكم وقواعده وأجهزته، وطريقة نصب الخليفة، وجواز إقامة أحزاب في دولة الخلافة شرط قيامها على أساس العقيدة الإسلامية ... وغيرها من الأحكام.

ومنها المتعلقة بالنظام الاقتصادي ... كتحديد أن المشكلة الاقتصادية هي توزيع الثروة، وليس إنتاجها، وبيان أسباب التملك وأنواع الملكيات في الإسلام، وواردات ونفقات بيت المال، والشركات في الإسلام، وحكم الشركات المساهمة وشركات التأمين ... وغيرها من الأحكام.

ومنها ما يتعلق بالنظام الاجتماعي ... كأحكام الاختلاط والاجتماع والحياة الزوجية، وجواز مزاولة المرأة للتجارة والصناعة وأن تكون عضواً في مجلس الأمة وان تتولى القضاء ... وهكذا.

ومنها ما يتعلق بالقضاء مثل نظام العقوبات من الحدود، والقصاص والتعزير، وأحكام البينات، وأحكام الأرش والديات ... إلى غير ذلك.

ومنها ما يتعلق بسياسة التعليم، وذلك كوجوب أن يكون الأساس الذي يقوم عليه منهج التعليم هو العقيدة الإسلامية، فتوضع مواد الدراسة وطرق التدريس على الوجه الذي لا يحدث أي خروج في التعليم عن هذا الأساس، وأن الغاية منه هي إيجاد الشخصية الإسلامية وتزويد الناس بالعلوم والمعارف المتعلقة بشؤون الحياة، وأن على الدولة أن تهيئ المكتبات والمختبرات وسائر وسائل المعرفة بالإضافة للمدارس والجامعات حتى يوجد في الأمة حشد من المجتهدين والمبدعين والمخترعين ...الخ.

ومنها ما يتعلق بالسياسة الخارجية من أحكام المعاهدات، كعقد معاهدات حسن الجوار والمعاهدت الاقتصادية والتجارية، وحرمة عقد الصلح الدائم أو المعاهدات العسكرية، وأن الغاية لا تبرر الواسطة فلا يتوصل بالحرام إلى الحلال، فالوسائل السياسية لا يجوز أن تناقض طريقة السياسة، وأن القضية السياسية للأمة هي الإسلام في قوة شخصيته ودولته وإحسان تطبيق أحكامه والدأب على حمل دعوته إلى العالم ...الخ.

ومنها الأحكام العامة، ككون العقيدة الإسلامية هي أساس الدولة، ووجوب جعل اللغة العربية اللغة الرسمية في الدولة، وفكرة تبني الخليفة للأحكام الشرعية، وأن الأدلة الشرعية المعتبرة هي الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقياس، وأحكام أهل الذمة ...الخ.

وغيرها من الأفكار التفصيلية التي تشكل مجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات الإسلامية، لأن الدولة والسلطة فيها ستقوم برعاية مصالح الناس والإشراف على تسييرها بهذه الأفكار التفصيلية، أما الفكرة الإجمالية وهي العقيدة الإسلامية فهي أساس الدولة وأساس الأفكار التفصيلية.

أما من الذي يوجد هذه الأفكار، أو بعبارة أخرى هذه المجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات في المجتمع، والذي يجعل الفئة القوية أو يجعل الناس في مجموعهم يتقبلونها أو يرون ضرورة أن يعيشوا على أساسها، فهو الحزب، وليس الدولة ولا الأمة، حتى ولا الأفراد المفكرون في الأمة إذا ظلوا أفراداً، وذلك لأن الدولة كيان تنفيذي فحسب لمجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقبلتها الأمة، وليست هي كياناً فكرياً، ولا يمكنها أن تتخطى واقع الأمة الحيوي والإدراكي الذي تسوس شؤونه، وتأخذ وجودها منه، وإنما بوسعها فحسب أن تعبر عملياً بمباشرتها رعاية الشؤون عن طاقة الأمة الحيوية والإدراكية، عن طريق تفجيرها وتنظيمها وتوجيهها، أما أن يطلب من الدولة التغيير أو الانقلاب على مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقبلتها الأمة وقامت الدولة على أساسها، فذلك غير ممكن لعدم وجوده في كيانها ككيان، لأن الدولة كيان تنفيذي فحسب لمجموعة المفاهيم

والمقاييس والقناعات التي تقبلتها مجموعة من الناس أو الفئة القوية فيها، فهي ترعى مصالحهم بهذه المجموعة من الأفكار، فلا يتصور نشوء دولة نشوءاً طبيعياً (أي سلطانها مستمد من الأمة) بمجموعة مفاهيم ومقاييس وقناعات تخالف مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقبلتها الأمة، وإن حصل أن قامت دولة بناءً على دغدغة مشاعر الناس بشعارات رنانة، وأفكار معينة، فإن مصير هذه الدولة السقوط، لأن الأمة هي التي أعطتها السلطان، فهي لا تقبل بتطبيق غير ما تحمله من مفاهيم ومقاييس وقناعات، ولا تسمح برعاية مصالحها وتسييرها بخلاف ما تحمله من أفكار.

أما استخدام الدولة لوسائل الإعلام، ومناهج التعليم، والتطبيق العملي للنظام كوسيلة للتغيير، فإن هذه الوسائل تستخدم من قبل الدولة التي استمدت السلطان والحكم من الأمة لتركيز أو لصهر المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقبلتها الأمة أو الفئة الأقوى فيها، وتفجير طاقات الأمة وتنظيمها وتوجيهها، وليس لتغييرها، لأن هذا يعني انقلاب الدولة على الأمة.

وتستخدم الدولة هذه الوسائل أيضاً للدعوة إلى الإسلام في البلاد المفتوحة وتعمل على تغيير المفاهيم والمقاييس والقناعات التي يحملها الناس في تلك البلاد، لأن الدولة الإسلامية في هذه الحالة تفوق قدرتها الفكرية والمادية قدرة تلك الشعوب المادية والفكرية، وهذه الحالة الوحيدة التي يتمكن فيها من تطبيق مجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تخالف ما تحمله الأمة وألفته، فيشعر الناس بعظمة الإسلام وعدله، وموافقته للفطرة وإقناعه للعقل، فيدخلوا في دين الله أفواجاً، أما في غير هذه الحالة، وهي الحالة الطبيعية للشعوب والأمم، فلا بد من تقبل مجموعة من الناس أو الفئة القوية فيهم لمجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات، حتى توجد الدولة وتنشأ نشوءاً طبيعياً.

ومن ذلك يتبين أن مهمة الدولة هي التطبيق والتنفيذ وليس الانقلاب والتغيير. وقد يتبادر إلى الذهن هذا السؤال وهو: كيف استطاع الحكام الحاليون والدول القائمة في العالم الإسلامي تطبيق النظام الرأسمالي على الأمة والأمة تحمل خلافه؟ وللإجابة على هذا التساؤل

نقول: إن الناظر إلى دويلات العالم الإسلامي يجد أنها قامت على أساس استقلال مزيف، وثورات للاستقلال سيرتها الدول المستعمرة، وقلة بل نادراً ما نشأت دولة منها نشوءاً طبيعياً. فالبلاد الإسلامية كانت مستعمرة من قبل الدول الكبرى، بعد تراجع الدولة الإسلامية، وانتهائها من الوجود، فقامت الدول الاستعمارية الكافرة بتطبيق النظام الرأسمالي على البلاد الإسلامية، وقسمتها إلى دويلات هزيلة، فاستكانت الأمة وخضعت لأنظمة الكفر وأحكامه، واستطاع الكافر المستعمر أن يوجد من بين أوساط المثقفين بثقافته، وعدد من السياسيين والمفكرين والعسكريين، وسطاً سياسياً يحمل مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات الغربية؛ وعندما قرر الخروج بناءً على ازدياد ضغوط الرأي العالمي من أجل إنهاء الاستعمار القديم، سلم مقاليد الأمور لعملائه بمراسيم رسمية، كما حصل في دول الخليج، أو بثورات مصطنعة وموجهة من قبل الدول المستعمرة، كما حصل في مصر والجزائر واليمن كرست الحال في البلاد الإسلامية، واستلم رجالات الحكم العملاء السلطان من الدول المستعمرة، وليس من الأمة لأنها لم تسترجع سلطانها فتمنحه لمن تريد، فكان السلطان الذي يحكم به معظم الحكام في البلاد الإسلامية، سلطاناً غير طبيعي، ولم تنشأ هذه الدول نشوءاً طبيعياً.

إضافة إلى أن الأمة من جراء ضعف فهم الإسلام، ومن جراء الغزو الثقافي والتبشيري، علقت في أذهانها بعض المفاهيم الغربية، وسكتت عن تطبيق قوانين النظام الرأسمالي المخالفة لإسلامها، ما مكّن الحكام (وهم الفئة القوية) من تطبيق المفاهيم والمقاييس والقناعات المخالفة للإسلام الذي تدين به ❑

أما دولة الخلافة فإنها تقوم بناءً على بيعة الأمة، فالأمة هي مصدر السلطان بالنسبة لها، وقد بايعتها لتحكمها وترعى شؤونها بما تحمله من مفاهيم وأفكار، فالدولة لا تستطيع تغيير مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تحملها الأمة لأنه لن يكتب لها البقاء، ولكن لو فرضنا جدلاً أن الدولة قامت بتطبيق مجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات خلاف ما تحمله الأمة وما ألفته أو عملت على تغيير ما يحمله الناس من أفكار، فإنها إن فعلت ذلك فهي بين خيارين: إما أن تضطر من جراء ضغط الناس عليها للنزول عن سدة الحكم

والتخلي عن السلطة، وإذا أصرت على استمرارها في الحكم فستجبرها الأمة على النزول لأن السلطان بيدها.

والخيار الثاني هو أن تخضع الدولة لمطالب الناس، وتطبق ما يحملونه من مفاهيم ومقاييس وقناعات.

ومن ذلك كله يتبين بوضوح أن الدولة كيان تنفيذي فحسب لمجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقبلتها مجموعة من الناس أو الفئة القوية منها.

أما الأمة فإنها كيان اجتماعي متنوع ومعقد فهو متولد من ذكر وأنثى، وتتفاوت فيه القوى الفكرية والعضوية والجسمية وتختلف فيه الأساليب التنفيذية لما يحمله من مفاهيم ومقاييس وقناعات، وهو فوق ذلك كله تسيطر عليه الأفكار الأساسية التي تفرعت عنها هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات سيطرة تجعل من الصعب عليه أن ينتج غيرها فهو محصور التفكير بها، ولذلك فإنه لا يمكن أن يكون كياناً فكرياً، ولهذا ليس بوسع أي شعب ولا أية أمة أن يبدل «بصفته الجماعية» نظرته إلى الحياة العامة ويغير مفاهيمه ومقاييسه وقناعاته التقليدية المشتركة مهما بلغت هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات من التأخر والانحطاط.

فالدولة بصفتها الكيانية والشعب أو الأمة بصفته الجماعية ليسا مصدراً للمفاهيم والمقاييس والقناعات وإنما هما محل تنفيذ هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات، فالأمة تنفذها على نفسها والدولة تنفذها على الأمة، فهما منفعلان بالمفاهيم والمقاييس والقناعات وليسا فاعلين، ويتحركان ويتصرفان إزاء الحياة بموجب مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات حيث تصبح القاعدة التي ينطلقان منها إلى الواقع الحقوقي للدولة والواقع المجتمعي للأمة. وعلى ذلك فلا بد أن يكون مصدر هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات والفاعل في الدولة والأمة هو شيء غير الأمة أو الدولة يكون فاعلاً لا منفعلاً ويكون هو القادر على إيجاد هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات والقادر على تركيزها والقادر على تعديلها وتبديلها والقادر على المحافظة عليها وهنا قد يتبادر إلى الذهن أنهم الأفراد المفكرون الذين ينشأون في الأمة

وأنهم هم الذين ينهضون بها وهم الذين يوحدون الدولة والمجتمع، وقد يستشهد في هذا المجال بالأنبياء وبالمصلحين فإنهم أفراد ونهضوا بأممهم، وهنا يقع الخطأ وتزل الأقدام لأن الأفراد بصفتهم الفردية ليس لهم كيان، والأمة في مجموعها كيان، والدولة كيان فلا يمكن أن يؤثر في كل منهما إلا كيان أقوى منهما، له الصفة الكيانية المركبة من عوامل يربط بينهما رابط يجعلها تشكل كياناً، فالفرد مهما بلغت قدرته لا يمكن أن يؤثر في كيان مهما بلغ ضعفه فلا يؤثر في الكيان إلا الكيان، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الفكرة حين تحصل في ذهن الشخص الفرد تتسم بطابع فكري شخصي بحت مهما كان سبب حصولها سواءً أكان من إبداع منه أو كان قد سمعها من غيره بغض النظر عما إذا كان هذا السماع آتياً عن طريق القراءة أو التلقين، وتظل الفكرة على هذه الصفة الفكرية الشخصية ما دامت تأخذ جانب التفكير فقط، ويعتبرها ملكاً له، ويحرص على تمييزها بطابعه وحده، فتنقلب إلى أفكار نظرية يتحدث بها أو تسكب في مؤلفات، ولا تحدث أي أثر في الدولة أو الأمة مهما كثر عدد المفكرين، ومهما كثرت الكتب والمؤلفات، وحين يتسنى لهذه الفكرة التحول إلى قناعة في المفكر تنتقل من الصفة الفكرية الشخصية إلى صفة المقياس والمفهوم وتتحول من جانب التفكير فقط إلى جانب التفكير والتطبيق، فتخرج حينئذٍ الفكرة من نطاق التفكير إلى حيز الوجود عند الناس، ثم إلى حيز الوجود في المجتمع أما ما هو الذي يجعلها تتحول وتنتقل فإنه الإيمان الجازم بها، أي التصديق الجازم المطابق للواقع عند المفكر. وأما ما هي الطريق التي تسلكها إلى ذلك فإنها طريق الترديد والإقناع، والتطبيق، وهذا لا يتأتى إلا في جماعة، ومع جماعة ويستمر هذا الترديد والإقناع والتطبيق في هذه الجماعة ومعها حتى تصبح الفكرة ملك هذه الجماعة كجماعة، وملك كل واحد منها، وتدخل على نظرتهم للحياة فتحتلها، وعلى تصرفاتهم فتصححها وتعدلها، ويصبح لها سلطان، وتصبح مناخاً يتأثر الإنسان بخصائصه إذا وضع فيه، وبذلك يوجد للفكرة كيان خاص، غير كيان الأمة وإن كان جزءاً منها لا جزءاً من كيانها، ويسير هذا الكيان الخاص تحت سلطان الدولة لا تحت كيانها، هذا الكيان الفكري إنما هو الحزب الذي يتكون في الأمة وعلى ذلك فالذي يؤثر في الشعب أو الدولة إنما هو الحزب وليس الأفراد.

أما ما يستشهد به من أن الأنبياء كانوا أفراداً واستطاعوا بصفتهم الفردية تغيير أقوامهم ومجتمعاتهم، فكذلك الأفراد المفكرون في الأمة يستطيعون تغيير كيان الدولة وكيان الأمة بصفتهم الفردية.

فلبيان خطأ الاستشهاد نأخذ مثالاً للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم قدوتنا الحسنة ومن أمرنا باتباعه والتأسي به قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

فإنه من أول يوم بدأ فيه الدعوة إلى الإسلام بدأ بتشكيل كيان للدخول فيه في المجتمع، فبدأ يدعو الناس ممن يستأنس بهم خيراً للدخول في الإسلام، فمن استجاب له ضمه إلى جسمه، وبدأ بتعليمه أحكام الدين وما يتنزل من الذكر الحكيم في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وفي بيوت الذين آمنوا، وفي شعاب الجبال، وكان أيضاً يبعث إليهم من يعلمهم أمور دينهم، ويقرئهم القرآن الكريم، ولما نضج هؤلاء الصحابة في ثقافتهم، وتكونت عقليتهم عقلية إسلامية، ونفسيتهم نفسية إسلامية، واطمأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على شخصيات أصحابه، وعلى إدراكهم للصلة بالله، وتركّز العقيدة الإسلامية في نفوسهم حتى أصبحت في ثباتها كالرواسي الشامخات، دخل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتكتله الجديد (تكتل الصحابة) المجتمع بعد نزول آية الصدع بالدعوة ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾ فصدع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمر ربه، وتحرك هو وأصحابه بكيانه الجديد داخل المجتمع المكي يدعو إلى الله على بصيرة متحملاً هو وأصحابه أشد صنوف الأذى والعذاب قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ وعند إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما قويت شوكة المسلمين والدعوة، وأظهر رسول الله أمر التكتل علناً للناس جميعاً بعد أن كان سرياً.

وأيضاً كانت العرب تقول محمد وصحبه إشارة منهم إلى حزب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأن الحزب في اللغة: الرجل وأصحابه الذين على رأيه.

ومن ذلك يظهر أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يدخل المجتمع ولم يعمل على تغييره بصفته الفردية وإنما دخله بصفته الجماعية أي بكيان فكري وهو تكتل الصحابة رضوان الله عليهم.

وإنه وإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم يختلف عمله كرسول في تبليغ الإسلام عن الصحابة رضوان الله عليهم وأن بعض الأعمال كان يقوم بها الرسول وحده دون تكليف أصحابه رضوان الله عليهم بها إلا أن الرسول كان يشرك صحابته في أعمال حمل الدعوة في المجتمع كالاتصال بالناس، وتعليم القرآن الكريم أو إظهار التحدي وقوة الدعوة، وإيجاد أجواء للدعوة خارج مجال الدعوة بالأشخاص الذين آمنوا به وبدعوته... وهكذا قام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأعماله في المجتمع ككيان وتكتل وليس بصفته الفردية، ولمزيد من الإيضاح نأخذ بعض المواقف والحوادث المأخوذة من السيرة النبوية التي تظهر تحرك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ككتلة في المجتمع وليس بصفته الفردية:

١ـ قيام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بإنشاء تكتل في المجتمع من الأشخاص الذين آمنوا بدعوته، بضمهم إلى جسمه وتعليمهم القرآن الكريم وبناء شخصياتهم عقلية ونفسية.

٢ـ قيام بعض الصحابة بأعمال حمل الدعوة من كسب الأشخاص للدعوة، وتعليم القرآن الكريم، كقيام أبي بكر بالدعوة إلى الإسلام، وإسلام بعض الصحابة على يده كعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم، وتعليم الخباب بن الأرت القرآن الكريم لفاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد.

٣ـ طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من بعض الصحابة القيام ببعض أعمال حمل الدعوة، ومثال ذلك:

أ ـ عندما أراد أن يقوم بعمل فيه تحدٍ لقريش بإسماعها القرآن الكريم طلب من أصحابه القيام بذلك فقام عبد الله بن مسعود وقرأ على قريش القرآن.

ب ـ طلبه صلى الله عليه وآله وسلم من أبي ذر الغفاري الرجوع إلى قومه ودعوتهم إلى الإسلام، لإيجاد أجواء للدعوة خارج مجال دعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

جـ ـ إرساله لمصعب بن عمير إلى المدينة لدعوة أهلها إلى الإسلام وللقيام بعمل طلب النصرة.

٤ـ حرص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على جلب شخصيات بارزة ومؤثرة لتقوية جسم تكتله والدعوة فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين».

٥ ـ بعد إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أظهر الرسول الكتلة كعمل كفاحي فيه التحدي لقريش بالكيان الفكري الجديد.

ومن هنا تسقط الشبهة ويتبين أن الأفراد والمفكرين في الأمة لا يستطيعون التغيير بصفتهم الفردية مهما كتبوا من كتب وكتيبات، ومهما ألفوا من مؤلفات، وأن الحزب وحده القادر على التغيير والتأثير في كيان الدولة وكيان الأمة.

وعلى قدر تمسك الحزب بكيانه الفكري تطول أو تقصر فترة صراعه، إذ إن تمسكه الفكري ككيان يقصر فترة صراعه، وتساهله فيه يطيل مدة هذه الفترة، هذا من ناحية تكتلية وبحث في واقع، ولكن قد تطول الفترة مع التمسك بكيانه الفكري امتحاناً وابتلاءً للمؤمنين، أو لحكمة يعلمها سبحانه كما حصل مع الأنبياء والمرسلين من تأخر النصر عليهم، فالنصر بيد الله يؤتيه من يشاء في الوقت الذي يريد، وما لم يتحول الحزب عن مفاهيمه ومقاييسه وقناعاته فإنه لا شك سيصرع كيان الفئة القوية في الناس، ويصبح وإياها كياناً واحداً يأخذ فيه كيانه البارز مركز القيادة، فتسلمه الأمة قيادتها. وبالكيانين الفكري والتنفيذي يستولي على باقي

الفئات ويصهرها كلها في كيان واحد هو كيان الأمـة. والصـراع الـذي يحصـل مـع كونـه صـراعاً فكرياً فهو صراع مقاييس ومفاهيم وقناعات وليس صراع أفكار مجردة، ولذلك يتنـاول العلاقـات العامة والمصالح العامة، لأنه يريد أن يحطم الصفة الكيانية الفاسدة للأمـة بتحطـيم المفـاهيم والمقاييس والقناعات التي يتكون عليها الكيان لا تحطيم الأمة إذ إنه يسـعى لأخـذ الأمـة ورفـع شـأنها واسـتبدال كيانهـا الحـالي وإعطائهـا كيانـاً أفضـل منـه، يصـبح كيانهـا المتميـز بالرفعـة والسمو ويريد أن يحطم الصفة الكيانية للدولة بتحطيم المفـاهيم والمقـاييس والقناعـات التـي تقوم عليها واستبدال كيانها الحالي بإعطائها كيانـاً جديـداً علـى أسـاس المفـاهيم والمقـاييس والقناعات الجديدة.

مما سبق يتبين ضرورة وجود العمل الجماعي في كتلة أو حزب لإحداث التغيير في الأمـة، وأن العمل الفردي يبقى قاصراً عن إحداث التغيير.

نسأل اللّه سـبحانه لمـن هـداهم اللّه إلـى الطريـق المسـتقيم فعملـوا فـي حـزب أو كتلـة لاستئناف الحياة الإسلامية أن يُـعجِّـل اللّه لهم النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ونسأله سبحانه للمسلمين غير العاملين في هذا الطريق أن يتبيَّن لهم الحـق فيلتزمـوه. وأن يعز اللّه هذه الأمة بالخلافة الراشدة فتعود عزيزة كريمة خير أمة أخرجت للناس[١٢] ❑

١٢- مجلة الوعي العددان ١٥٢ و ١٥٣

الدولة والأمة: كيانان منفعلان، والحزب كيان فاعل:[١٣]

تقوم الدولة على مجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تحملها الأمة، وتتعاقد مع الدولة على تطبيقها عليها،

وأخذ الحكم في أي بلد لا يمكن أن يأتي إلا عن طريق اتخاذ مجموعة المقاييس والمفاهيم والقناعات التي تتبناها الأمة أو الفئة القوية منها طريقة للوصول إليه، وقضاء مصالح الناس حسب هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات. أما إذا كان يراد أخذ الحكم لتطبيق مفاهيم ومقاييس وقناعات تخالف أو تناقض المفاهيم التي قنع الناس بها أو تقبلوها أو ألفوها فلا يمكن أن يأتي إلا بغزو خارجي تفوق قدرته المادية والتفكيرية قوة الأمة المادية والتفكيرية.

ومن هنا كان لا بد من البدء بالأمة لإيجاد مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات الإسلامية لديها، وحملها على تقبلها لها عن قناعة، ثم أخذ الحكم عن طريق الأمة لإيجاد الدولة الإسلامية في منطقة تنتقل بقوتها المادية والتفكيرية إلى سائر أجزاء العالم الإسلامي لضمه كله في دولة واحدة.

والذي يوجد هذه الأفكار أو بعبارة أخرى هذه المجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات في المجتمع، والذي يجعل الفئة القوية أو يجعل الناس في مجموعهم يتقبلونها ويرون ضرورة أن يعيشوا في المجتمع على أساسها إنما هو الحزب فحسب وليس الدولة ولا الأمة، حتى ولا الأفراد المفكرون في الأمة إذا ظلوا أفراداً.

وذلك لأن الدولة كيان تنفيذي فحسب لمجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقبلتها الأمة وليست هي كياناً فكريا. ولا يمكنها أن تتخطى واقع الأمة الحيوي أو الإدراكي الذي تسوس شؤونه، وتأخذ وجودها منه. وإنما بوسعها فحسب أن تعبر عملياً بمباشرتها رعاية

١٣- دخول المجتمع لحزب التحرير.

الشؤون عن طاقة الأمة الحيوية والإدراكية عن طريق تفجيرها وتنظيمها ووضعها موضع العمل.

أما أن يطلب من الدولة إصلاح أو انقلاب فذلك غير ممكن لعدم وجوده في كيانها ككيان لأن الدولة كيان تنفيذي فحسب وليس كياناً فكرياً.

أما الأمة فإنها كيان اجتماعي متنوع معقد، فهو متولد من ذكر وأنثى، وتتفاوت فيه القوى الفكرية والعضوية والجسمية، وتختلف لديه الأساليب التنفيذية لما يحمله من مقاييس ومفاهيم وقناعات. وهو فوق ذلك كله تسيطر عليه الأفكار الأصلية التي تفرعت عنها هذه المقاييس والمفاهيم والقناعات سيطرة تجعل من الصعب عليه أن ينتج غيرها، فهو محصور التفكير بها.

ولذلك فإنه لا يمكن أن يكون كياناً فكرياً. ولهذا ليس بوسع أي شعب ولا أية أمة أن يبدل - بصفته الجماعية - نظرته إلى الحياة العامة، ويغير مفاهيمه ومقاييسه وقناعاته التقليدية المشتركة، مهما بلغت هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات من التأخر والانحطاط.

فالدولة بصفتها الكيانية، والشعب - أو الأمة - بصفته الجماعية، ليسا مصدراً للمفاهيم والمقاييس والقناعات، وإنما هما محل تنفيذ هذه المقاييس والمفاهيم والقناعات. فالأمة تنفذها على نفسها، والدولة تنفذها على الأمة، فهما منفعلان بالمفاهيم والمقاييس والقناعات وليسا فاعلين.

ويتحركان ويتصرفان إزاء الحياة بموجب مجموعة المقاييس والمفاهيم والقناعات، حيث تصبح هي القاعدة التي ينطلقان منها إلى الواقع الحقوقي للدولة، والواقع المجتمعي للأمة.

وعلى ذلك فلا بد أن يكون مصدر هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات، والفاعل في الأمة والدولة هو شيء غير الأمة أو الدولة، يكون فاعلاً لا منفعلاً، ويكون هو القادر على إيجاد هذه

المفاهيم والمقاييس والقناعات، والقادر على تركيزها، والقادر علـى تعـديلها وتبـديلها، والقـادر على المحافظة عليها.

وهنا قد يتبادر للذهن أنهم الأفراد المفكرون الذين ينشأون في الأمة، وأنهم هـم الـذين ينهضون بها، وهم الذين يوجدون الدولة والمجتمع، وقـد يستشـهد فـي هـذا المجـال بالأنبيـاء وبالمصلحين، فإنهم أفراد نهضوا بأممهم، وهنا يقع الخطأ وتزل الأقدام. لأن الأفـراد بصـفتهم الفردية ليس لهم كيان، والأمة في مجموعها كيان، والدولة كيان، فـلا يمكـن أن يـؤثر فـي كـل منهما إلا كيان أقوى منهما، له الصفة الكيانية، المركبة من عوامل يـربط بينهـا رابـط يجعلهـا تشكل كياناً فاعلا لا منفعلا.

فالفرد مهما بلغت قدرته لا يمكن أن يؤثر في كيان مهما بلغ ضعفه. فلا يؤثر في الكيـان إلا الكيان.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفكرة حين تحصل فـي ذهـن الشـخص الفـرد تتسـم بطابع فكري شخصي بحت، مهما كان سـبب حصـولها، سـواء أكـان عـن إبـداع منـه، أو كـان قـد سمعها من غيره، بغض النظر عما إذا كان هذا السماع آتياً عن طريق القراءة أو التلقين.

وتظل الفكرة على هذه الصفة الفكرية الشخصية ما دامـت تأخـذ جانـب التفكيـر فحسـب، ويعتبرها ملكاً له، ويحرص على تمييزها بطابعه وحده، فتنقلب إلى أفكار نظريـة يتحـدث بهـا أو تسكب في مؤلفات. ولا تحدث أي أثر في الدولة أو الأمة مهما كثر عدد المفكرين، ومهما كثـرت الكتب والمؤلفات. وحين يتسنى لهذه الفكرة التحول إلى قناعة فـي المفكـر، تنتقـل مـن الصـفة الفكرية الشخصية إلى صفة المقياس والمفهوم، وتتحـول عـن جانـب التفكيـر فقـط إلـى جانـب التفكير والتطبيق. فتخرج حينئذ الفكرة من نطاق التفكير إلى حيز الوجـود عنـد النـاس، ثـم إلـى حيز الوجود في المجتمع.

أما ما هـو الـذي يجعلهـا تتحـول وتنتقـل فإنـه الإيمـان الجـازم بهـا، أي التصـديق الجـازم المطابق للواقع عند المفكر. وأما ما هي الطريق التي تسلكها إلـى ذلـك، فإنهـا طريـق الترديـد،

والإقناع، والتطبيق. وهذا لا يتأتى إلا في جماعة، ومع جماعة. ويستمر هذا الترديد والإقناع والتطبيق في هذه الجماعة ومعها حتى تصبح الفكرة ملك هذه الجماعة كجماعة، وملك كل واحد منها. وتدخل على نظرتهم للحياة فتحتلها، وعلى تصرفاتهم فتصححها وتعدلها، ويصبح لها سلطان، وتصبح مناخاً يتأثر الإنسان بخصائصه إذا وضع فيه، وبذلك يوجد للفكرة كيان خاص، غير كيان الأمة وإن كان جزءا منها لا جزءا من كيانها، ويسير هذا الكيان الخاص تحت سلطان الدولة لا تحت كيانها. هذا الكيان الفكري إنما هو الحزب الذي يتكون في الأمة. وعلى ذلك فالذي يؤثر في الشعب أو الدولة إنما هو الحزب وليس الأفراد المفكرون.

والحزب بوصفه كياناً يصبح يتصارع مع كيان الدولة ومع كيان الأمة ليصرعهما معاً، لأن فيه خاصية الفاعلية لا خاصية الانفعالية. بعكس كيان الدولة أو كيان الأمة فإن في كل منهما خاصية الانفعالية لا خاصية الفاعلية، وعلى قدر تمسك الحزب بكيانه الفكري تطول أو تقصر فترة صراعه، إذ أن تمسكه الفكري ككيان يقصر فترة صراعه، وتساهله فيه يطيل مدة هذه الفترة.

وما لم يتحول الحزب عن مفاهيمه ومقاييسه وقناعاته فإنه ولا شك سيصرع الكيانين: كيان الأمة وكيان الدولة معاً. إذ سيصرع كيان الفئة القوية في الناس، ويصبح وإياها كياناً واحداً يأخذ فيه كيانه البارز ضمن كيان الأمة مركز القيادة، وبهذا الكيان الجديد يصرع كيان الدولة. وبالكيانين الفكري والتنفيذي يستولي على باقي الفئات، ويصهرها كلها في كيان واحد هو كيان الأمة.

والصراع الذي يحصل مع كونه صراعاً فكرياً فهو صراع مفاهيم ومقاييس وقناعات، وليس صراع أفكار مجردة، ولذلك يتناول العلاقات العامة، والمصالح العامة، لأنه يريد أن يحطم الصفة الكيانية الفاسدة للأمة، بتحطيم المفاهيم والمقاييس والقناعات التي يتكون عليها الكيان، لا تحطيم الأمة، ولا أي فرد منها، إذ أنه يسعى لأخذ الأمة، ورفع شأنها، واستبدال كيانها الحالي بإعطائها كياناً أفضل منه، يصبح كيانها المتميز بالرفعة والسمو.

ويريد أن يحطم الصفة الكيانية للدولة بتحطيم المفاهيم والمقاييس والقناعات التي يتكون عليها، لا تحطيم السلطان. إذ أنه يسعى لأخذه واستبدال كيانه الحالي بإعطائه كياناً جديداً على أساس المفاهيم والمقاييس والقناعات الجديدة.

ولهذا فصراع الحزب ككيان فكري يكون للكيانين التنفيذي والمجتمعي. فالعمل مسلط على الكيانين لا على غيرهما، وتسليطه إنما يكون بتسليط كيان على كيان.

وبما أن كيان الدولة هو الذي يملك السلطان، وهو الذي يتولى إدارة كيان الأمة، فإن مظهر الصراع يكون واضحاً أنه لكيان الدولة فحسب، وإن كان هو في حقيقته مسلطاً على الكيانين.

وعلى ذلك فلا بد أن يدخل الحزب المجتمع بوصفه كياناً فكرياً، تبرز فيه الصفة الكيانية وحدها بشكل واضح، لأن الصفة الكيانية هي التي يجب أن تعمل وحدها، ولا يجوز فيها أي إشراك بأية صفة أخرى. إذ هو كيان يصارع كيانين، وأي حالة يحصل فيها أي عمل حزبي على غير الصفة الكيانية، أو بإشراك صفة أخرى معها، فإن هذا العمل لا يقتصر على الإخفاق، بل يضعف الحزب في الصراع، ويضعف الصفة الكيانية.

وكيان الحزب لا يعني جهازه، بل هو أشمل من ذلك. نعم إن الأعمال الحزبية تصدر عن أجهزة الحزب، وإن المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقوم عليها هذه الأجهزة جزء من كيان الحزب، ولكنها ليست كيانه. **بل كيانه هو هذه المجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات المتجسدة في مجموعة من الناس** بوصفهم ناساً لا بصفتهم الفردية.

فإذا صدرت الأعمال عن مجموعة هؤلاء الناس، أو عن أي جهاز من الأجهزة، أو عن أي فرد من أفراد هذه المجموعة، وكانت هذه الأعمال صادرة بحسب مجموعة المقاييس والمفاهيم والقناعات، فإنها تكون حينئذ صادرة عن الحزب ككيان، لا عن الفرد ولا عن الجهاز الذي صدرت عنه.

فالصفة الكيانية مركبة من عوامل يربط بينها رابط يجعلها تشكل كياناً. والعوامل التي تتركب منها الصفة الكيانية للحزب هي مجموعة المقاييس والمفاهيم والقناعات، وجماعة الناس، والرابط الذي يربط هذه العوامل هو العقيدة التي يقوم عليها الحزب، والثقافة التي يتسم بمفاهيمها الحزب، فيتركب من هذه العوامل والرابط الكيان الفكري، أي كيان الحزب. وهذا الكيان هو الذي يجب أن يعمل وحده، وهو شخصية يحس بها، وبقوتها، وهيبتها، كما يحس تماماً بشخصية الدولة، وشخصية الأمة. وهذه الشخصية أو هذا الكيان هو الذي يدخل في حلبة الصراع في المجتمع، وهو الذي يجب أن يسعى لأن يتولى قيادة الأمة، ثم زمام السلطان. وهو الذي يجب أن يسعى لأن تتخذ الأمة شخصيته شخصية لها، وأن يتخذ هو شخصية الأمة شخصية له. [١٤]

١٤- دخول المجتمع لحزب التحرير

الإسلام طريقة معينة في العيش[١٥]

الإسلام طراز خاص في الحياة متميز عن غيره كل التميز، وهو يفرض على المسلمين عيشاً ملوناً بلون ثابت معين لا يتحول ولا يتغير، ويحتم عليهم التقيد بهذا الطراز الخاص تقيداً يجعلهم لا يطمئنون فكرياً ونفسياً إلا في هذا النوع المعين من العيش، ولا يشعرون بالسعادة إلا فيه.

جاء الإسلام مجموعة مفاهيم عن الحياة، تشكل وجهة نظر معينة. وجاء في خطوط عريضة، أي معاني عامة تعالج جميع مشاكل الإنسان عن الحياة، يستنبط منها بالفعل علاج كل مشكلة تحدث للإنسان. وجعل كل ذلك مستنداً إلى قاعدة فكرية تندرج تحتها كل الأفكار عن الحياة، وتتخذ مقياساً يبنى عليها كل فكر فرعي. كما جعل الأحكام من معالجات وأفكار وآراء منبثقة عن العقيدة، مستنبطة من الخطوط العريضة.

فهو قد حدد للإنسان الأفكار ولم يحد عقله بل أطلقه .

وقيد سلوكه في الحياة بأفكار معينة ولم يقيد الإنسان بل أطلقه.

فجاءت نظرة المسلم للحياة الدنيا نظرة أمل باسم، وجدية واقعية، ونظرة تقدير لها بقدرها، من حيث أنها يجب أن تنال، ومن حيث أنها ليست غاية، ولا يصح أن تكون غاية. فيسعى المسلم في مناكبها ويأكل من رزق الله، ويتمتع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ولكنه يدرك أن الدنيا دار ممر، وأن الآخرة هي دار البقاء والخلود .

وجاءت أحكام الإسلام تعالج للإنسان أمور البيع بطريقة خاصة كما تعالج أمور الصلاة. وتعالج مشاكل الزواج بطريقة خاصة كما تعالج أمور الزكاة، وتبين كيفية تملك المال وكيفية إنفاقه بطريقة خاصة، كما تبين مسائل الحج، وتفصل العقود والمعاملات بطريقة خاصة، كما

١٥- الفكر الاسلامي: محمد محمد إسماعيل

تفصل الأدعية والعبادات. وتشرح الحدود والجنايات وسائر العقوبات، كما تشرح عذاب جهنم ونعيم الجنة، وتدله على شكل الحكم وطريقته بطراز خاص كما تدله على الاندفاع الذاتي لتطبيق الأحكام طلباً لرضوان الله، وترشده إلى علاقة الدولة مع سائر الدول والشعوب والأمم، كما ترشده لحمل الدعوة للعالمين، وتلزمه الاتصاف بعليا الصفات، باعتبارها أحكاماً من عند الله، لا لأنها صفات جميلة عند الناس .

وهكذا جاء الإسلام فنظم علاقات الإنسان كلها مع نفسه ومع الناس، كتنظيمه لعلاقته مع الله، في نسق واحد من الفكر، ومن المعالجة. فصار الإنسان مكلفاً لأن يسير في هذه الحياة الدنيا بدافع معين، وفي طريق معين محدد، ونحو غاية معينة محددة .

وقد ألزم الإسلام الناس بالتقيد في هذه الطريق وحدها دون غيرها، وحذرهم عذاباً أليماً في الآخرة، كما حذرهم عقوبةً صارمةً في الدنيا ستقع إحداهما عليهم حتما إذا حادوا عن هذه الطريق قيد شعرة .

ولهذا يصبح المسلم سائراً في هذه الحياة سيراً معيناً، يعيش عيشة معينة، في طراز خاص بحكم اعتناقه عقيدة الإسلام، ووجوب طاعته لأوامر الله ونواهيه بالتقيد بأحكام الإسلام.

فهذا النوع المعين من العيش في فهم معين للحياة، وسير معين في طريق معين، أمر مفروض حتماً على كل مسلم وعلى المسلمين جميعاً .

وقد جاء به الإسلام صريحاً واضحاً في الكتاب والسنة، في العقيدة الإسلامية والأحكام الشرعية .

ومن هنا لم يكن الإسلام ديناً روحياً فحسب، ولا مفاهيم لاهوتية أو كهنوتية، وإنما هو طريقة معينة في العيش يجب على كل مسلم وعلى المسلمين جميعاً أن تكون حياتهم حسب هذه الطريقة وحدها.

رقي المسلم ونهضته

النهضةُ بحثٌ استجدَّ في الفكر السياسيِّ وهو يبحثُ في المقوماتِ التي يرتفعُ بها الإنسانُ ويَرقَى، وترتفعُ بها المجتمعاتُ وتَرقَى.

يقولُ الحقُّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠] .

ولا شكَّ أنّ تفضيلَ الإنسانِ على سائر المخلوقاتِ إنما هو لعقلِهِ، وأن التفاضلَ بين الناسِ إنما هو بتفاضلِهم باستعمالِ هذا العقلِ بما يرقى بسلوكِهم ويقيمُ علاقاتِهم بغيرهم، وقديماً قالُ العربُ وهو قولُ حقٍّ: «دخلَ علينا بثيابه وخرجَ بعقلِه» .

يقولُ الإمامُ القرطبيُّ في تفسير هذه الآيةِ: «والصّحيحُ الذي يُعَوّلُ عليه أنّ التفضيلَ إنّما كانَ بالعقلِ الذي هو عمدةُ التّكليفِ ، و به ُعرفَ اللّهُ ويُفهَمُ كلامُهُ ، ويُوصَلُ إلى نعيمِهِ وتصديقِ رسلِه ، إلاّ أنّه لمّا لم ينهضْ بكلِّ المرادِ من العبدِ ، بُعِثَتِ الرّسلُ وأنزلَتِ الكتبُ ، فمثالُ الشّرعِ الشّمسُ ومثالُ العقلِ العينُ ، فإذا فُتِحَتْ وكانتْ سليمةً رأتِ الشّمسَ وأدركَتْ تفاصيلَ الأشياءِ» انتهى.

والإنسانُ الناهضُ الراقيْ كما الأمةِ الناهضةِ، الإنسانُ المفكرُ والأمةُ المفكرةُ، وعكسُهُ هو الإنسانُ المنحطُّ والأمةُ المنحطةُ.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤-٦] .

فالإنسانُ المسلمُ يرتفعُ بالإيمانِ وعملِ الصالحاتِ من الانحطاطِ، من مكانةِ أسفلِ سافلينَ. وقدْ قيلَ - ولعلّهُ قولُ حقٍّ- إنّ الحقَّ سبحانَهُ قدْ أودعَ في الإنسانِ العقلَ دونَ سائرِ المخلوقاتِ، وأودعَ الغرائزَ والحاجاتِ العضويةَ في الإنسانِ والحيوانِ، فإن غلّبَ الإنسانُ عقلَهُ على

غرائزهِ ارتقى لأرقى من درجةِ الملائكةِ، وإن غلّبَ غرائزَهُ على عقلِهِ انحَ لأسفلَ منَ البهائمِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤] .

وهذه حقيقةٌ، إذْ إننا نعلمُ أن النهضةَ هي الارتفاعُ الفكريُّ فحسْبُ، أيْ أنّ الإنسانَ يرقى حسْبَ الآياتِ باستعمالِهِ العقلَ للتفكر.

وبالمثلِ فإنّ الأمةَ الناهضةَ هي التي تفكرُ وتَعِي، وهي التي تتخذُ مبدأً يتمثلُ في عقيدةٍ عقليةٍ ينبثقُ عنها نظامٌ يصوغُ حياتَها.

وبالرجوعِ إلى كتابِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى نجدُ دوماً في خطابِ العقيدةِ التركيزَ الشديدَ على التفكرِ والتدبرِ والتعقلِ ليصلَ الإنسانُ إلى صدقِ العقيدةِ الإسلاميةِ، بلْ إنّ الحقَّ سبحانَهُ جعلَ استعمالَ العقلِ هو الفاصلَ بينَ الناجي من النارِ والفائزِ بالجنةِ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] ولو عقَلوا لاهتدَوْا، ولو استَعمَلوا السمْعَ والأبصارَ والألسنةَ لَفَقِهوا وفهمُوا إذْ هي وسائلُ نقلِ الحسِّ بالواقعِ إلى الدماغِ ليحكمَ من خلالِها على الواقعِ، قالَ تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢] وقالَ عزَّ منْ قائلٍ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] وقالَ جلَّ وعلا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢] . فمَنْ لا يعقلُ فلنْ يتوصلَ إلى الحقِّ، فجعلَ الحقُّ –سبحانَهُ- العقلَ وسيلةَ الوصولِ إلى الهدايةِ أيْ إلى النجاةِ.

وسأكتفيْ بهذه الآيةِ الكريمةِ التي تُغْنِي في البحثِ: قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٩ - ١٠١] .

فالأساسُ الذي تقومُ به العقيدةُ هو العقلُ بمعنى التفكر والتدبر ليصلَ إلى أن العقيدةَ الإسلاميةَ هي الحقُّ، أيْ استعمالُ العقلِ للوصولِ لحقائقِ الإيمانِ، ولذلكَ نقولُ إن العقيدةَ الإسلاميةَ عقيدةٌ عقليةٌ، أيْ أن العقلَ هو طريقُ الإيمانِ حتى يتوصلَ المرءُ إلى صدقِ الإسلامِ ومِنْ ثَمَّ يجعلَ العقلَ وسيلةً لفهمِ ما أمرَ به الشرعُ، فالعقلُ يؤمنُ ثُمَّ يفهمُ ولا حكمَ له على الشرعِ.

وعن أبي الضحى قولُه في آيةِ ﴿وإلـهُكُمْ إلـهٌ واحدٌ﴾ الآيةَ: «لما نزلتْ هذه الآيةُ عَجِبَ المشركونَ وقالوا: إن محمداً يقولُ: وإلـهُكم إلـهٌ واحدٌ. فليأتِنا بآيةٍ إنْ كانَ من الصادقينَ . فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] » .

فالعقلُ إذنْ يوصِلُ الإنسانَ إلى حَلِّ العقدةِ الكبرى وإيجادِ القاعدةِ الفكريةِ التي يَبنيْ عليها تنظيمَ حياتِه ألا وهي العقيدةُ، ومِنْ ثَمَّ تتميزُ العقائدُ إلى عقليةٍ وغيرِ عقليةٍ.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٨-٦٩] .

وقال عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢] .

فهنا عقائدُ تقومُ على الظنِّ والتخرُّصِ ولا تستندُ إلى أدلةٍ تثبتُ صحتَها، وهي عقائدُ مدحوضةٌ، دَحَضَها ربُّ العالمينَ بأدلةٍ تخاطبُ العقولَ، فمنْ لم يكنْ لديه على اعتقادِهِ ما يثبتُه ويبرهنُهُ فهو المنحطُّ الذي يَسْفُلُ لأدنى من درجةِ البهائم، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال عز من قائل: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّه إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللّه وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّه مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨] .

ثم بعدَ وجودِ العقيدةِ تصبحُ هي القاعدةَ الفكريةَ التي يبني عليها المسلمُ أفكارَهُ، ويُكَوِّنُ على أساسِها مفاهيمَهُ، فيُميّزُ الأفكارَ الصحيحةَ من الأفكارِ الخاطئةِ عندما يقيسُها بالعقيدةِ الإسلاميةِ، فتتكوَّنُ عنده العقليةُ المتميزةُ بهذه العقيدةِ، ويوجَدُ لديه المقياسُ الصحيحُ للأفكار، فيأمنُ زَلَلَ الفكر.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للّه وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥] وقال عز وجل ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦] .

وقال تعالى: ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يُعجبُكَ قولُهُ في الحياةِ الدنيا ويُشْهِدُ اللّهَ على ما في قلبِهِ وهُوَ أَلَدُّ الخِصام. وإذا تَوَلَّى سعى في الأرضِ ليفسدَ فيها ويُهلِكَ الحَرْثَ والنسلَ واللّهُ لا يحبُّ

الفسادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقال جل وعلا :[يقولونَ بألسنتِهم ما ليسَ في قلوبِهم]الفتح (١١)
وقال تعالى :[يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولونَ ما لا تفعلونَ كَبُرَ مَقتاً عندَ اللهِ أنْ تقولوا ما لا تفعلونَ]الصف (٢)

وكانتْ بذلكَ العقيدةُ أيضاً مقياساً لميولِهِ، فتوجدُ عندَه العقليةُ والنفسيةُ الإسلاميةُ.

قال تعالى: [فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً (٥٦)] النساء

وقال تعالى [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ](7) الحشر

وقال تعالى [قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩)] يونس

فقَرَنَتِ الآياتُ بين الإيمانِ وتَحَقُّقِ صدقِهِ وبينَ اتخاذِ ما جاء به الوحيُ مقياساً وحكَماً على كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في الحياةِ

بهذا يرقى المسلمُ وينهضُ ويَصْدُقُ فيه قولُ الربِّ سبحانَهُ:

[لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)] التين

نهضة المسلمين على أساس مبدئهم:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد الهادي الأمين

لا شك أن الاسلام عقيدة ونظام حياة، لم يكن في يوم من الأيام فلسفة يبحث عنها في بطون الكتب، ولا كان أفكارا خيالية عن جمهوريات فاضلة لا تحيا في أرض الواقع، وإنما هو معالجات لواقع البشر، لقد جاء الإسلام مجموعة مفاهيم عن الحياة، تشكل وجهة نظر معينة، جاء ليرسم للناس طريقة معينة في العيش، فهذه الأفكار والتي يرافقها طريقة تطبيقها، تشكل في مجموعها المبدأ الاسلامي.

هدم الكافر المستعمر دولة الخلافة الاسلامية في اسطنبول في العام ١٩٢٤، وكان قد سبق هذا الهدم وتبعه محاولات حثيثة لقتل الفكرة الاسلامية، من خلال إبعادها عن واقع المسلمين، بحيث لا ينزل المسلمون الأحكام الشرعية العملية على الوقائع المستجدة، بل ينزلوا أحكاما مستنبطة من الدساتير الغربية، وبذا لا يعود الاسلام هو ما يتحاكم إليه المسلمون، وإنما يكون بذا التحاكم إلى الطاغوت.

وأخذت يد الكافر المستعمر تعمل بمكر ودهاء على توجيه المسلمين إلى أية فكرة إلا إلى الفكرة الاسلامية، فأخذت ثلة من المثقفين إلى نوادي باريس تلوث أفكارهم بطريقتها في العيش، حتى يتحولوا إلى أبواق لأفكاره، وهو – أي الكافر المستعمر – يدرك أن المعركة الحقيقية إنما هي معركة العقيدة الاسلامية مقابل العلمانية وجودا وعدما، وأن أيا من هاتين الفكرتين إنما تنتصر بأن تكون هي نمط العيش الذي يحياه الناس، فالفكرة إن تحولت إلى مادة تتخم بطون الكتب ولا واقع لها في الحياة تغيض، ومهما سمت وارتقت فإنها لن تستطيع أن تتغلب على خصمها إلا أن تعود قيادة فكرية تستنبط الأفكار كلها منها، ومقياسا للأعمال لا يسلك المسلم سلوكا إلا بالرجوع إليها ليتصرف بناء على ما يقضي به الحكم الشرعي، أي أنها

تتغلب عندما تعود نمطا في الحياة، من هنا فالمسألة انتصار الغرب عن طريق إبعاد الاسلام عن أن يكون هو طريقة العيش أو انتصار الاسلام عبر استئناف الحياة الاسلامية .

ولا يخفى على مدقق ما قام به الغرب الكافر وأذياله من تحوير لمفاهيم الاسلام الأساسية عن الحكم والسلطان، فشوه مفهوم السياسة، فربطها بالحيل والأكاذيب، وبقمع من يعمل ويشتغل بها حتى نفرت منها جموع المسلمين، كالحمر المستنفرة، فرت من قسورة، فضرب بذا الكافر المستعمر عصفورين بحجر، عندما أبعد الاسلام عن أن يكون سياسيا في فهم المسلمين، وأبعد المسلمين عن أن يشتغلوا بالسياسة مما مكنه أن يمكن لدُماه التي نصبها على رقابهم، من غير محاسب ولا منكر عليها ما تقوم به من منكرات.

من هنا كان صعبا على المسلمين تخيل شكل الدولة الاسلامية، وكانت محاكمتهم لأية فكرة لا بد أن تمر من قناة الواقع الذي يحيونه، والذي هو عبارة عن مزيج من الاسلام والعلمانية والاشتراكية، تسيطر الفكرة الرأسمالية على قوامه، وبذا لم يدرك المسلمون كيف تكون الدولة كيانا تنفيذيا لما حملوه من مفاهيم ومقاييس وقناعات انبثقت وبنيت على عقيدتهم الاسلامية.

ومنذ هدم الخلافة، والمسلمون في دوامة فكرية حول فكرة النهضة، فمن قائل أن لا سبيل لعودة المسلمين لاقتعاد القمة إلا من خلال التربية والتعليم، بحض جموعهم على ارتياد المساجد، وحلق الذكر، يتلون كتاب الله ويقومون الليل ويصومون النهار، حتى إذا كانوا كجيل الصحابة تقوى قامت دولة الاسلام.

ومن منتهج لسياسة الانقلابات العسكرية ظانا أن معنى أن السلطان يزع ما لا يزع القرآن: أن المسألة ما هي إلا فرض قوانين على الدولة.

ومنهم من رفع مسألة الأخلاق ليجعلها الأساس الذي تقوم النهضة على أساسه، والواقع أنها أفكار فرعية، فإقامة النهضة على أساسها وحدها لا تتحقق، إلا بضم مجموعة الأفكار

الاسلامية كلها لها من عقيدة وعبادات ومعاملات وعقوبات، أما اجتزاؤها وحدها فلا يصلح أساسا للنهضة.

ومن ظان أن العلوم والقوة العسكرية والعمران هما أساس النهضة، والحقيقة أنها كلها تابعة تأتي بعد تحقق النهضة لا تسبقها، وإن كان لها من الأهمية ما لها، إلا أن الأمة إن أقامت دولتها بقوتها كأمة، فإن قوة الغرب العسكرية لن تستطيع أن توقف المد الاسلامي الجارف،

تأمل في هذه المقالة العميقة لمفكر أمريكي هو باتريك بوكنان الذي كان مرشحا للانتخابات الرئاسية الأمريكية في مقال له نشر في ٢٠٠٦/٦/٢٣ في "مؤسسة مناهضة الحرب" بعنوان "فكرة آن أوانها" تحدث فيها بأن فكرة الحكم بالاسلام تتوطد عراها بين المسلمين، وذكر أنه عندما شاهد القوات المسلحة الأمريكية وهي تحارب السنة الثائرة على السلطة والمجاهدين الشيعة والجهاديين في العراق وطالبان الخارجة على القانون وهم يبتهلون إلى الله يتبادر إلى ذهننا كلمات فيكتور هيجو

"إن قوة أي جيش لا تضاهي انبعاث فكرة آن أوانها"

ويضيف" إن الفكرة التي يعاديها كثير من المناوئين هي فكرة تفرض نفسها فهم يعتقدون أن هناك إلها واحدا هو الله، وأن محمدا رسول الله، وأن الاسلام أو الخضوع للقرآن هو الطريق الوحيد إلى الجنة، وأن المجتمع الرباني يجب أن يحكم بواسطة الشريعة أي قانون الاسلام، وبعد اختبار طرق أدت إلى الفشل فقد عادوا مجددا إلى موطن الاسلام، ... إن عشرات الملايين من المسلمين بدؤوا يعودون إلى جذورهم بإسلام أكثر نقاء

وإن جَلَدَ الايمان الاسلامي مدهش حقا، لقد بقي الاسلام على قيد الحياة رغم مضي قرنين على الهزيمة والذل الذي أصاب الامبراطورية العثمانية والقضاء على الخلافة في عهد أتاتورك، كما تحمل الاسلام حكم الغرب لعدة أجيال، لقد أثبت الاسلام على أنه أكثر تحملا من قومية عرفات أو صدام، ما يتوجب على أمريكا أن تدركه هو شيء غير اعتيادي بالنسبة لنا، من المغرب إلى باكستان: لن تنظر الأغلبية بعد الآن على أننا أناس طيبون، إذا كان الحكم

الاسلامي فكرة تتوطد عراها بين الجماهير المسلمة، فكيف باستطاعة أقوى الجيوش على الأرض أن توقفها؟ أولسنا بحاجة إلى سياسة جديدة؟ انتهى.

إذن فنهضة المسلمين لا بد أن تقوم على الفكر الاسلامي، على المبدأ الاسلامي كما وصفناه.

" فكان لا بد من تغيير فكر الإنسان تغييرا أساسيا شاملا و إيجاد فكر آخر له حتى ينهض" فالنهضة[١٦] تكون بفكر راق ، و الفكر حتى يكون راقيا يجب أن تتوفر فيه خاصيتين أن يكون أساسيا و شاملا.

والفكر المنحط هو ما دون الفكر الراقي أي الذي لا تتوفر فيه إحدى هاتين الخاصيتين أو هما معا.

فما هو الفكر الأساسي الشامل؟ و لماذا يحتاج له الإنسان لكي ينهض؟

إن الواقع المحسوس الذي يجعلنا نحكم على شخص أنه منحط أو راق هو سلوكه.

فهل السلوك هو أصل أم فرع لشيء ما؟

الإنسان يحمل أفكارا، و هناك أفكار هي مجرد معلومات عنده بينما هناك أفكار يصدق بصحتها. و هو يتصرف بحسب الأفكار التي يصدق بها أي مفاهيمه. و عليه فالسلوك ليس أصلا وإنما هو نتيجة لمفاهيم الإنسان أي الأفكار التي صدق بصحتها.

فكر + تصديق = مفهوم

المفهوم ..... يكيف ..... السلوك

١٦- أبو علي.

فإذا أردنا أن نغير سلوك الإنسان وجب أن نغير مفاهيمه أي أن نغير فكره بفكر آخر ونجعله يصدق به.

و من هنا كانت النهضة بالفكر.

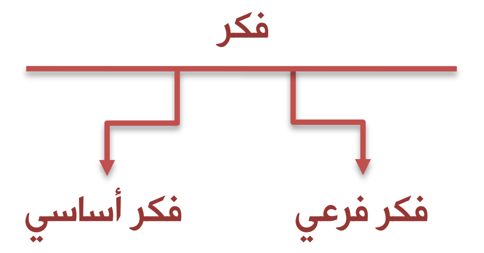
و لكن أي فكر؟

الفكر فكران فكر فرعي وفكر أساسي، فالفكر الفرعي يؤثر في سلوك معين من سلوكات الإنسان، أما الفكر الأساسي فإنه يؤثر في مجموعة من السلوكات عند الإنسان وقد يؤثر في كل سلوكاته.

و للبيان أضرب المثال التالي: فكرة الغش حرام إن تحولت إلى مفهوم عند الإنسان فإنه لا يغش.

بينما مقياس الأفعال هو الحلال و الحرام إن تحول إلى مفهوم عنده فإنه يؤثر في كل سلوكاته.

و لهذا فكرة الغش حرام فكرة فرعية بينما مقياس الأفعال فكرة أساسية.



و بما أننا نريد أن نغير كل سلوكات الإنسان و جعلها راقية وجب أن نغير فكره بفكر أساسي.

ثم إن الفكر الأساسي أصل والفكر الفرعي فرع، والفرع يبنى على الأصل بينما الأصل يبنى عليه، ولهذا إذا أردنا أن ننهض بالإنسان علينا أن نعطيه فكرا أساسيا وليس فرعيا.

لدينا إذن: فكر أساسي، مثلا وجوب التزام الأحكام الشرعية في الحياة، ولدينا أفكار فرعية: مثل فكرة وجوب إقامة الصلاة، ووجوب إيتاء الزكاة، والصدق والأمانة، إلخ

فالتغيير على أساس فكرة إقامة الصلاة سيفضي فقط إلى إقامة الصلاة ولن يأثر في الأفكار الأخرى التي هي بحاجة لتغيير، لكن التغيير على أساس التزام الأحكام الشرعية وجعلها مقياسا لافعال الانسان وسلوكه في الدنيا سيفضي إلى التغيير على أساس الصلاة والزكاة والصدق والأمانة وباقي الأفكار الفرعية.

و لهذا كانت أول خاصية في الفكر الراقي أنه فكر أساسي أي الفكر الذي ليس قبله فكر فهو يبنى عليه كل فكر.

هذا من جهة و من جهة ثانية ، هذا الفكر نريد أن نحقق به النهضة.

فهل نريد نهضة خاصة بك، و نهضة خاصة بي، ونهضة خاصة بالإنسان الأسود وأخرى بالإنسان الأحمر، وأخرى خاصة بالعرق الفلاني أو المنطقة الفلانية...؟ كلا، بل نريد نهضة الإنسان كإنسان.

و ذلك لأن السلوك المنحط هو سلوك منحط فعله من فعله.

و السلوك الراقي هو سلوك راقي فعله من فعله.

و الفكر المنحط سيبقى منحطا حمله من حمله.

و الفكر الراقي سيبقى راقيا حمله من حمله.

و عليه حتى يكون الفكر راقيا وجب أن يبحث الإنسان كإنسان فالبحث يجب أن يشمل كل أفراد الإنسان و لا يقتصر على بحث فرد من أفراده.

فالفكر الراقي هو فكر:

- أساسي: الفكر الذي ليس قبله فكر.
- و هو فكر شمولي: يبحث الإنسان كإنسان فيشمل كل أفراده ولا يبحث فردا من أفراده

أما الفكر المنحط فهوما دون الفكر الراقي وهو الذي لا تتوفر فيه إحدى الخاصيتين السابقتين أو كلتاهما معا.

فبداية الرقي النظرة للإنسان كإنسان فإن أدرك أنه عبد للّه كان أرقى.

قمة الرقي

النظرة للإنسان أنه عبد للّه

بداية الرقي

النظرة للإنسان كإنسان

فإذا التفت الإنسان عن النظر لإنسانيته فقد انحط.

فقد ينظر لنفسه أن انتمائه لقومه، وقد تضيق نظرته فيرى انتمائه لعائلته ، وقد تضيق نظرته فلا يرى إلا ذاته، فكلما ضاقت نظرته انخفض فكره.

وأحط الناس هو الذي لا يختلف سلوكه عن سلوك الحيوان بل الحيوان أحسن منه، وهذا الصنف من الناس لا يفكر بل سلوكاته رجع غريزي كالحيوان.

فالفكر المنحط دركات و شكله كالهرم المعكوس، قاعدته أن ينظر الإنسان إلى أنه من قوم معين، فإذا ضاقت نظرته و نظر إلى أنه فرد من عائلة معينة هوى في الهرم، فإذا ضاقت نظرته ونظر إلى ذاتيته هوى في الهرم، فإذا أصبح لا يرقى بنفسه عن الحيوان وصل إلى رأس الهرم المعكوس. التصوير التالي يجسد الهرم المعكوس:

فكر راق .... النظرة للإنسان كإنسان ....

إ: فكر منحط متسع النظرة للإنسان أنه من قوم معين

ن:

خ: فكر منحط أقل اتساعا النظرة العائلية للإنسان

ف:

ا: فكر منحط ضيق نظرة ذاتية

ض:

أحط أنواع التفكير . إنسان لا يرقى بنفسه عن مستوى الحيوان.

إذن: الفكر المنحط هو كل فكر غير راق كأن لا تتوفر فيه خاصية الشمول أو أنه لا ينظر للإنسان وإنما ينظر لزيد وعمرو والعائلة والعشيرة والبلد والقوم.

والمقصود في القيادة الفكرية بالجملة " كلما انحط الفكر" أحط أنواع التفكير، التفكير المنحط الذي لا يرقى بصاحبه عن مستوى الحيوان.

والمقصود في القيادة الفكرية في الفقرة الثانية بالجملة " يكون الفكر ضيقا" أي يكون الفكر منحطا ضيقا ..

فهو منحط لأنه لا ينظر للإنسان كإنسان حين يفكر بالسيادة، وضيق لأن نظرته تتسع وتضيق فهو يرى سيادة قومه وهذه نظرة متسعة أو عائلته وهذه نظرة أقل اتساعا أو لا ينظر إلا لذاته وهذه نظرة جد ضيقة و منخفضة (انظر الهرم المعكوس).

فالضيق آت من زاوية النظر.

و لزيادة تركيز الفهم أضرب المثال التالي: تصور أنك على رأس جبل و أسفل منك بني الإنسان. فأنت إن قلت أريد أن أنظر للإنسان فنظرتك ستكون شمولية. لكن إن حصرت نظرتك بقوم معين فإنها ستفقد شموليتها و ستكون ضيقة. تصور الآن أنك حصرت نظرتك بعائلة معينة فإنها ستكون نظرة ضيقة و النظرة للقوم أوسع منها. فإن نظرت لزيد أو عمرو فقد حصرت نظرتك حتى أصبحت ضيقة جدا.

فالضيق آت من زاوية النظر هل هي القوم أو العائلة أو الذات.

وهذا بعض ما قاله الشرع في مثل هذه الروابط المنتنة:

يقول الحق تبارك وتعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)٢٣(قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] التوبة ٢٤

[لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] المجادلة ٢٢

[قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ] الممتحنة : ٤

"لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أوليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من التراب" حسن صحيح الألباني. صحيح الترغيب:٢٩٢٢

"لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي أوفاجر شقي الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب حسن" .. الألباني ، صحيح الترمذي: ٣١٠٠

"من قتل تحت راية عمية، يدعو عصبية، أو ينصر عصبية، فقتلة جاهلية". مسلم: ١٨٥٠

"من قاتل تحت راية عمية يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتلته جاهلية" صحيح ابن ماجه : ٣١٩٠

"من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكنوه" صحيح الألباني. صحيح الأدب : ٧٤١

"كنا في غزاة -قال سفيان مرة : في جيش - فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري : يا للأنصار، وقال المهاجري : يا للمهاجرين، فسمع ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما بال دعوى جاهلية). قالوا : يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال : دعوها فإنها منتنة " الجامع الصحيح للبخاري : ٤٩٠٥

كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة. فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال الأنصاري : يا للأنصار! وقال المهاجري : يا للمهاجرين! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم" .ما بال دعوى الجاهلية؟" قالوا: يا رسول الله! كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال "دعوها. فإنها منتنة " صحيح مسلم المسند الصحيح ٢٥٨٤

"كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله القود. فقال النبي صلى الله عليه وسلم "دعوها .فإنها منتنة". صحيح مسلم المسند الصحيح ٢٥٨٤

ينهض الانسان: لماذا بحث النهضة؟

البحث يتركز على تقدم وانتقال وارتقاء الانسان والمجتمع والدولة من حال إلى أفضل، لتحقيق معايير معينة تسمو بها لتبلغ ما يليق بالانسان الفرد وبالمجتمع وبالدولة، من دونها لم يكن الانسان ليحقق إنسانيته، ولا ليرتفع عن البهيمية القائمة على تصرفات ما هي إلا رجع للإدراك الغريزي، وليتعامل مع ما في الكون وفق منظومة مفاهيم تحدد له طريقة معينة في العيش أرقى وأفضل.

ويتركز البحث على استكشاف حقائق الكون التي تفسر للانسان أسرار وجوده في الحياة الدنيا، كوجود خالقه وعلاقاته بهذا الخالق من ناحيتي الإيجاد والتنظيم، ومن ناحية المحاسبة، ليحل للانسان العقدة الكبرى التي تضمن له تكوين قاعدة فكرية يبني عليها كل فكر فرعي عن السلوك في الحياة الدنيا وعن أنظمة الحياة.

سئل أحد الشباب الأفاضل عن حاجة وضرورة دراسة النهضة، فتفكر أياما ثم أجاب سائليه:

هب أنك كنت نائما في سريرك في غرفة نومك، ثم استفقت فإذا بك في سريرك تنام على جانب الشارع، فما هو البحث الذي ستبحثه؟ وما هي الأسئلة التي ستسأل نفسك إياها وتعتبر الإجابة عليها : الأكثر إلحاحا؟

لا شك أنها أن تدرك كيف جيء بك إلى هنا، ومن جاء بك إلى هنا، ولماذا جاءوا بك إلى هنا، وكذلك الانسان في تفسيره لوجوده في الكون.

لم يعد الانحطاط الذي وصل إليه المسلمون مجرد نتيجة مقارنة بين واقع سيء يعيشونه وواقع حسن كانوا يعيشونه، بل أصبحوا الآن في درك الهاوية وشارفوا على الفناء،

تتربص بهم الدول وتتداعى عليهم الأمم، لذا كانت دراسة مسألة النهضة -دراسة منتجة - بغية البحث في كيفية عودة المسلمين لمركز القيادة، قضية مصيرية للأمة الاسلامية.

ولقد قامت دراسات ودراسات حول مسألة النهضة روج لها الغرب الكافر لينهض المسلمون على أساس الحضارة الغربية، بغية صرف المسلمين عن سبيل نهضتهم، وذلك ليزداد المسلمون شقاء وليتمكن الكافر المستعمر من خيراتهم ومن رقابهم، لذا أصبحت الحاجة ملحة لدراسة النهضة الصحيحة.

لقد كثرت الدراسات عن النهضة تدعو إلى الأخذ بأطروحات الغرب في الثقافة والسياسة والاعلام والاقتصاد، وفي طريقة العيش ككل، على أساس أن الحضارة الغربية هي غاية ما وصل إليه الانسان، داعية المسلمين لتكييف طريقة عيشهم وفقا لطريقة عيش الغرب، والأخطر من ذلك تلك الدراسات التي تفهم الاسلام ثم تبرزه على نحو يتوافق مع الحضارة الغربية أو ليتكامل معها، أو على أنه لا يتعارض معها، وذلك ليتحول الاسلام إلى مجرد تراث حضاري تاريخي عابر ومن ثم ليتحول الاسلام إلى دين كهنوتي روحي – كالنصرانية تماما – قابل للتعايش مع أية حضارة أخرى ، تفرض هيبتها وسلطانها على الساحة الدولية، لا سيما حضارة فصل الدين عن الحياة، خادما لها، تابعا لها، من هنا تبرز أهمية دراسة مسألة النهضة، لوضع اليد على معالم الحضارة الاسلامية وكيفية تلقيها، وكيفية العيش وفقا لها لنحفظ للأمة الاسلامية كيانها ونعيد لها مجدها وعزها.

يقول الأستاذ أحمد القصص في كتابه القيم: أسس النهضة الراشدة:

إن أغلب مفكري الغرب في التاريخ المعاصر - وتُعد أفكارهم استمراراً لبعض أفكار عصر النهضة الأوربية - رأوا أن القضية كامنة في مدى الحرية التي يتمتع بها الإنسان. فرأوا أنه بقدر ما يتمتع الإنسان بالحرية تبرز قدرته على الإبداع والإنجاز والابتكار، فيؤدي به ذلك حتماً إلى التقدم والنهوض. بخلاف ما إذا خضع للعبودية والاستبداد والقيود بشتى أنواعها، فإنه حينئذ يعجز عن الحركة والإبداع والإنجاز، فيرتكس به ذلك حتماً إلى الانحطاط والتخلف والتقهقر.

وقد رأوا أن أهم عائق يقف بين الإنسان وحريته في الحركة والعمل هو تعلقه بأوهام الغيب والكهنوت وما يسمى بالكائنات الروحانية غير المحسوسة. ويرى هؤلاء أن الشعوب حين يسيطر التفكير الديني على أذهانها، والنزعة الروحية على حياتها ومجتمعها ودولتها فإنها تبتعد عن التعاطي مع الواقع المحسوس، وتبقى مشدودة للتعلق فيما وراء المادة والحياة والكون، وتبقى أسيرة للمفاهيم الدينية والكهنوتية التي تحول بينها وبين حرية الحركة والإنتاج والإبداع، مما يؤدي بها إلى إهمال الواقع الحياتي وبالتالي إلى انحطاطها. انتهى

لا شك أن الذي نقل أوروبا من ظلامها الدامس إلى ما سمي بعد ذلك بعصر النهضة، هو التفكير في النهضة، ووضع أسس فلسفتها موضع التطبيق، وإقامة الكيانات الحارسة لهذه الفلسفات، ومن ثم نقل طريقة العيش في أوروبا من حالها أيام الأباطرة والبابوات إلى حالها في ظل نظامها العلماني.

ولا شك أن الذي نقل المسلمين من نورهم الساطع الذي بدأ إشراقه في مكة وسطع نجمه في المدينة، نقلهم من حياة الجاهلية بكل ما لهذه الكلمة من معنى وأبعاد، إلى حياة إسلامية هي الأرقى، أقول: نقلهم من ذلك إلى دركات الانحطاط والذل وضنك العيش، والتخبط في أوحال الواقع الفاسد، والوقوع في شرك بغاث الطيور من أمم هندوسية وصربية ويهودية وروسية وأمريكية وبريطانية وفرنسية ...، إنما هو غفلتها عن سر نهضتها، وانفلاتها من عقال التفكير في الطريقة المنتجة للنهضة، وأنها لن تعود لتحقيق المكانة التي بوأها إياها دينها وأوصلتها إليها حضارتها، أو لنقل المكانة التي تليق بهذه الحضارة وهذا الدين، إلا بدراسة طريقة صحيحة يقوم التغيير على أساسها.

إذن فمسألة النهضة وبحثها إنما يبحث في تغيير الواقع من واقع فاسد منحط إلى واقع راق يليق بالأمة الاسلامية.

بين يدي بحث النهضة:

مع كل الضعف الذي أصاب المسلمين، إبان الحملات الصليبية والمغولية والتتارية، رأينا أنه ما من أمة ممن تغلب عليهم عسكريا، دانتهم حضارة، ولا رقيا، وأننا إذ نحكم عليهم بالانحطاط، فذلك لا لأننا نقارنهم بمن تغلب عليهم عسكريا، بل بمقارنتهم بما كانوا عليه وما آلو إليه، وبما كانوا عليه وما كان عليهم أن يكونوه.

إذن فلم يتغلب عليهم أعداؤهم نتيجة نهضة أعدائهم، بل إننا نحكم على أعدائهم من مغول وصليبيين وغيرهم بأنهم همج رعاع، عاشوا في ظلام دامس، رغم تفوقهم عسكريا.

ثم لاحظ أن المسلمين أنفسهم، عادوا وتسلموا زمام الأمور، واستأنفوا فتوحاتهم، ولم تدانيهم أمة في الأرض في حضارتهم، إلا أننا ما زلنا نحكم عليهم بأنهم لم يكونوا بالمستوى اللائق بهم.

إذن فنحن نتحدث عن أمرين هنا: المستوى أو المكانة اللائقة، ونتحدث في الوقت نفسه عن الإرتفاع أو الانحطاط.

ولنلحظ أن الأمة الاسلامية في عصرها الذهبي، أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لما تمتلك بعد مقدرات مادية، من علوم وصناعات، ولا حتى ثروة مادية، فقد عاش أكثرهم فقيرا معدما، ومع ذلك فنظرة مستنيرة على النقلة الهائلة التي نقلهم الاسلام إياها، من دركات الجاهلية إلى نور الاسلام، من الغوغائية والقبلية والصراعات، إلى درجات العلى حضارة ورقيا تمثل في نمط عيش أذهل كل من وقف بباب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى دفعه دفعا ليعتنق الاسلام لمجرد مشاهدته طريقة العيش التي يحياها المسلمون، ومن ثم جاءت الصناعات والعلوم والعمران حتى أصبحت بغداد، وقرطبة حاضرة الدنيا، فلا شك أن الأشكال المادية هذه، تبع للأشكال الفكرية التي شكلت منظومة الحضارة والثقافة الاسلامية، التي تحولت إلى طريقة عيش متميزة.

ولنلحظ أيضا أن الصراع الحقيقي بين المسلمين والكفار، سواء ما كان من أجل نشر الاسلام أم ما كان من أجل وأد الاسلام في عقر داره إثر محاولات الصليبيين ومن على شاكلتهم القضاء على الخطر الاسلامي، كان دوما صراع حضارات، استعملت القوة المادية فيه لبلوغ الغاية الفكرية، أو للقضاء على أسباب الفكر نفسه.

قد يتبادر إلى الذهن أن النهضة تحصل بالارتفاع الخلقي، ويجادل أصحاب هذا الرأي بأن أحاسن الناس هم أحاسنهم أخلاقا، ولنا أن نتساءل: ما الذي يدفع فردا إلى القبول بخلق معين والتزامه؟ لا شك أنه ليس الخلق نفسه، بل عوامل خارجية عن الخلق كأن يلمس المنفعة من الصدق أو لأن أباه علمه هذا الخلق.

إن الذي دفع أبا سفيان إلى الصدق أمام قيصر عند سؤاله عن خبر محمد صلى الله عليه وسلم هو مخافة أن يقول الناس عنه أنه كذب ولا يليق هذا بمن هو في مكانته، ومن الناس من يصدق لأن الدين أمره بهذا مع أن الموقف قد ينجيه منه الكذب!

من هنا كان لا بد إن أردنا دفع الناس إلى التخلق بخلق معين أن ندعو إلى المفاهيم التي تنبثق عنها الأخلاق، لنصححها ونضمن أن تنطلق الأخلاق من أساس صحيح، وبالتالي فالأخلاق بحد ذاتها لا تصلح أساسا للنهضة.

علاوة على أن الأخلاق إنما تتناول جانبا صغيرا من علاقات الانسان، فللانسان علاقات بخالقه وبغيره وبنفسه، تحتاج إلى ضبط، فهو إلى جانب أنه مطلوب منه أن يصدق عند إجراء معاملة البيع، إلا أنه مطلوب منه أن يجريها وفق عقد معين بشروط معينة، لا دخل للخلق فيها، كالايجاب والقبول، ومطلوب منه أن يعطي زكاة ماله وأن يعبد الله لا يشرك به شيئا، وهنا لا دخل للقيمة الخلقية في هذا العمل بل كله يحقق قيمة روحية، والقيمة الخلقية تنتج بعد ذلك.

ثم إن المطلوب ليس فقط إنهاض الفرد، بل إنهاض المجتمع والأمة والدولة، ومعيارا حصول هذا التغيير أو هذه النهضة هما: الانتقال من وضع إلى وضع أفضل منه، يضمن الانتقال من الناحية الحيوانية التي تسيطر عليها تسيير عملية إشباع الغرائز والحاجات العضوية وفق

الإدراك الغريزي ووفق المفاهيم عن الأشياء إلى الناحية الانسانية التي تنقل الانسان ليرتفع ليرتقي من أن يسلك سلوكا حيوانيا همه فيه إشباع رغباته وجوعاته إلى إشباعها وفق قواعد فكرية معينة إلى السلوك الراقي الانساني.

والمعيار الثاني هو أن يحقق للانسان وللمجتمع وللدولة المكانة اللائقة بهم، فالانسان كرمه الله على سائر المخلوقات وإنما مكانته لعقله ولاستعماله لعقله، فإن استعمله الاستعمال الصحيح ارتقى ووصل للمكانة اللائقة به، وإلا انحط وانحدر إلى البهيمية، كذلك المجتمع والدولة إن بلغا المكانة اللائقة بالمجتمع الانساني المتميز عن الغابة، والدولة التي ترتقي لتضمن لنفسها مكانة بين الأمم قلنا أنها مجتمعات راقية ودولة ناهضة وإلا حكمنا بالانحطاط.

وهذا كله لا يمكن للأخلاق وحدها أن توصل إليه ولا أن تكون أساسا له، فهي علاوة على كل ما سبق لا تشكل قاعدة أساسية تصلح لأن تنبثق عنها الأفكار الفرعية التي تسير السلوك في شتى مناحي الحياة بل هي أفكار فرعية منبثقة عن غيرها تحتاج لأن يصلح الأساس الذي انبثقت عنه أولا قبل أن تشكل هي أساسا لغيرها.

فالنصراني الذي يصدق لا نحكم عليه بالنهوض لصدقه فالأساس الذي يبني عليه سلوكه في الحياة غير راق! وهكذا.

من هنا فمعيارا النهضة التي نحكم من خلالهما على إنسان أو دولة أو مجتمع بأنه حقق النهضة هما:

الانتقال من الناحية الحيوانية إلى الناحية الانسانية، بأن يستعمل الانسان عقله، فيسير علاقاته وسلوكه وفق قاعدة فكرية تمثل وجهة نظر له في الحياة، ولا يترك سلوكه أسيرا لغرائزه وجوعاته، فينحط لأدنى من درجة البهائم.

بلوغ المكانة الراقية اللائقة بهذا الانسان وبهذا المجتمع وبهذه الدولة وهنا سلم قد ترتقيه بعض الدول لتبلغ مكانة ما عليه لم تبلغها دولة أخرى تملك نفس المبدأ أي نفس العقيدة التي انبثق عنها نظام يسير الحياة وعلاقات المجتمع وفقه، من هنا كان لا بد من التحقق من وجود ثلاثة ضوابط تعين على تحديد مدى نهضة هذا الانسان عن غيره ومدى نهضة هذا المجتمع أو هذه الدولة عن غيرها وهي:

- ✓ وجود المبدأ.
- ✓ تطبيق المبدأ.
- ✓ حمل المبدأ.

نسمع من بعض المسلمين أننا بحاجة لكذا سنة حتى نلحق بالغرب، أو أن أمريكا تسبق أوروبا بكذا سنة، ويحق لنا أن نتساءل عن المعيار الذي يعطينا حكما صحيحا لتقدم أية أمة على غيرها، أو لمقارنة واقع أمة ما بماضيها أو بما ينبغي لمثلها أن تبلغه، حتى إذا كنا فعلا متخلفين عرفنا سر تقدمهم وأخذنا بزمامه ومضينا لنلحق الركب!

فإذا كان معيار تقدم أمة على أمة العلم، فهل يا ترى هو قادر على الحفاظ على رخاء المجتمع؟ أو مكانة الدولة بين الدول؟ أو تحقيق سعادة الناس؟

لا شك أنه لا علاقة له من قريب ولا من بعيد بهذا كله، فابتداء لا علاقة للعلم بصوغ علاقات المجتمع، ولا ضبط سلوك الأفراد، فهو لن يتمكن من تقنين مسألة علاقة الفرد بخالقه مثلا، كأحكام الصلاة والحج، وهو عاجز عن ضبط علاقة الزوج بزوجه وما شاكل، ولن يعطي حلا لمشكلة الزنا أو قذف المحصنات وما شاكل.

ثم إن الذي يسير سلوك الانسان في الحياة إنما هو محاولته إشباع غرائزه وحاجاته العضوية، وهذه الطاقة الحيوية المتمثلة في هذين المظهرين يثيرها أحد أمرين: إما واقع محسوس مادي، أو فكرة من الأفكار، لكن لا بد أن يكون هذا الواقع المحسوس (أو المحسوس أثره) أو الفكرة، متصلا بالغريزة المراد إشباعها، فالخوف مثلا مظهر من مظاهر غريزة حب

البقاء، حتى يثار لا بد من واقع يحرك هذا المظهر، أو فكرة، كالأشباح أو الظلام، أو الخوف من الله، وإلا لا تتحرك بدون ذلك، وبالتالي فحتى نغير سلوك الإنسان أو نغير العلاقات التي تحكم المجتمع مما يتعلق بإشباع هذه الغريزة، أو الحاجة العضوية، نحن بحاجة لفكر متصل بهذه الغريزة يدفع الانسان للاشباع، فنضبطه ليحصل الاشباع بشكل صحيح لا بشكل خطأ، ولا بشكل شاذ، وبالمثل مثلا مظهر الميل الجنسي من غريزة النوع، يحتاج المرء لفكر يضبط هذا الميل ويقننه.

فهل الفيزياء، أم الكيمياء أم الجيولوجيا، أم الهندسة قادرة على إيجاد أفكار تتعلق بهذه المظاهر للغرائز لتحكم طريقة إشباعها؟ بما يحقق السعادة والطمأنينة للمجتمع؟

إن الذي يوجد المفاهيم عن الأشياء التي يتعلق بها سلوك الانسان، بغية إشباع غرائزه وحاجاته العضوية، هو الفكر، فهو الحكم على الوقائع، وهو الذي يركز هذه المفاهيم لدى الانسان، فالانسان يكيف سلوكه في الحياة وفق مفاهيمه عنها، فالسلوك الانساني مرتبط بالمفاهيم ارتباطا حتميا،

والعلوم يتوصل إليها الباحثون عن طريق التجربة بإخضاع المادة لظروف غير ظروفها ومن ثم استقراء التغييرات التي تحدث واستنتاج النتائج، وهذا كله لا يمكن أن يتم بما يتعلق بعلاقات المجتمع ولا بحاجات الانسان وغرائزه، إذ أن العلم يعجز تماما عن سبر أغوار هذه الناحية فلا يصلح إذن أساسا للنهضة.

كذلك الأمر نجد أن العالم الثالث، كما يصنفونه، يعج بكثرة الخريجين وحملة أرفع الشهادات العلمية في كافة المجالات، وفيه أكبر كمية من الجامعات العالية، حتى وصلت نسبة حملة الشهادات إلى درجة تعذر معها إيجاد فرص للعمل لهم مما اضطرهم للهجرة، واضطرت بلدانهم لوضع سياسات تحد من كثرة الخريجين،

هذا مع أن بلدانهم تعج بالمواد الأولية وكثرة الأيدي العاملة، والكفاءات، لكن هذا كله لم يمنع من بقاء تلك المجتمعات ممعنة في التخلف والانحطاط راسفة في قيود الهوان على

الأمم، تابعة ذليلة، وكذلك الانسان فيها بالغ الحكام في الاستهتار به، مما منعه من الاستفادة شعرة مما لديه من علوم، فالعلم ولا شك غير قادر إذن على النهوض بالانسان وبالمجتمعات، وغني عن القول أن سياسات الحكام التجهيلية والتي تمنع أصحاب العقول من استعمالها، نتيجة عمالتهم وحرصهم على إبقاء شعوبهم متأخرة تابعة للغرب الكافر، تعتبر عاملا مهما في عدم الاستفادة من هذه الكفاءات وأن الذي يضمن استغلالها هو نظام مخلص يضع سياسات صحيحة تستغل هذه الطاقات المهدورة، فالنهضة العلمية تابعة ولا شك للنهضة الفكرية التي تنتهي بالمجتمع إلى أن يحكم بأفكار آمن بها شكلت لديه طريقة في العيش.

كذلك الأمر فإننا نمثل للتصديق بهذا الأمر كله بالواقع المعاش، فالعلم في روسيا موجود وعلى أرفع درجة نافست ما لدى الأمريكان بل فاقتهم أحيانا، لكنه لم يحل بين المجتمع والدولة وبين التبعية والهاوية والانحطاط والشقاء، حتى استدانت روسيا رواتب موظفيها، وتخطى أغلب سكانها خط الفقر المدقع انحدارا، بعد سقوط الدولة التي كانت تنهض بالمجتمع لقيامها على عقيدة انبثق عنها نظام شكل طريقة للعيش، ولم ينجح العلم ولا الصناعات في إنقاذ البلاد، لا بل لم ينظر إليه أحد أبدا على أنه منقذ، مع أن النظرية التي قامت عليها الشيوعية ادعى أصحابها بأنها الاشتراكية العلمية!

والاسلام ارتقى بالعرب من جاهليتهم من دون الامساك بناصية العلم المادي ابتداء ، ونشروا أعظم حضارة في الأرض قبل أن يبرز فيهم علماء فلك وفيزياء وكيمياء وطب، مما يعني أن سر النهضة لا بد وأنه لا يكمن في العلوم ولا في الصناعات ولا في القوة العسكرية، وإلا أخفقت النظرية القائمة على هذه الأسس في تفسير هذه النهضة وبالتالي لم تصلح لتعطي تفسيرا لمسألة النهضة ينطبق على كل الوقائع التي حصلت في التاريخ.

لا شك أننا عندما نهم أن نغير مسلك الشخص الذي يشرب الخمر، فإننا لا بد سنبحث عن الأفكار (المفاهيم) الكامنة وراء هذا المسلك، ونغيرها، فنضمن حصول التغيير، فالاسلام عمد إلى وضع قاعدة فكرية أساس استند إليها المسلمون في تفكيرهم تقوم على أساس وضع

الحلال والحرام مقياسا، فلما حرمت الخمر أريقت في الشوارع وقل من يعاقرها، لذا فعند البحث في تغيير مجتمع أو أمة، فلا بد أن نبحث عن المفاهيم الكامنة وراء الانحراف الموجود في المجتمع لنعمل على نسف هذه المفاهيم التي أدت لهذا الانحراف ونستبدل بها المفاهيم القويمة، ومن الواضح تماما أن العلم والصناعات لا تتدخل في مثل هذه المفاهيم لا من قريب ولا من بعيد، فلا أثر للفيزياء على علاقات الربا في المجتمع، ولا على مشكلة السرقة والحل الأنجع لها وما شاكل، فنحن ولا شك بحاجة لنظام يحل هذه المشاكل يبنى على أساس معين قادر على أن تستنبط منه حلول لمثل هذه المشاكل.

قلنا أن النهضة تكافؤ التغيير، فالمسألة المبحوثة على صعيد الفرد والمجتمع والدولة هي مسألة تغيير واقع فاسد إلى واقع صالح، فهل تستطيع العلوم والصناعات إيجاد هذا التغيير؟ وهل ستضمن القوة العسكرية حصول هذا التغيير؟

والتفكير بالتغيير مطلب حيوي لأن الانسان دوما يحرص على التغيير للأفضل، والحياة (ديناميكية) حركية تجذب الانسان بعيدا عن الكمال المنشود، أو ترقى به فيحاول الارتقاء بمن حوله إذ أن الانسان اجتماعي ، والأصل أن يتحمل مسؤولية نفسه ومسؤولية الغير فيفكر في التغيير ليس فقط على صعيد نفسه بل على صعيد المجتمع بل والعالم بأسره، ولعل من كوامن مثل هذا الأمر إشباع مظهر من مظاهر غريزة النوع، ولا بد من الوعي على الواقع الفاسد، ومن الوعي على البديل ومن العمل على الانتقال من الواقع الفاسد إلى البديل وفق آلية معينة.

من هنا فإن المقارنة التي تعقد بين المسلمين وبين الغربيين على أساس أن الغرب متقدم عنا صناعيا أو علميا بكذا سنة لا أقل من أن تبعث على الأسى إذ أن الأصل أن تعقد المقارنة بين القيم التي توجد لدى المسلمين ومدى التزامهم بهذه القيم وأثرها على علاقاتهم، والبحث في طريقة عيشهم، وبين القيم الغربية وأثرها في تسيير حياتهم وعلاقات مجتمعاتهم، ونمط عيشهم.

إن الموضوع المبحوث هو ليس كيف ننهض أي نتقدم عسكريا أو علميا أو سياسيا أو اقتصاديا، بل كيف ننهض لنستفيد من ثرواتنا الاقتصادية والعسكرية والعلمية لنرتقي للمكانة اللائقة بنا ونقود العالم.

إننا عند البحث في النهضة نبحث في نهضة الانسان، ومن ثم وهو الأهم: نهضة المجتمع، ولا شك أن هناك أساس يحدث النهضة ومن ثم أمور تتبع حصول هذه النهضة، والأصل أن لا توضع العربة أمام الحصان إن أردنا أن تسير للأمام، ولقد أراد الغربيون الانعتاق من ربقة تحكم الكنيسة في العصور الوسطى، وما بعدها، فظهرت عقيدة فصل الدين عن الحياة ، وأراد أربابها أن يشيدوا عليها كيانات سياسية ، لكن الأمور تعقدت أمامهم ، فهم أرادوا أن أن يتعاملوا مع الأفكار التي لا واقع لها ، أو التي تفترض افتراضا ، فتقحم على الواقع ، وهي لا تمت إليه بصلة ، أي أنها ليست بحقائق ؛ ولذلك يستحيل أن تتحول هذه الأفكار إلى مفاهيم ، ترتبط بالسلوك الإنساني ، إلا أن يكون سلوكا غريزيا بهيميا ، وذلك لأن الأفكار إنما هي حكم على واقع .

وذلك مثل فكرة الديمقراطية على أساس أنها حكم الشعب بالشعب، فلا الشعب يحكم ولا يمكن أن يتصور أن يكون الحكم جماعيا، ولا الشعب هو الذي يقوم بالقضاء ولا الشعب هو من يقوم بالتشريع ولا حتى ممثلوه، ولا يمكن أيضا إقامة المجتمعات على فكرة الحريات لأن الحرية تنتهي عندما تبدأ حرية الغير، وبالتالي لم تعد حرية، وهكذا مما لا مجال لسرده هنا، فالغرب أراد إقامة كيانات سياسية تقوم على هذه الأفكار.

فلجأوا إلى وضع الافتراضات ، وخططوا في أذهانهم واقعا يسمو على جمهورية أفلاطون ؛ وقام المفكرون والفلاسفة منهم بهندسة هذه الجمهورية ووضعوا لها أصولا وفروعا ؛ وكان أبرز ما برز من نظرياتهم ما يتعلق بالجانب الاقتصادي من حياة الناس ، بل هو الجانب الأولى والأهم عندهم، كما يقول المفكر الكبير الأستاذ فتحي سليم في كتابه القيم نظرة في أسس الاقتصاد الرأسمالي.

شروط الفكر الذي يحقق النهضة:

يشترط في الفكر الذي يصلح لتحقيق النهضة أن يتوفر فيه أمران:

١- أن يكون شاملا لكل نواحي الحياة.

٢- أن يبنى على قاعدة واحدة ثابتة، أي عقيدة عقلية ثابتة.

وحتى يصلح لأن تقوم عليه نهضة صحيحة لا بد من شرط ثالث وهو:

٣- أن يبنى على أساس روحي

ويمكن أن نضم ثلاثة شروط أخرى للقاعدة الفكرية التي تصلح لقيام النهضة الصحيحة عليها وهي:

٤- أن تكون عقلية، بحيث تقنع العقل قناعة تامة لا يتطرق إليها أدنى شك.

٥- أن توافق الفطرة، أي أن تلتقي مع طبيعة الانسان وتقرر ما فيه من العجز.

٦- وأن لا تكون خيالية، أي أن لا تفرض على الحياة أمورا مستحيلة.

وأما شمولها لكل نواحي الحياة فيما يخص النهضة الصحيحة فمعناه أن تتسع لتشمل معالجات جميع المشاكل التي تطرأ على الانسان - بما في ذلك الدولة - في كل زمان ومكان، بحيث لا يضطر إلى إيجاد معالجات لبعض المشاكل من خارج هذه القاعدة الفكرية.

إذن فنحن نتحدث عن فكر أساسي، هو الحصان الذي يجب أن يوضع أمام العربة، تلك العربة التي تركبها العلوم والصناعات والقوة العسكرية، والأفكار الفرعية.

أما لماذا الفكر الأساسي فلأنه كما يقول الأستاذ يوسف السباتين رحمه الله تعالى: الفكر الذي يحصل بارتفاعه النهضة هو الفكر المتعلق بوجهة النظر عن الحياة وما يتعلق بها، فهو

الفكر الأساسي عن الحياة وعما قبل الحياة الدينا وعما بعدها، وعن علاقتها بما قبلها وبما بعدها، وهو القاعدة التي تبنى عليها أو تنبثق عنها جميع الأفكار التي تعالج مشاكل الحياة وهو القيادة الفكرية التي تقود الانسان في معترك الحياة. انتهى بتصرف.

إذن لو تناولنا الاقتصاد مثلا فإنه سيعالج بشقه المتمثل في النظام الاقتصادي، جانبا من علاقات الانسان مع غيره، والأخلاق ستتناول جانبا آخر، والنظام الاجتماعي سيتناول جانبا، وهكذا، وهي بمجموعها منبثقة عن الفكر الأساسي، والاقتصار على أي منها في عملية النهضة سيفضي إلى فشل ذريع لأنه سيترك جانبا مهما من جوانب الحياة بغيرما نظام ينظمه منبثق عن القاعدة الأساسية التي منها انبثقت التشريعات.

كما وإن خلط هذه الأنظمة بالعلوم يعتبر شططا، إذ أن علم الاقتصاد لا يتعلق بوجهة النظر عن الحياة وبالتالي فهو عالمي وليس مما يدخل في بنية حضارة ما من الحضارات شأنه شأن الطب والهندسة، وبالتالي فلا دخل له في مسألة النهضة إذ هو تابع يأتي دوره في تحسين الاستفادة من الموارد وما إلى ذلك.

النهضة هي الارتفاع الفكري إذن، ومعنى ارتفاع الفكر: الانتقال من الناحية الحيوانية إلى الناحية الانسانية ، فالفكر المتعلق بالحصول على الطعام فكر ولكنه غريزي منخفض، والفكر المتعلق بتنظيم الحصول على الطعام فكر ولكنه أعلى منه.

والنهضة تقدم وانتقال المجتمع إلى الأفضل، لا على إطلاق الحكم، بل بأن تكون طريقة العيش أفضل، وأرقى أي أن يتقدم المجتمع حضاريا، وبما أن الحضارة هي مجموعة المفاهيم عن الحياة ، تنعكس رقيا على سلوك الأفراد، وعلى علاقات المجتمع، وطريقة عيشه، ونعني هنا بالعلاقات أنماط السلوك الموجودة في المجتمع، التي تضبط علاقات أفراده بعضهم مع بعض وتشكل عرفا عاما في المجتمع، وبرقيها يرقى المجتمع، ولحصول هذه النقلة لا بد من فكر عميق شامل، وهو ما نسميه بالفكر الراقي، ولحصول النهضة الصحيحة لا بد من فكر مستنير شامل ، ولحصول النهضة لا بد من أن تطرح هذه الأفكار الشاملة العميقة التي تتناول كل

نواحي الحياة، في المجتمع أي أن تنزل على الوقائع، ليحكم عليه أي على وجوده عمليا في المجتمع، وبالتالي نضمن أن ينتقل من مجرد فكر إلى مفاهيم تضبط السلوك والعلاقات.

علامة وجود النهضة في المجتمع

يقول الأستاذ يوسف السباتين رحمه الله في كتابه القيم: طريق العزة:

فمثلا تطرح فكرة التعليم المختلط كفكرة تؤدي إلى تقليل المشاكل الاجتماعية وتخفيف ما ينشأ عنها من النواحي الجنسية فيجري فيها البحث، وتنزل على الواقع في مجتمعين مختلفين أحدهما يوجد فيه الاختلاط، والثاني لا يوجد فيه الاختلاط، وذلك لإصدار الحكم عليها، فإذا كانت المشاكل الاجتماعية وما ينشأ من النواحي الجنسية في المجتمع الرأسمالي الذي يبيح الاختلاط أقل حدوثا منها في المجتمع الاسلامي الذي يمنع الاختلاط، كانت فكرة صحيحة، وإذا كان العكس هو الصحيح كانت فكرة خاطئة، تزيد المشاكل وتكثر التعقيد في المجتمع.

فإذا ارتفعت الأمة في تفكيرها وصارت تنزل الفكر على الواقع أمكنها أن تعطي أحكاما صحيحة على الأشخاص الذين يسوسونها، ويرعون شئونها فتعرف الصادق منهم والكاذب، وذلك كأن يصرح رئيس دولة بأن الحكم في بلاده ديمقراطي ، فحتى يعرف فيما إذا كان صادقا في تصريحه أم كاذبا، فلا يبحث في الديمقراطية نفسها، من حيث صحتها وعدم صحتها، وإنما يبحث في صفة الحكم في البلد، أهو ديمقراطي حقيقة أم لا، فيجري البحث فيه وينزل هذا الفكر على الواقع، فإذا كان الناس في ظل هذا الحكم يتاح لهم إبداء آرائهم ونشر أفكارهم، ويستطيعون نقد سياسة الحاكم دون التعرض لأذى، أو أنه حال انتهاء مدة رئاسة الدولة يستطيع من يرى في نفسه الكفاءة لتولي الحكم أن يرشح نفسه لها، كان الحكم ديمقراطيا وكان الرئيس صادقا، وإذا كان الناس لا يستطيعون إبداء آرائهم ولا نشر أفكارهم، ولا يستطيع أحد أن يرشح نفسه لرئاسة الدولة إلا إذا أراد له ذلك رئيس السلطة فلا يكون الحكم ديمقراطيا وبالتالي يكون صاحب التصريح كاذبا. انتهى كلام السباتين بتصرف بسيط.

فعلامة النهوض إذن التي من خلالها نحكم على المجتمع بأنه ناهض هو أنه ينزل الأفكار على الواقع، فإن طابق الفكر الواقع كان دليلا على صدقه لا على صحته، وأرجو التنبه إلى هذا الفرق المهم: علامة على الصدق لا على الصحة.

وحتى يكون فعلا واقع هذا المجتمع ناهضا فلا بد من قياس الفكر على قاعدة فكرية يحملها بحيث تنسجم الأفكار مع هذه القاعدة بانبثاقها عنها ، فعند ذلك تكون العلاقات التي تسود المجتمع من جنس عقيدة المجتمع فيكون المجتمع ناهضا وإلا فلا.

وعلى صعيد الفرد فإنه لا بد أن يكون سلوكه مبنيا على أفكار تحولت إلى مفاهيم كلها انبثقت من قاعدته الفكرية فيكون ناهضا إذا كانت قاعدته الفكرية امتازت بالشمول وبالعمق على أقل تقدير كما مر قبل قليل.

من هنا فإن مجتمعا يحمل العقيدة الاسلامية ويطبق النظام الاقتصادي الرأسمالي لن ينهض أبدا، لأن بين عقيدته والمعالجات التي يعيش وفقا لها شقاق لا يمكن رأب صدعه، ونفور لا يمكن معه الوصول لسعادة.

سلوك الانسان مرتبط ارتباطا حتميا بمفاهيمه

الغرائز والحاجات العضوية

في كل إنسان، كما في الحيوانات نتيجة لوجود سر الحياة فيها، خاصيات معينة لا يمكن محوها نهائيا من هذا الكائن الحي، تدفعه إلى الميل للقيام بأفعال أو الميل للإحجام عن أفعال، منها ما لا يمكنه إلا أن يشبعها، ومنها ما لو لم يشبعها بقي قلقا، فما كان جزءا من الماهية، لا يمكن محوه ولا كبته وصفناه بأنه خاصية، ويتمثل بالغرائز والحاجات العضوية، وما أمكن محوه أو كبته سميناه مظهرا من مظاهر هذه الطاقة الحيوية.

وبالنظر إلى هذه الخاصيات والمظاهر رأينا أنها تفترق إلى طائفتين بحسب علاقتها بالاشباع، والمؤثر الذي يثيرها، فالحاجات العضوية تثار من الداخل عند جوعة الانسان إلى النوم أو إلى الطعام والشراب وما إلى ذلك مما لو لم يقم به وصل به الحال إلى الموت، فكان إشباعها حتميا، وإثارتها من الداخل.

ومنها ما كان إشباعها ككل وإن كان حتميا، بمعنى أن الانسان لا بد وأن يشبع مظهرا من مظاهرها على حساب مظهر آخر، إلا أنها توجد على هيئة مظاهر يمكن تجميعها في مجموعات ثلاث، وإشباع هذه المظاهر ليس بحتمي ولا يفضي عدم إشباعها إلى الموت، بل يمكن كبت بعض هذه المظاهر كلية، وهذه المجموعات الثلاث هي:

١- غريزة البقاء، وهي مظاهر الخوف وحب التملك وحب الاستطلاع، وحب الوطن، وحب القوم، وحب السيادة، وحب السيطرة وغيرها، ترجع كلها إلى **غريزة البقاء** لأن هذه المظاهر تؤدي إلى أعمال تخدم بقاء الإنسان كفرد.

٢- **والنوع الثاني** من هذه المظاهر، كالميل الجنسي، والأمومة، والأبوة، وحب الأبناء والعطف على الإنسان والميل لمساعدة المحتاجين، وغيرها، ترجع إلى **غريزة النوع**، لأن هذه المظاهر تؤدي إلى أعمال تخدم بقاء النوع الإنساني كنوع وليس كفرد.

٣- **والنوع الثالث** من هذه المظاهر كالميل لاحترام الأبطال والميل لعبادة اللّه، والشعور بالنقص والعجز والاحتياج وغيرها، ترجع إلى **غريزة التدين**، لأن هذه المظاهر تدفع الإنسان إلى البحث عن خالق قادر كامل، لا يستند في وجوده إلى شيء، وتستند المخلوقات في وجودها إليه.

فالغريزة – كما يقول الأستاذ محمد حسين عبد اللّه في كتاب مفاهيم إسلامية- خاصية فطرية موجودة في الإنسان من أجل المحافظة على بقائه، ومن أجل المحافظة على نوعه، ومن أجل أن يهتدي بها إلى وجود الخالق، وهذه الغريزة لا يقع الحس عليها مباشرة، وإنما يدرك العقل وجودها بإدراكه مظاهرها.

والغرائز الثلاث موجودة في الإنسان، ولا يمكن القضاء عليها، ولا أن يسلبها الإنسان من الإنسان، ولكن بعض مظاهر الغريزة الواحدة يمكن كبتها أو محوها وإحلال أحدها محل الآخر، فيمكن أن يحل حب الزوجة محل حب الأم، وحب السيادة محل حب التملك وتقديس البشر والأصنام محل عبادة اللّه، ولكن لا يمكن محو الغريزة كلها واستئصالها من الإنسان، لأن الغريزة جزء من ماهية الإنسان، بينما المظهر الغريزي ليس جزءاً من ماهية الإنسان.

أما كيف يدرك الإنسان انتماء مظهر من المظاهر إلى غريزة من الغرائز، فإنه يدرس واقع المظهر، فإن كان المظهر ميلاً أو إحجاماً ينتج عنه عمل يخدم بقاء الإنسان ذاته، فإن هذا المظهر ينتمي لغريزة البقاء، كالخوف والشجاعة، والبخل وغيرها، وإن كان المظهر ينتج عنه عمل يخدم بقاء النوع الإنساني كان هذا المظهر ينتمي لغريزة النوع كالحنان والعطف والميل الجنسي وغيرها.

وإن كان ينتج عن المظهر عمل يخدم شعور الإنسان بالعجز وبحاجته إلى الخالق، كان هذا المظهر ينتمي لغريزة التدين، كالخوف من اليوم الآخر، وكالميل لاحترام الأقوياء، وكالإعجاب بنظام الكون وغيرها.

فالمظهر غير العمل، فالميل للتملك غير التملك، لأن الميل للتملك شعور في نفس الإنسان تجاه الأشياء لضمها إليه وحيازتها، بينما التملك هو القيام بالعمل. كشراء سيارة أو سرقة مال، فالمظهر لا يشبع الغريزة، وإنما العمل الذي يدفع إليه المظهر هو الذي يشبع الغريزة أو يحقق جزءاً من الإشباع ... فالميل لإرضاء الله غير العبادة، لأن العبادة تشبع غريزة التدين، بينما مجرد الميل لا إشباع منه ... والميل الجنسي لا يشبع غريزة النوع، بينما جماع الرجل المرأة يشبع بعض هذه الغريزة، وإن تكرر هذا الجماع بينهما دون إنجاب أطفال، أصبح هذا العمل غير مشبع للغريزة من جهة هذا المظهر، لأن الأصل في العمل الناتج عن المظهر أن يخدم الغريزة التي ينتمي إليها هذا المظهر... فالجماع دون إنجاب لا يتحقق فيه الإشباع الكامل، لأنه لا يؤدي إلى استمرار بقاء النوع الإنساني، فلا يخدم غريزة النوع. انتهى

فالفروق بين الغرائز ومظاهرها أن الغريزة جزء من ماهية الانسان فهي خاصية من خواصه، بينما مظهر الغريزة ليس بخاصية، وبالتالي فلا يمكن محو الغريزة ككل من الانسان، ولا بد أن تظهر بأي مظهر من مظاهرها، بينما يمكن محو مظهر من مظاهرها كلية، فيغلب مظهرا على مظهر.

وهنا قد يمثل البعض بإثارة الحاجة العضوية والغريزة من الخارج بمثال الشبعان الذي يرى طعاما فيسيل له لعابه ويهم بأكله، فيقولون بأن الحاجة العضوية أثيرت من الخارج، والواقع أن هذه الاثارة لم تكن نابعة من الحاجة العضوية بل من مظهر غريزة البقاء المتمثل في حب التملك.

لاحظ أن الأم مستعدة للتضحية بنفسها فداء لولدها، مما يعني بقاء النوع لا بقاء الفرد، فهي من مظاهر غريزة النوع لا البقاء، ثم لاحظ أنك قد تحترم شخصا، وهذا الاحترام أبدا ليس

لأنك تخافه، لأن الخوف مظهره الملق أو الهروب أو الدفاع، وهذا يناقض الاحترام، كما يقول الأستاذ محمد أبو وائل ، فالشعور بالاحترام لا علاقة له بالحرص على ذات الانسان ولا باستمرار النوع البشري، وإنما هو مظهر لغريزة ثالثة وهي التدين.

والمظهر الذي يظهر به هذا الشعور بالنقص والعجز الطبيعي في الانسان وحاجته إلى الخالق المدبر ، هذا المظهر هو التقديس، وقد يظهر التقديس بمظهره الحقيقي من خلال عبادة اللّه تعالى أو يظهر بأقل وأدنى صورة أي بالتبجيل والاحترام.

ويتم إشباع الطاقة الحيوية بأحد الطرق التالية:

إما الاشباع الصحيح، أو الاشباع الخطأ أو الاشباع الشاذ أو أن لا تشبع أبدا.

وأوضح مثال يوضح ذلك مظهر الجنس من غريزة النوع، فهو إما أن يشبع من خلال الزواج وهو الاشباع الصحيح وفق الشرع الاسلامي، أو الاشباع الخطأ: من خلال الزنى، وفق حكم الشرع الاسلامي بأنه إشباع خطأ، أو الاشباع الشاذ، عن طريق زواج مثلي الجنس أو نكاح البهيمة، أو أن لا يتزوج الانسان مطلقا ولا يقرب النساء وينصرف عن ذلك إلى الترهب أو العلم أو الاستعاضة عنه بحنان الأم.

والذي يحدد أن الاشباع صحيح أو خطأ هو القاعدة الفكرية التي يحكم من خلالها الانسان، وإلا فلو كان الحكم فقط للمفاهيم عن الأشياء بمعزل عن المفاهيم عن الحياة لاستوى أمر الزواج والزنى.

أما الاشباع الشاذ، فيرجع لأن الاشباع يتم في جهة ليست محلا للاشباع، وهو ما يصرف عن النتيجة المرجوة في نهاية المطاف من مظهر الجنس في غريزة النوع، وهو الحفاظ على استمرار النوع، فهو شاذ لأنه لا يفضي إلى استمرار النوع عادة، فقد يحصل أن لا يفضي الزواج إلى أولاد، ولكن العادة أنه يفضي، لكن هذا لا يحصل في الإشباع الشاذ فتدبر.

انصهار الأمة الاسلامية مع عقيدتها

لقد ميز اللّه الانسان على سائر المخلوقات بعقله، وأمره أمرا جازما باستعمال عقله للتفكير، وذلك للتوصل إلى حل العقدة الكبرى، والاجابة على التساؤلات المفصلية التي تفسر للانسان سر الكون، وسر وجوده في هذه الحياة، وسر وجود الحياة في الكون، وتربط هذا الوجود بما قبل الحياة الدنيا وما بعدها، وتبين علاقتها بما قبلها وبما بعدها.

لو كنت نائما في غرفتك على سريرك بين أهلك، واستيقظت لتجد نفسك على سطح البناء تنام متفيئا السماء، فإن أول ما سيخطر ببالك من تساؤل هو ما الذي أتى بي إلى هنا، ومن نقلني من مكاني، وما الغاية من وجودي هنا، وأمثال هذه الأسئلة، وكذا الانسان في وجوده في الدنيا عليه أن يستعمل عقله ليصل إلى تفسير سر وجوده في الكون والغاية من ذلك، ومن أوجده وماذا يريد منه من أوجده، ومن أوجد الكون، وتمثل الاجابة على هذه التساؤلات لدى الانسان قضية مصيرية تتوقف عليها حياته، وذلك لأن هذه الإجابات تشكل لديه المفاهيم عن الحياة، وهذه المفاهيم هي التي تحدد للانسان معنى وجوده في الحياة والغاية من هذا الوجود، وبالتالي تصبغ سلوكه تجاه الأشياء بصبغة معينة تجعله منسجما مع هذه الأفكار التي آمن بها، وبالتالي يكون متميزا بهذه الأفكار.

ولا شك أن الانسان السوي يبحث عن السعادة ليحقق من خلالها نهضته ورفعته على سائر الكائنات، وبالتالي فلا بد عليه أن يبحث دوما عن الأفكار الصحيحة التي تفسر الكون تفسيرا صحيحا، وتجعل تفسيره للحياة صحيحا يضبط سلوكه فيها ضبطا يحقق له السعادة والنهضة والرقي.

وتشكل الأفكار الناتجة عن أجوبة هذه الأسئلة قاعدة فكرية، إذ أن هذه الأجوبة تشكل أساسا يقيس عليه سائر الأفكار الأخرى، وذلك لأن من طبيعة هذه الأفكار أنها أفكار كلية، تجيب

عن التساؤلات التي تفسر الكون والانسان والحياة تفسيرا كليا، وبذلك تشكل لدى الانسان مفاهيمه عن الحياة، أي وجهة نظر له في الحياة.

إن الذي يسير الانسان في الحياة الدنيا إنما هو مفاهيمه عن الاشياء، ومفاهيمه عن الحياة، وهذه الأخيرة هي التي تميز الانسان عن سائر المخلوقات وتسمو ببعض البشر إلى أرقى الدرجات ، وتنحدر بالآخرين إلى أسفل الدركات.

أما المفاهيم عن الأشياء، فهي أن الفواكه والنوم، والشراب والتنفس وما إلى ذلك تشبع حاجة الجسم العضوية، وأن المرأة تشبع غريزة الرجل، وأن الخوف من مظاهر غريزة البقاء لدى الكائنات الحية، وأن الانسان يميل إلى إنقاذ الغريق إشباعا لغريزة النوع، وما إلى ذلك، فهذه كلها تكاد تكون المفاهيم عنها واحدة عند البشر، ويشترك في وجود مثلها مع الانسان (أي الحاجات العضوية والغرائز) الكائنات الحية أيضا، ولا يقول عاقل أن إنسانا يتميز على غيره بأنه يحب الخضروات أو أن إنسانا أخفض من غيره لأنه يشرب كثيرا من الماء، ولكن الانسان الذي يجعل تفكيره في الحياة مقصورا على مثل هذه المفاهيم، فلا يربطها بأفكار أخرى عن الحياة لا شك أنه إنسان منخفض.

تشكل الاجابة على هذه التساؤلات التي تحل العقدة الكبرى لدى الانسان العقيدة التي تجعله ينظر للدنيا من زاوية معينة، فالمسلم ينظر من خلال عقيدته إلى الدنيا من زاوية أنه مخلوق لله عز وجل، وأن عليه أن يسير سلوكه وفق الشرع متخذا الحلال والحرام مقياسا لسلوكه، والرأسمالي تدفعه عقيدته للنظر إلى الدنيا من زاوية تحقيق منافعه الشخصية، والعيش متمتعا بالدنيا متحررا من كل قيد ما أمكن، فمقياسهم لسلوكهم هو النفعية، ومن الناس من لا يحفل بمثل هذه الأفكار فيعيش في الدنيا كما الحيوانات لا هم له إلا إشباع غرائزه وحاجاته كيفما اتفق، ولا ضير لديه أن يحكم بقوانين تستورد من الشرق أو من الغرب ، تحقق له السعادة أو لا تحقق، وغني عن القول أن هذا الانسان ينحط لأسفل من البهائم منزلة.

والانسان لا يعيش في هذه الدنيا وحيدا ، بل هو كائن اجتماعي بطبعه، لذا يتوجب عليه من أجل أن يستمر في الحياة أن يقيم العلاقات مع غيره من بني البشر، فيتواضع المجتمع على أفكار معينة يبنون علاقاتهم على أساسها، ولا شك أن المجتمع الصحي السليم، إنما هو ذلك الذي تتوافق لدى أهله نظرتهم إلى الحياة وبالتالي يقيمون النظام الذي ينتظمهم بناء على عين العقيدة التي يعتنقونها، وإلا فإما أن تتحكم فئة معينة هي الأقوى في علاقات هذا المجتمع، وبالتالي فلا تتحقق السعادة لدى الفئة الأضعف، والتي غالبا ما تكون ممثلة للسواد الأعظم من تركيبة المجتمع مسلوبة القوة، أو أن تكون علاقات المجتمع قائمة على العشوائية فتتضارب المصالح ويضيع الحق والعدل، ويأكل القوي الضعيف، أو أن تكون عين الأفكار التي يؤمن بها المجتمع هي التي تسوده ويقيم الدولة بناء عليها.

عرفت الدولة بأنها الكيان التنفيذي لمجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات التي عند الشعب.

والدول تنشأ، أو تتغير بناء على تغير هذه المفاهيم عن الحياة لدى الناس، فإذا ما تواضع الناس على مفاهيم معينة نابعة من وجهة نظرهم في الحياة، تحولت هذه المفاهيم إلى طريقة في العيش، وجرى إقامة القوانين لتحقيق مصالح الناس بما يتناسب مع طريقة العيش التي يرتضونها، وبالتالي فحجر الزاوية في تغيير الشعوب إنما يكمن في مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات التي يحملونها، أي وجهة نظرهم في الحياة، والتي يقيمون الدولة بناء عليها، لترعى مصالحهم بما يحقق لهم السعادة والرقي.

غير أن الانسان لا يعيش في وسط جامد، بل يعيش في خضم صراع بين مفاهيمه التي فسر الكون بناء عليها ، وبين مفاهيم غيره، وهذا الصراع، لا بد فيه من غلبة القوي للضعيف، بحيث يحاول إما إلى أن يسود بقوانينه على الآخرين أو أن يحمل أفكاره للآخرين حملا دعويا ،أو أن يحوز على ثروات الآخرين لتكفل له ولمن آمن بطريقته في العيش أن يحافظوا على مستوى العيش الذي يحقق لهم الانسجام مع عقيدتهم التي آمنوا بها.

فالاسلام حمل للناس طريقته في العيش من خلال الدعوة والجهاد، حتى سادت الدولة الاسلامية جل العالم المعروف، محققة للناس العدل والقيم العليا التي تحملها عقيدتها، تاركة كل صاحب دين على دينه غير مكره على تغييره، آخذة الحق من مانعيه إلى مستحقيه، فحققت السعادة للمسلمين ولغير المسلمين من رعاياها.

والرأسمالية تحمل طريقتها في العيش متخذة الاستعمار وسيلة لقهر الشعوب وسلب خيراتها، وخاصة الاستعمار الفكري الذي يحاول ما استطاع سبيلا أن يغير عقيدة الناس لتكون الديمقراطية هي عقيدتهم الكلية عن الكون والانسان والحياة، والمصلحة والنفعية هي الضابط والمقياس لسلوكهم في الحياة الدنيا، وخيرات هذه الشعوب نهبا مستباحا للعالم الأول، عالم الرجل الأبيض.

لا شك أن الخطأ الفادح الذي وقع فيه الكثير من المسلمين هذه الأيام، أنهم لم ينظروا لعقيدتهم على أساس أنها قاعدتهم الفكرية بما فيها من أفكار كلية عن الكون والانسان والحياة تعرفهم بالغاية من وجودهم في الحياة وتضبط سلوكهم فيها وفق مقياس الحلال والحرام ، وفق دين مكتمل خال من النقص، يصلح الزمان والمكان به، وتحدد لهم طريقة معينة في العيش، وراحوا بدلا من ذلك يأخذون أفكارا جزئية من عقائد أخرى، ليخلطوها بما لديهم من أفكار مما أنتج لديهم خليطا غير متجانس من الفكر، يتضارب أعلاه مع أسفله، مما تسبب في حالة عظيمة من الشقاء والحيرة والتخبط والجهل، ومما جعل سلوكهم غير منضبط بما آمنوا به من عقيدة انضباطا كاملا، فتسبب بفساد كثير في معاملاتهم، بحيث أصبح الربا أمرا طبيعيا، وتحكم القوانين الغربية في حياتهم أمرا لا يستدعي لدى الكثيرين إجراء الحياة أو الموت، وتحكم الكافر المستعمر في رقابهم أمرا اعتادوه فلم يجرد غالبيتهم العظمى السيف لوقف خطره، وغير ذلك من الدواهي التي نعلم.

ولعل من أخطر نتائج هذا الخلط بين الاسلام وغيره، خاصة وأن الغرب الكافر هو الذي انتصر في معركته الحالية ضد المسلمين، هو إقامة القوانين التي تنظم العلاقات بين

المسلمين على غير أساس الاسلام، أي أن الدول التي يعيش المسلمون في كنفها ليست هي الكيان التنفيذي لمجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات المتميزة التي يحملها المسلمون المتميزون بعقيدتهم وأفكارهم عن الحياة، بل هي كيانات تنفيذية إما لأفكار الفئة المتغلبة في المجتمع أقامت القوانين بما يحقق لها نهب خيرات الأمة واستباحة بيضتها وإبقاءها خاضعة لنفوذ الغرب الكافر يقتل رجالها ويستضعف نساءها ويغير عقيدة أطفالها، بثمن بخس كراسي مهترئة، أو كيانات تنفيذية لأفكار مستوردة بينها وبين الاسلام ما بين الأرض والثريا، مما يجعل المسلم في غربة دائمة في مكان عيشه، وفي صراع دائم بين ما يراه حقا وما يفرض عليه في علاقات المجتمع فرضا بقوة الشرطي، مما جعل علاقته مع هذا الكيان التنفيذي الذي من المفترض أن يحقق له السعادة بحراسة تنفيذ أفكاره عن الحياة، أقول: جعل علاقته بهذا الكيان علاقة العداء والكيد له، فالنظام يكيد للناس والناس تتمنى الخلاص من هذه الأنظمة المأجورة المارقة.

هذا هو مكمن الداء ، وأما الدواء فهو بانصهار الأمة قاطبة مع أفكارها التي اعتنقتها عن الحياة، أفكارها التي شكلت لها عقيدتها الاسلامية الصرفة الخالصة من كل شائبة، تلك الأفكار الكلية التي تشكل لديها الأساس الذي تقيس عليه كل فكر، وتضبط به كل سلوك،

تنصهر الأمة مع هذه الأفكار انصهارا بحيث لا تتصرف أي تصرف إلا وفق مقياس الحلال والحرام، ولا تحمل أي فكر إلا بعد أن تتأكد من انبثاقه من هذه العقيدة.

لا شك أن حجر الزاوية في إعادة استئناف الحياة الاسلامية، أن تقوم الأمة الاسلامية بتحديد وجهة نظرها في الحياة، والتي ستحدد لها طريقتها في العيش، وذلك بدراسة العقيدة الاسلامية دراسة سياسية، بحيث تدرك أن هذه العقيدة عقيدة سياسية، تعالج كل مشاكل الحياة بحلول شرعها الله سبحانه عن طريق الوحي، وعقيدة روحية تربط الانسان بالحياة الآخرة وتجعل سعادته تتحقق بنوال رضوان الله سبحانه وتعالى، وبالتالي تكف الأمة عن أخذ حلول جزئية ترقيعية من الغير بحجة توافقها أو عدم مخالفتها للاسلام، فالاسلام ليس بحاجة لقطع

غيار تؤخذ من غيره، ولا يمكن لأية فكرة أن تكون متوافقة مع الاسلام أو غير متعارضة معه إذا ما كانت منبثقة عن غيره لأن أساس أفكار الاسلام الأخذ من الوحي وإفراد اللّه سبحانه بحق التشريع ووضع الحلول لمشاكل الانسان في الحياة.

ومن ثم أن تقوم الأمة بفرض هذه الأفكار في واقعها من خلال الدولة التي تنفذ هذه الأفكار في واقع الحياة ليعيش المسلمون حياة اسلامية ترضي ساكن الأرض ويرضى عنها رب العالمين.

نظام الإسلام

النهضة تتمثل في سلوك الانسان، وتصرفاته، وتنظيم علاقاته، وسيره في الحياة وفق مفاهيمه عن الأشياء مربوطة بمفاهيمه عن الحياة، تلك التي بناها على عقيدته، بشرط أن تكون هذه المفاهيم راقية، أرفع من أن ترتبط بنظرة ضيقة للانسان أنانية في ضمن نطاق الأنا أو العائلة أو العشيرة.

والضابط لسلوك الانسان هو النظام المنبثق عن العقيدة،

والنظام هو المنظم لعلاقة الانسان مع نفسه ومع غيره ومع خالقه.

كما أنه النظام الذي ينظم للبشر إشباع طاقاتهم الحيوية بما يضمن حسن الاشباع ويحقق العبودية لله تعالى، ولا يترك الانسان عبدا لغيره يضع له قوانين تنظم حياته، وبالتالي سيحقق تطبيق هذا النظام السعادة، والفوز والنجاة يوم يقوم الأشهاد.

والمبدأ عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام . أما العقيدة فهي فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة ، وعما قبل هذه الحياة الدنيا ، وعما بعدها وعن علاقتها بما قبلها وما بعدها .

وأما النظام المنبثق عن هذه العقيدة فهو معالجات لمشاكل الإنسان ، وبيان لكيفية تنفيذ المعالجات ، والمحافظة على العقيدة ، وحمل المبدأ .

فكان بيان الكيفية للتنفيذ وللمحافظة ولحمل الدعوة : طريقة ، وما عدا ذلك وهو العقيدة والمعالجات:

فكرة ، ومن هنا كان المبدأ فكرة وطريقة .

والنظام هو الأحكام الشرعية العملية المستنبطة لعلاج مشاكل الانسان إلى أن تقوم الساعة، والذي يشكل مقاييس للانسان تدفعه للقيام بأعمال أو الاحجام عن غيرها.

أما انبثاق النظام عن العقيدة الاسلامية فآليته هي: أن الإسـلام يـرى أن الله جعـل للنـاس نظاماً في الحياة يسيرون عليه ، وأرسـل سـيدنا محمـداً صـلى الله عليـه وعلـى آلـه وسـلم بهـذا النظام وبلغهم إياه ، فيجب أن يسيروا عليه ، ولذلك فالمسلم يدرس المشكلة ، ويستنبط حلها من الكتاب والسنة .

وللإسلام طريقة واحدة في معالجة المشاكل ، فهو يـدعو المجتهـد لأن يـدرس المشـكلة الحادثة حتى يفهمها ، ثم يدرس النصوص الشرعية المتعلقة بهذه المشكلة ، ثم يستنبط حـل هذه المشكلة ، من النصوص ، أي يستنبط الحكم الشرعي لهذه المسألة من الأدلـة الشـرعية ، ولا يسلك طريقة غيرها ، مطلقاً . على أنه حين يدرس هذه المشكلة ، يدرسها باعتبارها مشكلة إنسانية ليس غير ، لا باعتبارها مشكلة اقتصادية أو اجتماعية أو مشكلة حكـم أو غيـر ذلـك ، بـل باعتبارها مسألة تحتاج إلى حكم شرعي ، حتى يعرف حكم الله فيها .

والنظام هو الذي إن طبق فـي المجتمـع الحامـل للأفكـار الاسـلامية والمشـاعر الاسـلامية جعله مجتمعا إسلاميا.

فحين نقول: نظـام الاسـلام فإننـا نعنـي ذلـك الجـزء مـن المجتمـع الـذي قوامـه الانسـان والأفكار والمشاعر والأنظمة، أي أن النظام هو العنصر الرابع من عناصـر تكـوين المجتمـع، فهـو الذي يضع المعالجات لمشاكل الناس ويبين طريقة تنفيذ هذه المعالجات.

والإسلام يرى أن النظام إنما ينفذه الفرد المؤمن بدافع تقوى الله ، وتنفذه الدولة بشعور الجماعة بعدالته ، وبتعاون الأمة مع الحـاكم بـالأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر ، وبسـلطان الدولة . وتتولى الدولة شؤون الجماعة ، ولا تتولى عن الفرد شؤونه إلا إذا عجز عنها ، ولا يتطور النظام أبداً .

والدولة لها صلاحية تبني الأحكام الشرعية إذا تعددت نتائج الاجتهاد فيها .

وهذا النظام يطبق على صعيد الفرد في تصريف علاقاته وإشباع غرائزه وحاجاته العضوية وفق أوامر الله ونواهيه.

وينظم علاقته بخالقه: العبادات والعقائد، وبغيره: المعاملات، والعقوبات

وبنفسه: المطعم والمشرب (والمسكن والتطبب) والأخلاق.

وعلى صعيد الدولة يتمثل فيما يلي:

في شق الحكم يتمثل في خمسة أشياء : في الأحكام الشرعية المتعلقة بالاجتماع ، والاقتصاد ، والتعليم ، والسياسة الخارجية ، والحكم .

وفي الشق الاجتماعي الذي يعين علاقة المرأة بالرجل وما يترتب على هذه العلاقة أي الأحوال الشخصية ، فإنه ينظم هذه العلاقة وفق أحكام معينة واضحة.

ويتمثل في الناحية الاقتصادية في ناحيتين إحداهما كيفية أخذ الدولة للمال من الشعب لتعالج مشاكل الناس ، والثاني كيفية إنفاقه .

وأما التعليم فإن سياسته تكون مبنية على أساس الإسلام ، فالثقافة الإسلامية هي الأساس في منهاج التعليم ، والثقافة الأجنبية يحرص في عدم أخذها إذا تناقضت مع الإسلام ، وتطبق الدولة سياسة تعليمية معينة .

وأما السياسة الخارجية فالدولة تجعل علاقاتها الخارجية كلها مبنية على أساس الإسلام ومصلحة المسلمين بوصفهم مسلمين .

وأما بالنسبة لنظام الحكم فإن جهاز الدولة في الإسلام يقوم على سبعة أركان هي : الخليفة وهو رئيس الدولة ، والمعاونون له في الحكم ، والولاة ، والقضاة ، والجيش ، والجهاز الإداري ، ومجلس الشورى .

والسمة المميزة لهذا النظام هو أنه كله مأخوذ من الوحي، بعد أن اطمان العقل إلى أن عقيدته التي انبثق عنها مبنية على العقل وتوافق الفطرة وتقرر ما في الانسان من عجز، مما يجعله وحده الضامن لحسن خلافة الانسان في الأرض، وعمارتها.

النظام يقابله الفوضى، ولا يبحث الا مع باحث عن نظام اذ ادرك الفوضى، او مع من من شأنه ان يكون وعيا على النظام ونقيضه .... فنظام الاسلام يقدَّم للمسلمين ومن ثم للعالم لينظم، ليعيد البشرية إلى جادة الصواب بعد أن طبقت شريعة الغاب.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وقفت بكل هيبة وخشوع في ظلال هذه الآيات من سورة آل عمران وأحببت أن أنقل لكم شيئا مما بدا لي:

قال تعالى في آل عمران: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ(١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٢) وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ(١٠٨) وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ(١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ(١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ(١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ

عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ(١١٢) لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ(١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ(١١٤)وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ(١١٥)]

في هذه الآيات الكريمات نلمح ملمحا أساسيا وسياقا ينتظمها يمكن أن نبرز فيه النقاط الاساسية التالية:أولا :[قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ] نعلم أن أهل الكتاب يعلمون أن الرسول عليه السلام حق وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يكفرون به!

ثانيا :[قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٩٩)]

يحاول أهل الكتاب أن يردوكم عن الدين ان استطاعوا وأن يفتنوكم عن الدين وأن يحرفوا الكلم عن مواضعه ويبغون آيات الله عوجا حتى لا تبقى المفاهيم الاسلامية جلية واضحة في المجتمع الاسلامي

ثالثا :[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ(١٠٠)]

الخطر الشديد الذي يتهدد المجتمع الاسلامي من وجود هذه الدعايات المغرضة وهذه الفئة الضالة المضلة هو انقلاب الهدى ضلالا والايمان كفرا

أي أن تتكرر مأساة أهل الكتاب بكفرهم بعد إيمانهم وعلمهم أن الرسول حق.

وهنا يجدر التنبه لهاتين النقطتين:

أ- الكفر بعد الايمان مع العلم أن الايمان هو كذا وكذا والكفر كذا وكذا ولكن الجحود والاستكبار والدنيا وما شابه.

ب- الكفر بعد الايمان بعد أن تخلط المفاهيم ولا يستبين الحق من الباطل ولا الهدى من الضلال أي بعد الحملة المغرضة التي تشوه حقائق الايمان.

تأمل ثانية هاتين النقطتين على ضوء الآيات السابقة لتستجليهما بوضوح أقصد أن الحق سبحانه يبرزهما حتى يبقى المؤمنون على إيمانهم ولا يخدعهم أهل الكتاب ولا يضلوهم:

مرة أخرى: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ(١٠٠)]

وتتضح بوضوح أكثر النقطة ب من خلال الاية اللاحقة: [وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(١٠١)]

عندكم الادلة القاطعه والبراهين الساطعه وفيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوكن هذه الدعايات المغرضه والحملة المسعورة لتشويه مفاهيم الاسلام عليكم أن تحذروا منها وعليكم الاعتصام بالله أي أن لا تخلطوا الاسلام بغيره حتى لا يتشوه في قلوبكم هذا الدين فتضلوا كما ضل أهل الكتاب

رابعا :هنالك محور آخر يمكنه أن يبعد المجتمع الاسلامي عن صفائه وولائه وبرائه ووحدته وهو الوحدة والاعتصام بحبل الله جميعا وعدم الفرقة: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٠٢) وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠٣)]

ونعلم هنا مكائد يهود في تفريق المسلمين مهاجرين وأنصارا بل أوسا وخزرجا فالمنقذ من ذلك أن يعتصم المسلمون بحبل الله جميعا وأن لا يتفرقوا بناء على عصبيات القبيلة أو الوطنية أو القومية أو ما شابه من دعوات الجاهلية التي تنخر جسم الأمة الاسلامية وتكون بذا سبيلا لتردي المسلمين من الايمان إلى الكفر من حيث يشعرون أو لا يشعرون

هذا سياق الآيات البين الواضح الجلي : يعني ترى أن هنالك بعد سياسي مهم في المسألة.

وحدة المسلمين ورعاية شئونهم من أن تنتشر فيهم الدعايات الهدامة والدعوات المغرضة التي تفرقهم على غير أساس الاسلام فيتفرقوا على أساس الدعوات الجاهلية.

لكن لا بد لتحقق هذه الأمور الخطيرة من قيام جماعة من الامة ترعى شئون المسلمين سياسيا لتمنع الدعايات المغرضة التي تحيل إيمان المسلمين كفرا أو تلك التي تنخر مجتمعهم لتفرقهم على أساس القبيلة والعصبية البغيضة،، ولتبصر المسلمين بدقيق المفاهيم الاسلامية الصافية التي تستنبط استنباطا جليا واضحا من مصادرها الأصلية لتعطيهم:

[وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)]

إذن: [وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤)]

قبل أن نقف مع هذه الآية بالتحديد وقفات نبين فيها كل حرف بحول الله دعنا نكمل في ضوء السياق العام:

[وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥)]

لاحظ مقاربة بين حالين:

[وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ]

[وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ]

تفرق الكفار أولا على أساس الدعوات الجاهلية لا علـى أسـاس ديـنهم ومـا أمـرهم بـه رب العالمين من وحدة هو الذي تنعى عليه الآيات:

تذكر ما بينت الآيات السابقة: [وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً] هذه واحدة

اي تذكروا تفرقكم على أساس الأوس والخزرج والقبلية وما شابه، والحـل تـأليف قلـوبهم على العقيدة الاسلامية

والثانية: [وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠٣)] أنقذكم من الكفر إلى الايمان.

[وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥)] هذه آية محورية في السياق ولا بد من فهمها لفهم ما يرمي إليه السياق ككل

[تفرقوا واختلفوا]

أمران مهمان علينا أن نقف عليهما: التفرق لنقف على أقوال العلماء فيه،

وكذلك الاختلاف متسائلين:

هـل أحـدهما يتعلـق بالفرقـة طوائـف وأحـزاب وشـيع متنـاحره علـى أسـس غيـر قويمـة والاختلاف في العقائد الذي أودى بهم إلى الكفر؟

يعني بوضوح محوران يسيران جنبا إلى جنب في الآيات:

التحذير من الفرقة التي بين في آيات سابقة أنها بالرجوع لدعاوى الجاهلية من القومية وما شاكل: كنتم أعداء فألف بين قلوبكم!!

لهذه الدرجة خطورة الدعوات الهدامة التي تبعث النعرات القومية والوطنية والقبلية!!

رب العزة بنفسه سبحانه هو الذي نزع الغل من القلوب الناتج عن مثل هذه الدعوات ومن على المؤمنين بهذه النعمة!!

والتحذير من الاختلاف العقدي إلذي يوصل للكفر

لنر أقوال المفسرين أولا فيما يخص هذا الأمر:

قال الاستاذ سيد قطب رحمه الله: والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص . . يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافا جوهريا أصيلا . فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة . لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي ، ومن بيئة غير البيئة الجاهلية . هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له ؛ فيحيا فيه هذا التصور ، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية ، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه . وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل الله تجد من يدافعها دون منهج الله في الحياة .

هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة . الإيمان بالله كي يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص ، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها في الحياة ، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله ، وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض . . والأخوة في الله .

كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة , وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار . الإيثار المنطلق في يسر ، المندفع في حرارة ، المطمئن الواثق المرتاح . انتهى

حقيقة لم أعثر على تفصيل أو وقوف على تفريق ما بين المقصود من الفرقة والمقصود من الاختلاف بشكل دقيق فيما قع بين يدي من كتب التفسير

إلا أنني وجدت في تفسير أبي السعود ما يلي:

[وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ] {هم أهلُ الكتابين حيث تفرقت اليهودُ فِرَقاً والنصارى فِرَقاً}

[وَاخْتَلَفُواْ] {باستخراج التأويلاتِ الزائغةِ وكتمِ الآياتِ الناطقةِ وتحريفِها بما أخلدوا إليه من حُطام الدنيا الدنيئة} [مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ ٱلبينات]أي الآياتُ الواضحةُ المبينةُ للحق للاتفاق عليه واتحادِ الكلمة، فالنهيُ متوجهٌ إلى االمتصدِّين للدعوة أصالةً وإلى أعقابهم تَبَعاً، ويجوز تعميمُ الموصولِ للمختلِفين من الأمم السالفةِ المشار إليهم بقوله عز وجل: {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ } وقيل: هم المبتدِعة من هذه الأمة، وقيل: هم الحَرورية وعلى كل تقدير فالمنهيُّ عنه إنما هو الاختلافُ في الأصول دون الفروع إلا أن يكون مخالفاً للنصوص البيِّنة أو الإجماع لقوله عليه الصلاة والسلام: «اختلافُ أمتي رحمةٌ» وقولِه عليه السلام: «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجرٌ واحدٌ.انتهى

وقد أجاد الألوسي رحمه الله إذ قال: [وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ]وهم اليهود والنصارى قاله الحسن والربيع. وأخرج ابن ماجه عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة والذي نفسي بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار قيل: يا رسول الله من هم؟ قال :الجماعة " [وَاخْتَلَفُواْ] { في التوحيد والتنزيه وأحوال المعاد، قيل: وهذا معنى تفرقوا وكرره للتأكيد، وقيل :التفرق بالعداوة والاختلاف بالديانة} .انتهى

وهو ما نرمي إليه أي أن سياق الآيات يوضح بجلاء أن التفرق والاختلاف أحدهما يخص العداوة والثاني الديانة

فكما لاحظنا أن سياق الآيات العام يشير إلى محوري الايمان مقابل الكفر ومحور الجماعة والاعتصام بحبل اللّه وعدم الفرقة مقابله العداوة والفرقة وتأليف الحق سبحانه لهذه القلوب وما شابه.

إذا وصلنا لهذا البيان في تفسير هذا القسم فلننطلق لما بعده وباللّه تعالى التوفيق:

سادسا: [كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)]

ما زالت الآيات تكشف عن وحدة عجيبة في السياق لا بد من ربطها بعضها ببعض للوصول لحقيقة طبيعة الأمر الالهي العجيب الذي نبحثه:

لاحظ هنا أنه استعمل عين اللفظ الوارد في آية ولتكن منكم أمة: أمة

[خير أمة أخرجت للناس] قرينة [أخرجت للناس] سحبت معنى الأمة من معانيها الكثيرة المعروفة من العربية إلى المعنى الشامل للأمة الاسلامية أي المسلمين جميعهم

خيرية هذه الأمة وأفضليتها على أمم الأرض بدأها الحق سبحانه بمسألة انها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن باللّه

لا بد أن أي تقديم وتأخير في كتاب اللّه وراءه من الأسرار ما وراءه فلا بد من البحث وراءها: وحتى يتسنى لنا الوقوف على أدقها فلا بد من ربطها بنسيج الآية المحكم:

[كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ(١١٠)]

ربطها بأهل الكتاب :ما الذي جعل إيماتهم ينقلب كفرا وجعلهم يعلمون أن محمدا عليه السلام رسول حق من الله ومع ذلك يكفرون به؟

ما العيب الخطير الذي طرأ على إيمانهم ليحيله إلى هذه الهشاشة وهذا العيب الخطير الذي سهل معه أن ينقلب كفرا؟

ربطه بمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!!

[كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ(١١٠)]

[لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (٧٩)] المائدة

إذن فالعيب الذي طرأ على مجتمعهم الخطير والذي أدى إلى أن تحول إيمانهم إلى الموت هو أنهم لا يتناهون عن المنكرات ولا يأمرون بالمعروف

فخطورة وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدمه من المجتمع تحول الإيمان كفرا بسهولة بمعنى آخر تفقد الايمان حلاوته وطلاوته وتضع على القلب الغشاوات التي من السهل أن تحترق معها كل معاني الحيوية في الايمان ليستحيل بسهولة كفرا، هذه واحدة

والثانية لا بد أيضا من ربطها بالآية التالية:

[كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ(١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى]

هذه المحاولات التي أشارت إليها الآيات السابقة من محاولة أهل الكتاب زرع العداوة والبغضاء في المجتمع الاسلامي وزرع المفاهيم الخطأ عن الايمان ليتحول إلى الكفر ضررها في مجتمع فيه أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ليست إلا أذى، كذلك:

[لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ(١١١)]

يوجد في المجتمع قوة تضرب على أيديهم وتهزمهم في الحرب فلا خوف منهم

والخوف على المسلمين اليوم!!

فلا قوة ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر ولا قوة في الايمان فتأمل أهمية ذلك الأمر الرباني!!

طيب لننتقل خطوة للأمام في اتجاه فهم آية ولتكن منكم أمة!!

[لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ(١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ(١١٤)]

ليس كل أهل الكتاب على تلكم الشاكلة بل منهم أمة قائمة، لاحظ

منهم أمة أي جماعة أو طائفة من أهل الكتاب

من لا شك هنا للتبعيض قولا واحدا لأن بقية أهل الكتاب على الشاكلة التي وصف من قتل الأنبياء والكفر وما إلى ذلك!!

هذه الأمة القائمة أعمالها ما هي؟

[أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)]

لاحظ أن طبيعة عملها الذي به حافظت على إيمانها وبه أصبحت فقط الفرقة الناجية من تلك الفرق التي اختلف على أساسها وتفرق أهل الكتاب هو الطاعات والايمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما بينته الآية

هذه الأمة يضربها الله تعالى مثلا لنا وهو يحدثنا عن خيرية هذه الأمة وعن كيفية حفاظ الأمة الاسلامية على دينها فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون وما إلى ذلك مما مر في الآيات الكريمات

إذن فلا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حافظ للأمة يقيها الخطر الخارجي الماحق بدينها المتمثل بالدعايات الهدامة التي تصرف الناس عن الفهم الدقيق لمفاهيم الدين

وعن الفرقة والتناحر القائم على الدعوات الهابطة الغريزية من القومية والوطنية والعصبية القبلية

ولو لاحظت شيئا هنا أيضا

أن الغزو الباغي تقويض أركان المجتمع الاسلامي له شقان:

شق فكري يتناول الايمان ويحاول دس المفاهيم الخطأ لصرف الناس عن الايمان ليدخلوا مثلهم في الكفر

والشق الثاني غريزي يتعلق بالنعرات القومية والعصبات القبلية التي تنخر الأخوة الاسلامية في المجتمع وتزرع العداوة والبغضاء فيه

وبالتالي فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الوجاء للأمة لتحافظ على خيريتها.

ماذا خسر المسلمون بهدم الخلافة؟

إن الناظر في قضايا العالم الاسلامي كلها : سواء قضية فلسطين أو قضية العراق أم قضية النفط المنهوب والمال المسلوب، والحق المغصوب، أو قضية أفغانستان والشيشان وتلك الثغور الاسلامية الغالية على أفئدتنا، وقضايا الفقر والجهل والتخلف، وتحكم الحكام الرويبضات أمراء السوء الذين أسلموا رقاب الأمة وخيراتها لأعدائها وباعوها بثمن بخس كراسي مهترئة

وتمزيق العالم الاسلامي إلى بضع وخمسين دويلة هزيلة لا تملك من أمرها شيئا ولا تستطيع أن تحمي أبناءها أمام أراذل الخلق، حتى أصبح حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم علينا منطبقا بحرفيته :توشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها

قالوا أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟

قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تنتزع المهابة من صدور أعدائكم ويلقى في قلوبكم الوهْن، قالوا وما الوهن يا رسول الله؟

قال: حب الدنيا وكراهية القتال!

قضية المسلمين المركزية هي غياب الاسلام من واقع حياتهم!

أي أنهم يعيشون في ظل حكم بغير ما أنزل الله أحال حياتهم إلى هذا الجحيم الذي نعلمه ونعيشه

وصدق الله إذ قال :[وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى]

فماذا خسر المسلمون بغياب الخليفة الذي يحكمهم بالشرع ويطبق أحكام الله ورسوله فيهم؟

خسروا أن يعيشوا الاسلام في واقعهم، فتؤخذ زكاة أموالهم من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم، أو لم تعلم أن زكاة أموال وعوائد النفط في عام واحد لن تترك فقيرا في العالم الاسلامي؟

أوليس من العجب العجاب أن تكون دولة كالسعودية تصدر قرابة ٩ ملايين برميل نفط يوميا بسعر يقارب الثلاثين دولارا للبرميل أي حوالي ٢٧٠ مليون دولار في اليوم الواحد، أي ١٠٠ مليار دولار في السنة أن يكون في ميزانيتها للعام ٢٠٠١ عجز قيمته ٢٧١ مليار دولار!

أولا تعلم أن أمريكا قد نهبت النفط وعوائده؟

فبدلا من أن يعود المال وزكاته على الأمة الاسلامية ذهب بفعل حكامنا – أخزاهم الله – إلى جيوب أرباب المال الأمريكان صناع الحروب القتلة الذين ولغوا في دماء المسلمين!!

فهل من فاجعة أشد عشناها بفقد الخلافة التي بعد سبعين سنة من تطبيقها أيام عمر بن عبد العزيز محت الفقر من العالم الاسلامي كما شهد العدو قبل الصديق!!

أوليست فاجعة يعيشها المسلمون صباح مساء، أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، وبين أيديهم خير دستور، قال أحمد شوقي:

إذا زرت يا مولاي قبر محمد	وقبلت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة	لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية	وضاع أريج تحت كل حصاة
لمظهر دين الله فوق كل تنوفة	وباني صروح المجد فوق فلاة
فقل لرسول الله : يا خير مرسل	أبُثُّكَ ما تدري من الحسرات
شعوبك في شرق البلاد وغربها	كأصحاب كهف في عميق سبات
بأيمانهم نوران: ذكر وسنة	فما بالهم في حالك الظلمات ؟

خسر المسلمون بفقد الخلافة عقول مبدعيهم !!لأنه لا راعي يرعاهم، ولا من يقيم لهم مؤسسات البحث ولا من يضع في الأمة الصناعة الثقيلة على الكيفية التي تمنع أعداءنا من أن يتحكموا بمقدراتنا وأن ينهبوا خيراتنا!!

فبعد أن كانت الأمة مصنعا للعلماء تصدر للبشرية العلم والحضارة والرقي والمدنية، وتنشر الجامعات في الأندلس تهوي إليها أفئدة طلبة العلم من أصقاع العالم رأينا هجرة العقول إلى الغرب بحثا عن لقمة العيش بعد أن منعتهم دويلات الرويبضات من التفكير والابداع والعيش الكريم!!

خسر المسلمون بفقدان الخليفة هيبتهم من صدور أعدائهم، مما جرّأ أعداءهم عليهم ، فأعملوا في رجالهم القتل وفي نسائهم الغصب وفي أطفالهم الأمراض وجعلوا بلادهم مختبرا لأسلحتهم المحرمة دوليا كاليورانيوم المنضب وغيره.

وما كان لأعداء الله أن يتجرأوا على أمة الجهاد والشهادة لولا أن حكامنا ومن سكت المسلمون عليهم إذ تولوا أمرهم منعوا المسلمين من قتال عدوهم والدفاع عن حرماتهم، بعد أن كان المسلمون يفتحون باسم الله أطراف الأرض ويخوضون البحر بخيولهم ناشرين للعدل والكرامة ومطبقين على البشرية خير قانون.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال :إنما الإمام جُنَّةٌ يقاتل من ورائه ويتقى به .

أي درع واقية تحمي المسلمين ،فلما سقطت الدرع انكشف ظهر هذه الأمة لسهام أعدائها

خسر المسلمون بغياب الخلافة جيوشهم!

فبعد أن كانت جيوش المسلمين تفتح أصقاع الأرض وتحمي الثغور وترهب أعداء الله أصبحت عبئا على الأمة،

كلما صادف الغرب مشكلة اقتصادية دفعوا حكامنا لشراء الأسلحة بـألى الأثمـان مـن غيـر إذن باستعمالها

تكدست الأسلحة في مخازنها حتى صدئت،

وفتيات المسلمين تصيح وامعتصماه، واخليفتاه

واجنود الله أين أنتم

ولا من مجيب

فـالجيوش تحمـي إسـرائيل مـن صـليات المجاهـدين وتسـهر عينـا علـى أمـن شـارون وتمعن قمعا في أرض المسلمين للمسلمين

ولا عمل لها إلا حماية هذه العروش المعترئة العميلة من أبناء الأمة المخلصين

خسر المسلمون بغياب الخلافة وحدتهم!

فبعد أن كانوا أمة واحـدة يحكمهـم خليفـة واحـد بكتـاب ربهـم الواحـد، يرعـى حرمـاتهم ويسهر عليهم ولا يستأثر عليهم بخير، القوي عنده ضعيف حتى يأخذ الحق منه، والضعيف عنـده قوي حتى يأخذ الحق له، كلهم أمام القضاء سواء.

لا يفرق بينهم حدود صنعها لهم أعداؤهم بعد هدم خلافتهم، فلا يضطر الشـآمي لإبـراز جواز السفر ليحج البيت، ولا العراقي لتأشيرة الدخول ليدخل مصر التي قال فيهـا رب العـالمين : [ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ]

خسر المسلمون بغياب الخلافة تحكيم القرآن فيهم وهذه أعظم خسـارة، فـلا حرمـات اللّه تراعى بعد أن ذبحوا الشرع في حملاتهم الصليبية الحاقدة، ولا تقام الحدود، ولا تحرس العقيدة الاسلامية ولم نعد نتعجب إذ نرى أبراج البنوك الربوية ترتفـع إلـى جـوار الحـرم المكـي ولا رأينـا الجهاد لحمل رسالة الاسلام،

لا بل لقد منع أهل الشام من نصرة أهل بيت المقدس، ومنع أهل نجد والحجاز والبحرين من نصرة أهل العراق، وحيل بين مسلمي باكستان وبين إخوانهم في أفغانستان.

فهلا أفاق المسلمون من عميق سباتهم ، وشمروا عن سواعد الجد ليعيدوا خلافتهم؟

يا خير أمة أخرجت للناس هذا مكانك !!

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى

يقول رب العالمين وهو أصدق القائلين: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ١١٠ آل عمران

لقد رتبت هذه الآية الكريمة بشكل عجيب قوام خيرية الأمة منطلقة من أمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر ، وإيمانها بالله، وخير الأمم أفضلها وأعلاها شأنا، أي أنها أكثر الأمم نهضة، إذ النهضة العلو، فنهض الرجل قام ، ومكان ناهض أي مرتفع، وأمة ناهضة: مرتفعة خيّرة، تسمو على الأمم الأخرى، ولكننا ندرك أن النهضة إنما تكون بأثر المفاهيم التي يحملها الانسان، والتي يحملها المجتمع على السلوك والعلاقات التي يبنى عليها، وبالتالي فقوام هذا السلوك الامتثال بالمعاريف التي نتجت عن الايمان بالله، والانتهاء عن المنكرات التي نهى الله عنها، وبذا يلتزم المسلم، وتلتزم الأمة الاسلامية بالطريقة، فترشد وتقتعد مكانتها السامقة اللائقة بها، وتتحقق فيها الخيرية التي أكرمها الله تعالى بها.

جاء سفيان بن عبد الله الثقفي يوما فقال: يا رسول الله: حدثني بأمر أعتصم به، قال صلى الله عليه وآله وسلم: (قل آمنت بالله، ثم استقم) رواه مسلم

لقد تحدثنا في مواضع أخرى عن نهضة المسلم كفرد، تلك النهضة التي تنتج عن إيمانه بالله واستقامته على أمره، فتؤثر المفاهيم العقدية التي يحملها المسلم في سلوكه مما ينتج إنسانا راقيا ناهضا خيرا.

وهنا الآية الكريمة تحدثنا عن نهضة الأمة كأمة، فنهضتها تنطلق من استقامتها على أمر ربها بجعل المعاريف التي عرفها الشرع مسيرة لأعمالها، وبأن تنآى بعدا عن المنكرات التي أنكرها الشرع، لتستقيم بذا على الطريقة فترشد وتقتعد خير مكانة بين الأمم.

لقد ربط الحق سبحانه في الآية الكريمة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين الايمان بالله، فقدم عند الحديث عن الخيرية الأمر بالمعروف، لأن الخيرية والنهضة متعلقة بالسلوك أي بالأعمال، وهي من نتائج الايمان وهي مبنية على الايمان، وبالتالي فدقة الآية تفضي إلى أن نفهم منها أن الخيرية إنما تكون بجعل الأفكار العقدية هي المسيرة للسلوك، وبجعل العقيدة قيادة فكرية للأمة ومقياسا لأفعالها.

لقد عانت الأمة الاسلامية من طامتين كبرتين: أولاهما الانحطاط، وثانيتهما الهبوط عن المكانة اللائقة بها.

ثلاثة أمور تميز الانسان الناهض أو الأمة الناهضة أو المجتمع الناهض عن غير الناهض أو عن المنحط: حمل المبدأ، وتطبيق المبدا، وفهم المبدأ.

المبدأ مصدر ميمي من بدأ، وهو العقيدة العقلية التي ينبثق عنها نظام، يصوغ لدى للأمة ولدى الانسان وجهة نظر معينة في الحياة ، تصبغ حياته بنمط معين وطريقة معينة من العيش.

والأمة الاسلامية تحمل المبدأ الاسلامي، عقيدة ونظام حياة، ولا شك أن الاسلام مبدأ، عقيدة انبثق عنها نظام، ولا بد أن يكون النظام منبثقا من ذات العقيدة، حتى يكون من جنس المبدأ، ولا شك أن المعالجات التي تنبثق عن عقيدة ما، تبنى على وجهة نظر تلك العقيدة في الحياة، فالمعالجات المنبثقة عن العلمانية تقوم على عقيدة فصل الدين عن الحياة ومنها تنطلق، ومقياسها في وضع المعالجات تحقيق النفعية الفردية، ومفهومها للسعادة: تحقيق أكبر قدر من المتع والللذات، والاسلام قام على عقيدة التوحيد، ومقياسه في وضع المعالجات الحكم الشرعي وما يراه الشارع مصلحة للعباد أو ما يبتليهم به، ومفهومه للسعادة تحقيق رضوان الله، ومقياس الأعمال فيه الحلال والحرام، وبالتالي فإن الدقة في حمل المبدأ الاسلامي وفهمه تقتضي عدم خلطه بغيره، فلا يبحث عن التشابه في الفروع بين الحضارات والمبادئ، إلا من لم يقف على بنية الحضارات الفكرية وقيامها على أيديولوجيات ذات منطلقات محددة مترابطة ،

فهي ومصطلحاتها ومفاهيمها المنبثقة عن عقيدتها كل منسجم يهدف إلى إيجاد نمط معين من العيش يحياه من يؤمن بهذه الحضارة، وبالتالي فالاسلام له مثل هذا النسق، والعلمانية لها مثل ذلك، فالبحث عن القواسم المشتركة بينهما تسطيح لفهم الحضارة وأثرها في العيش إذ تؤخذ كلا واحدا منبثقا عن عقيدتها أو تترك.

ولا شك ايضا أن الحضارة المتميزة إنما تلك التي تضع المعالجات لكل ما يطرأ من مشاكل بغية الحفاظ على نمط العيش الذي وضعت الحضارة لتحقيقه، ولا يشك عاقل أن الاسلام جاء بعلاج شامل لكل ما كان وما يكون إلى قيام الساعة مبنيا على خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد، (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (89) النحل (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) الشورى ١٠ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) ٣ المائدة.

قلنا أن النهضة تتحقق بحمل المبدأ وتطبيقه وفهمه، فإن اختل أحد هذه الأركان الثلاثة هبط المرء المجتمع عن كونه ناهضا إلى دركة الانحطاط، ونزل عن المكانة اللائقة به إلى درجة غير التي تليق به.

بمعنى أن الأمة الاسلامية مبدؤها هو وحده الصحيح، وبالتالي لو حملته وفهمته وطبقته، فالمكان اللائق بها هو القمة والتفرد ، هو أن تكون: خير أمة أخرجت للناس.

بينما الواقع اليوم أنها عندها خلل في الثلاثة فهي منحطة، أما في فهم الاسلام، فقد أدخلت عليه من ركام الحضارات الأخرى ما جرها إلى عالم التيه والذوبان الفكري في حضارات أخرى لا تمت لحضارتها بصلة، ولا بد لها من أجل أن تعود لفهم الاسلام فهما دقيقا من أن تنقيه أولا من كل ما علق به من شوائب، متمثلة أمر ربها سبحانه : لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدمِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) البقرة

فالكفر بالطاغوت سابق للايمان بالله، والخلية قبل التحلية دائما حتى لا يختلط النقي بالكدر فلا يحصل المرء على شراب عذب فرات سائغ للشرب.

ومن ثم لا بد لها من مزج الطاقة العربية بالطاقة الاسلامية، يعني جعل التعبير عن الاسلام باللغة العربية بإمكاناتها الضخمة، وفهم الاسلام باللغة العربية، بسعتها وتأثيرها لتنقل أعظم فكر يرقى بالانسان لينهض، وذلك لانه توجد خصائص معينه مشتركة بين اللغة العربية وبين الاسلام ، هي التوسع والتأثير والانتشار، فاذا ما ربطنا الطاقتين بخصائصهما المشتركة تتولد قوة عظيمة كفيله بإنهاض المسلمين.

وأما تطبيق المبدأ، فبتطبيق الشريعة الاسلامية عبر إقامة الدولة الاسلامية ، دولة الخلافة الراشدة الثانية على منهاج النبوة، لتضع الاسلام موضع التطبيق، فتقوم العلاقات فيها على أساس جعل المعروف ما عرفه الشرع، وإنكار ما أنكره الشرع ونبذه، واتخاذ هذه المفاهيم العقدية مسيرة للسلوك يحاسب المجتمع بشتى فئاته وطوائفه على أساسها وحدها، وبذا تعيش الأمة في ائتلاف ما بين ما تؤمن به وما تسير علاقاتها على أساسه فلا يحصل الاضطراب ولا التخبط.

وأما حمل المبدأ فكل أمة من الأمم التي أرسل الله إليها رسلا أمرها بأن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر وأن تؤمن بالله، ولكنه تعالى ميز هذه الأمة وجعلها خير أمة أخرجت للناس بأن أمرها بحمل المبدأ الاسلامي للبشرية قاطبة لتحكمها على أساسها فتجنب البشرية الاحتكام إلى الطاغوت: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) النحل

إذن فخيرية الأمة إنما تكون بأن تحمل المبدأ الاسلامي ، وأن تطبقه وأن تحمله للبشرية قاطبة، وأن تسير علاقاتها وسلوك أفرادها بناء على النظام المنبثق عن هذا المبدأ.

بهذا فقط تقتعد المكانة اللائقة بها: خيـر أمـة أخرجـت للنـاس، وبغيـر ذلـك تهـبط عـن المكانة اللائقة بها لتصبح نهبا لكل طامع تتداعى عليهـا الأمـم كتـداعي الأكلـة إلـى قصـعتها، ينهبون خيراتها ويشوهون حضارتها بدس كل سم فيها لتخرج من النور إلى الظلمات بدلا مـن أن تخرج هي البشرية من الظلمات إلى النور.

وبعد : يا خير أمة أخرجت للناس، هذه هي المكانة اللائقة بك، فهلا عملت على اقتعادها؟

أمة الشهادة

يقول رب العزة سبحانه:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(36) النحل

وظيفتان للأمة بينهما رب العالمين : عبادة الله والنأي بعدا عن الطاغوت، ولئن كان لنا أن نعرف الطاغوت فما علينا إلا أن نتلو قول الله سبحانه:

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(112) هود، فكل أمر يبعد بك عن الاستقامة فهو دخول في الطاغوت، جاء سفيان بن عبد الله الثقفي يوما فقال: يا رسول الله: حدثني بأمر أعتصم به، قال صلى الله عليه وآله وسلم: (قل آمنت بالله، ثم استقم) رواه مسلم

أما عبادة الله فالامتثال لما أمر والانتهاء عما نهى، والاستقامة على أمره.

أما الطاغوت فقد جاء في القرآن الكريم على معان:

منها منظومة الكفر التي تقف على طرف النقيض مع الايمان: "فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى" البقرة ٢٥٦ هذه الطاغوت يقف وراءها كل من يصد عن سبيل الله لهدف واحد: إخراج العباد من عبادة الله إلى عبادة العباد " اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) البقرة.

والشكل الأفظع من عبادة العباد لا يتمثل غالبا بالركوع والسجود لبني الانسان ولكن بالخضوع للقوانين التي يسنها المشرعون بديلا للقانون الرباني الذي أنزله الله ليخرج العباد من الظلمات إلى النور:

جاء في البداية والنهاية لابن كثير الجزء السابع: قالوا: ثم بعث إليه سعد رسولاً آخر بطلبه، وهو ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة، والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت، واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها.

فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فهكذا فهم الصحابة رسالة الاسلام: إخراجا من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور القوانين التي يضعها البشر والتي لا تحقق العدل بين الرعية إلى عدل الاسلام إذا ما طبق

على الناس، وتطبيق الاسلام هو الضامن بإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فمن قبل ذلك قبلنا منه وإلا قاتلناه حتى يخضع لسلطان الاسلام أو تنفرد سالفتنا دون ذلك.

على أن الطاغوت ورد في القرآن الكريم علامة على الاحتكام إليه بديلا عن شرع اللّه:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً (٦١) النساء

فالأمة الاسلامية إذن مطالبة بالكفر بالطاغوت نظام حياة والاستقامة على أمر اللّه كي تتحقق فيها هداية اللّه فلا تضل، وعلى حسن أداء هذه الأمانة سيقفها اللّه بين يديه ليسألها:

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(89) النحل

فإذا التزمت الأمة بأمر ربها استحقت المكانة العظيمة التي أعدها اللّه لها:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (١٤٣) البقرة

فعلى ماذا ستشهد الأمة؟ وكيف تبلغ الأمة المنزلة العظيمة بأن تكون أمة الوسط: العدالة والخيرية؟

يقول رب العالمين سبحانه:

"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" (١١٠) آل عمران.

فخيرية الأمة تتحقق بتحقيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والايمان بالله، ولقد قدم الله في هذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان بالله، كما أن سائر الأمم التي خلت ممن خلت فيهم رسل الله كانت رسلهم تأمرهم بأن يأمروا بالمعروف وينهو عن المنكر ويؤمنوا بالله، فكيف جعل الله هذه الأمة خير الأمم؟

لا شك أن الربط المحكم بين شهادة الأمة على الأمم بالمنهج الرباني الذي أمر الله أن يقوم الناس كل الناس عليه، الذي يضمن بتطبيقه إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، بحمله إليهم بالدعوة، فإن أبوا فيقاتلوا عليه حتى يدخلوا في الدين أو يدخلوا في سلطان الاسلام فيطبق عليهم الاسلام جبرا عنهم أو برضاهم، لإحقاق العدل في الأرض، هذا الأمر الذي تفردت به هذه الأمة عن سائر الأمم جعلها خير الأمم، وجعل لها الشهادة على الأمم جميعا، وكل رسول إنما بعث في قومه إلا محمدا ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم فقد بعث للناس كافة بشيرا ونذيرا.

فمن دخل في هذا الأمر تحقق فيه قول رب العالمين سبحانه:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(36) النحل

فمدار شهادة الأمة على الأمم هو تطبيق شرع الله على البشرية كافة لتجنيبها عبادة الطاغوت، لإخراجها من جور الأديان والشرائع والنظم والقوانين الوضعية أو المحرفة إلى عدل الاسلام، فمن اتبع واستقام على أمر الله كما أمر الله فقد رشد ومن زاغ ضل وحقت عليه الضلالة فاستحق العذاب.

وبعد:

فلئن كانت هذه وظيفة الأمة تجاه الأمم الأخرى، فما بال هذه الأمة الكريمة تثاقلت عن أن تحرر نفسها من عبادة العباد ، فرضيت بالاحتكام إلى القوانين الوضعية، وسكتت على ضنك العيش الذي تحياه

والله تعالى وعد وأوعد، وعد وقال:

وَأَلَّو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً (١٦) الجن

وأوعد فقال: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) طه

على أن هذه الأمة موقوفة بين يدي ربها ليسألها عن هذه الأمانة وسيشهد رسولكم صلى الله عليه وسلم عليكم فماذا أعددتم لجوابه؟

هو سماكم المسلمين

الحمد للّه وكفى وسلاما على عباده الذين اصطفى

وبعد، فقد أرسل اللّه رسوله بالهدى ودين الحق، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، وأمر المسلمين أن يتفكروا في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] (164) البقرة حتى يتوصلوا إلى حقيقة " أفي اللّه شك فاطر السموات والأرض "، فتطمئن قلوبهم إلى الايمان بوجود اللّه سبحانه خالق الكون، ومن ثم فإن الحق سبحانه وتعالى قد جعل القرآن الكريم معجزة الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، ليدلل بها على صدق نبوته، وآمن المسلون باللّه ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى اللّه عليه وسلم نبيا ورسولا.

والعقيدة الاسلامية عقيدة عقلية تتفق مع الفطرة، سهلة، يستطيع المسلم الوصول إلى حقائقها من غير كبير عناء، فتستقر بين جوانحه لتشكل له قيادة فكرية تقوده في الحياة [وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] (٢٤) الروم.

إن الناظر المتمعن في العقيدة الاسلامية يرى أن القرآن الكريم حرص أشد الحرص على تنقيتها من الظن، ومن الخرص والتهويمات، [وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ] ١١٦ الأنعام [قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ] ١٤٨ الأنعام [أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ] ٦٦ يونس

وطلب القرآن الكريم من خصومه أن يقيموا على عقائدهم الحجج والبراهين وإلا فهم كاذبون، [أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] ٦٤ النمل [وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ] ٧٥ القصص؛

وأقام القرآن الكريم على كل فكرة من أفكار الاعتقاد ما يجعل المسلم مطمئنا إلى أنه قد وصل إلى الحق المبين، [قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] ٩٧ [قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ] ٩٨ [وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ] ١٢٦ الأنعام.

لذلك فإن السمة الأساس لكل فكرة تنتمي إلى منظومة العقيدة الاسلامية هي أنه لا بد أن يتحقق فيها القطع واليقين، وهنا تنقسم الأفكار إلى أفكار أساسية في الاعتقاد، تلك التي أمر رب العزة سبحانه أن يؤمن بها الرسول والذين آمنوا معه، وقرنها بعضها مع بعض في أغلب المواضع من القرآن الكريم، وجمعها مع بعضها أيضا الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث جبريل عليه السلام: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً (١٣٦)" النساء ، "آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)" البقرة.

عَنْ عَامِرٍ أَوْ أَبِي عَامِرٍ أَوْ أَبِي مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَصْحَابُهُ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فِي غَيْرِ صُورَتِهِ يَحْسِبُهُ رَجُلًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ثُمَّ وَضَعَ جِبْرِيلُ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّه مَا الْإِسْلَامُ فَقَالَ أَنْ تُسْلِمَ وَجْهَكَ لِلَّهِ وَأَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ قَالَ فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ أَسْلَمْتُ قَالَ نَعَمْ ثُمَّ قَالَ مَا الْإِيمَانُ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْجَنَّةِ

وَالنَّار وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ وَالْقَدَر كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ آمَنْتُ قَالَ نَعَمْ ثُمَّ قَالَ مَا الْإِحْسَانُ يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَهُوَ يَرَاكَ قَالَ فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ أَحْسَنْتُ قَالَ نَعَمْ، الحديث. أحمد.مسند الشاميين.

فالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيرهما وشرهما من الله تعالى تمثل القضايا الأساسية في الاعتقاد، والخط الأحمر الفاصل بين الايمان والكفر، وهي الخط الأخضر الذي ينقل الانسان من ظلمات الجاهلية إلى نور الاسلام.

على أن أفكارا أخرى قطعية الثبوت والدلالة قد وردت في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة، تدخل أيضا في بنية العقيدة، لا بد من الايمان بها حتى يصير الانسان مؤمنا، وهي الايمان بالجنة والنار والحوض، وصفات المولى سبحانه (أي الايمان بأن الله عليم وأن الله رحيم وما إلى ذلك) وغير ذلك من قضايا الاعتقاد الثابتة بالقطع في الشرع.

فهذان النوعان من الأفكار هما فقط ما يجب أن يدخل في بنية عقيدة المسلم، الأفكار الأساسية الستة ، وما ثبت بالقطع في الكتاب والسنة.

ولكن المتتبع للكتاب والسنة يرى نوعا ثالثا من الأفكار التي تعتبر من القضايا المتعلقة بالاعتقاد، لأن الموقف المطلوب اتخاذه حيالها هو موقف التصديق ، وذلك مثل مسألة أرأى الرسول صلى الله عليه وسلم ربه ليلة معراجه الشريف؟ أم لم يره؟ فهي مسألة متعلقة بالاعتقاد، جاءت أدلتها ظنية في ثبوتها أو دلالتها، أي أن الظن تسرب إليها، مما يجعل موقف المسلم تجاهها هو التصديق بأحد القولين بترجيح أحدهما بناء على غلبة الظن، ولكن، ونظرا لتشديد النكير في القرآن الكريم على اتباع الظن في الاعتقاد، فإن الموقف حيال هذه الأفكار هو التصديق بها وتحريم إيصالها إلى مرتبة القطع ، وذلك لأن القطع بها يفضي إلى تكفير المخالف لها، ولكنها قضايا ظنية في ثبوتها أو دلالتها، وبالتالي فأنّى يبنى التكفير على الظن؟

تسمى مثل هذه القضايا بالقضايا المتعلقة بالاعتقاد، وهي من مثل مسألة عصمة الرسول عليه الصلاة والسلام، وحدود هذه العصمة، ومسألة تأويل صفات المولى عز وجل،

ومسألة رؤية الله تعالى يوم القيامة، وما إلى ذلك من المسائل التي يحتمل أن يكون رأي أي من الفريقين المتنازعين فيها صوابا والآخر خطأ، وبالتالي فلا يجوز أن يبنى عليها تكفير لأي من الفريقين للطرف الآخر.

بعد انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، واتساع رقعة الدولة الاسلامية، ودخول المسلمين في مناظرات مع غيرهم ، تسربت إلى الثقافة الاسلامية الكثير من الآراء ، بحثها المسلمون ليعطوا رأي الشرع فيها، وتنازعوا في الكثير منها، ونشأت الفرق الاسلامية المتعددة، من أمثال الشيعة والمعتزلة والخوارج والجبرية وغيرها.

لقد غاب عن أذهان الكثير من أهل هذه الفرق وهي تتنازع فيما بينهما أيها على الحق في هذه المسألة أو تلك، غاب عن أذهانهم النظر في طبيعة الأفكار التي اختلفوا فيها، أهي من الأفكار التي يترتب عليها الخروج من حظيرة الاسلام إلى حظيرة الكفر، أهي من الأفكار الأساسية في الاعتقاد، مثل إثبات وجود الله سبحانه أو إثبات كل حرف في القرآن الكريم، أو القطع بنبوة الرسول عليه الصلاة والسلام، أو القطع بالنار وعذابها، أم هي من الأفكار التي يمكن الخلاف فيها، دون أن يترتب على ذلك الخلاف إخراج من الملة، فيبقى الكل متسمين بالاسم الذس سماهم القرآن الكريم به: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) الحج

لا يشك عاقل في أن المسلمين قد نهاهم رب العالمين عن الاختلاف في أصول الدين، تلك الأصول التي لا بد أنها مقطوع بها وبالتالي فلا يمكن لأحد أن يتخذ حيالها إلا أحد موقفين: إما الأخذ بها أو إنكارها، وبالتالي فأحد الموقفين يفضي إلى الايمان والآخر إلى الخروج منه إلى الكفر.

ولا ننكر أن كثيرا من الخلافات تطرقت إلى قطعيات، نتج عنها خروج كثير من حملة تلك الآراء من مسمى:المسلمين إلى مسمى الكافرين،كمن أنكر أن الله يعلم أو أن الله حليم رؤوف رحيم.

لكن كثيرا جدا من الخلافات ، لم تكن منتمية إلى تلك المنطقة الحرجة التي منعنا من الخوض فيها، بل كانت في قضايا فرعية، مثل مسألة الإمامة أهي في أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكونهم معصومين، أو غير معصومين، يحكمون لأنهم مجتبون من الله، أو مثلا الخلاف في فهم بعض الآيات المتعلقة بالصفات، كقوله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) الرحمن

فمن مثبت للحق سبحانه صفة الوجه، من غير تجسيم ولا تشبيه ، ومن قائل أن اللفظ هنا على المجاز، أو قوله تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ٦٤ المائدة، فمن مثبت للحق سبحانه صفة اليدين، ومن قائل أن المعنى على المجاز.

فهذه القضايا ونظيرها من القضايا الخلافية لا يفضي القول بأحد الرأيين إلى الكفر طالما أن القائل يلتزم الضوابط الكثيرة الموضوعة للتعامل مع مثل هذه القضايا، كقوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١١) الشورى

فالاسلام وهو يبقي بعض هذه القضايا في دائرة الخلاف المحمود، فإنه يضع الضوابط الدقيقة للتعامل مع مثل هذه القضايا حتى لا يكون للرأيين المحتملين رأي ثالث ينسف الايمان من جذوره كأن يقول قائل أن معنى يد الله الوارد في الآيات تجسيم ، ومشابهة للمخلوقات، أو أن يخرج مفكر برأي يقوم على نفي الصفات جملة وتفصيلا، متبعا بذلك منهجا خطأ في التفكير والتعامل مع قضايا الاعتقاد، مقدما العقل على القرآن الكريم، لذلك فلا بد لمن يلج في مثل هذه المسائل من أن يكون من أهل العلم.

ولا شك أيضا أن كثيرا من الخلافات التي أنتجت هذه الفرق المتعددة في تاريخ الاسلام والمسلمين، هي خلافات سياسية، وبالتالي فليس كل الخلافات هي من النوع الذي يدخل في مسائل الاعتقاد، أو المسائل المتعلقة بالاعتقاد.

وبعد

فإن إرث المسلمين جراء وجود مثل هذه الفرق في يومنا الحاضر بحاجة لإعادة النظر فيه، بحيث يبحث من منطلق الثوابت المبينة أعلاه: أهو خلاف في القضايا الأساسية الست في الاعتقاد، أم هو اختلاف في قضايا قطعية الثبوت قطعية الدلالة؟

فإن كان كذلك فلا بد من مؤمن وكافر.

وإن لم تكن القضايا المختلف فيها من هذا النوع فإنما هو خلاف محمود لا يخرج المختلفين فيه من دائرة هو سماكم المسلمين.

وإن الكافر المستعمر ليهمه جدا أن يفرق كلمة المسلمين إلى أقصى حد يستطيعه ليستطيع إبادتهم عن بكرة أبيهم ، لا يهمه ساعتها أهذا المسلم سني أم إمامي جعفري، أهو إباضي أم أشعري.

إنه لمن المحزن المبكي أن يعمل المسلمون على تكفير بعضهم البعض ويجعلون هذا شغلهم الشاغل بينما لا نسمع في نشرة أخبار واحدة مثلا قولهم: شارون الكافر أو بوش الكافر، فبدلا من جعل المعركة بين الايمان والكفر ، أي بين المؤمنين والكفار ، نقلها البعض للأسف الشديد إلى معركة تحييد الكفار الحقيقيين وتهميش أثرهم ودورهم في الكيد للأمة والتركيز على التناحر ورمي المسلمين بالكفر أفرادا وجماعات .

مع أن سلفنا الصالح رضي الله عنهم كانوا يبحثون عن أمر واحد يدرأون به رمي المرء بالكفر مقابل ما يجتمع لهم من أمور كثيرة لو عرض أقلها على هؤلاء في زماننا لما تورعوا عن أن يجعلوا جهنم مثوى لهذا المرء.

وإن الأصل بعد ذلك في هؤلاء المسلمين جميعا أن ينظروا إلى واقعهم الذي يعيشون، فلا يجترون أغلب الخلافات السياسية التاريخية التي عفى الله عنها، متمثلين قوله تعالى: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) البقرة

وأن يعملوا على تغيير واقعهم عبر تبني برنامج للتغيير يضمن لهم نهضتهم ليعودوا أمة واحدة دون الأمم ، ذمتهم واحدة، خليفتهم واحد، عقيدتهم واحدة، يحكمون بشرع ربهم لا يهمهم إلا نوال رضوانه، يجمعهم قول الرسول عليه الصلاة والسلام:

روى الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ أَحَدُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَسْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»

قال تعالى:[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ]

وقال النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» « رواه البخاري.» ، وروى مسلم عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ أَبِي الْخَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ مسلمٌ » ، وروى ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «حَسْبُ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»

والحمد لله رب العالمين

الإمامة الكبرى، من هو ولي الأمر المعتبر شرعا ؟

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

روى مسلم في كتاب الإمارة والبخاري وأحمد والنسائي وأبو داود: عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ .
وروى البخاري في كتاب أحاديث الانبياء واللفظ له ومسلم وأحمد وابن ماجه "حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ فُرَاتٍ الْقَزَّازِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ قَالَ قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ قَالُوا فَمَا تَأْمُرُنَا قَالَ فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ .

وروى الإمام البخاري في كتاب الفتن واللفظ له ومسلم في كتاب الإمارة وأحمد في مسند بني هاشم: "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنْ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً".

لا شك أن الشارع قد نقل ألفاظا معينة من معناها اللغوي أو الاصطلاحي إلى المعنى الشرعي، بحيث يرتبط الاجتهاد المتعلق بهذه الحقيقة الشرعية بمعناها الشرعي ليصل المجتهد إلى حكم الشارع المتعلق بأفعال العباد.

ومن هذه الألفاظ لفظة الامام أو الخليفة أو ولي الأمر إذا تعلق بحكم الأمة، بحيث لا يشتبه على المسلمين إذا أدركوا هذه الحقيقة مسألة طاعة الحكام اليوم أو فقه الخروج عليهم بإنزال الأحاديث المتعلقة بالحكام وأولي الأمر عليهم.

فالله تعالى أمر في محكم التنزيل بطاعة أولي الأمر منا، قال الحق سبحانه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ" ٥٩ النساء

وقال جل من قائل: "وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ" ٨٣ النساء.

والرسول صلى الله عليه وسلم عندما يقول فيما روى مسلم في كتاب الإمارة واللفظ له وأحمد والدارمي: سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيَّ يَقُولُا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ قَالُوا قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ "

وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري عن جنادة بن أبي أمية قال دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، قلنا : أصلحك الله، حدث بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم، قال : دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا : أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان.

فهل يدخل كل من يلي أمر المسلمين في فقه هذه الأحاديث والآيات؟ أم أن لمصطلح الخليفة والامام وولي الأمر معنى شرعي يترتب عليه أمور ينبغي معرفتها؟

لا شك أن أبسط نظرة تنبيك أن ولي الأمر والخليفة والامام إنما هو حقيقة شرعية اكتسبها بطريقة معينة وفق عقد بينه وبين الأمة لأداء فرض معين.

وتفصيل ذلك أن الشارع أمر ابتداء أن يطبق المسلمون الاسلام ، تطبيقا للشرع، وحماية للعقيدة، وحملا للدعوة الاسلامية إلى العالم من خلال دولة على رأسها إمام واحد لا يجوز أن يتعدد.

فأناط بهذا الإمام تطبيق الشرع على نحو يلزم فيه غيره، فيلزم مانع الزكاة بأدائها، وليس لمن ليس له صلاحيةٌ ذلك، فعلم أنها للامام، ويعاقب المرتد وفق أحكام المرتد، ويقيم المعاهدات، ويقسم الغنائم، ويوزع الصدقات، ويرعى المصالح، ويطبق الحدود، وهذه الصلاحيات لم تعط لغيره إلا ما أناطه الشارع أو هو بها، كالقاضي والوالي، ومعاوني التفويض والتنفيذ.

وجعل الاسلام الامام الباب الذي يلج منه المسلمون إلى جماعتهم فإن انكسر الباب انفضت جماعتهم،

روى الدارمي في مقدمته باب ذهاب العلم عن عبد الرحمن بن ميسرة عن تميم الداري قال : تطاول الناس في البناء في زمن عمر فقال عمر يا معشر العريب الأرض إنه لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة فمن سوده قومه على الفقه كان حياة له ولهم ومن سوده قومه على غير فقه كان هلاكا له ولهم.

وروى الإمام أحمد في باقي مسند الأنصار عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأنا آمركم بخمس آمركم بالسمع والطاعة والجماعة والهجرة والجهاد في سبيل اللّه فمن خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من رأسه ومن دعا دعوى الجاهلية فهو جثاء جهنم قال رجل يا رسول اللّه وإن صام وصلى قال نعم وإن صام وصلى ولكن تسموا باسم اللّه الذي سماكم عباد اللّه المسلمين المؤمنين.

واعتبر الخروج عليه مؤذنا بالخروج من الجماعة، إذ بوجوده توجد الجماعة والخروج من الجماعة خروج من السلطان وكل هذا مؤذن بأن يخلع الخارج وقتها ربقة الاسلام من عنقه.

روى الإمام أحمد في مسند الأنصار حدثني القاسم بن عوف الشيباني عن رجل قال: كنا قد حملنا لأبي ذر شيئا نريد أن نعطيه إياه فأتينا الربذة فسألنا عنه فلم نجده قيل استأذن في الحج فأذن له فأتيناه بالبلدة وهي منى فبينا نحن عنده إذ قيل له إن عثمان صلى أربعا فاشتد ذلك على أبي ذر وقال قولا شديدا وقال صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى ركعتين وصليت مع أبي بكر وعمر ثم قام أبو ذر فصلى أربعا فقيل له عبت على أمير المؤمنين شيئا ثم صنعت قال الخلاف أشد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فقال إنه كائن بعدي سلطان فلا تذلوه فمن أراد أن يذله فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وليس بمقبول منه توبة حتى يسد ثلمته التي ثلم وليس بفاعل ثم يعود فيكون فيمن يعزه أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يغلبونا على ثلاث أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونعلم الناس السنن.

وبناء على تطبيقه الشرع فرض الشرع على المسلمين طاعته، دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا : أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا.

في صحيح الإمام البخاري كتاب الاحكام باب الامراء من قريش حدثنا عن الزهري قال كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث ... عن معاوية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين.

فهو يشترط إقامة الدين كل الدين أي تطبيق الاسلام .

وقد روى مسلم في كتاب الإمارة عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ.

وروى الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَيْفَ بِكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِذَا كَانَ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُضَيِّعُونَ السُّنَّةَ

وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مِيقَاتِهَا قَالَ كَيْفَ تَأْمُرُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ تَسْأَلُنِي ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ كَيْفَ تَفْعَلُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فالرسول عليه السلام يتعجب من مجرد السؤال عن طاعة من يضيع السنة ويؤخر الصلاة فكيف بطاعة من لا يحكم بالكتاب والسنة؟؟؟

وفي مسند أحمد باقي مسند المكثرين: قَالَ عَمْرُو بْنُ زُنَيْبٍ الْعَنْبَرِيُّ إِنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ أَنَّ مُعَاذًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ لَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِكَ وَلَا يَأْخُذُونَ بِأَمْرِكَ فَمَا تَأْمُرُ فِي أَمْرِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا طَاعَةَ لِمَنْ لَمْ يُطِعْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وقد روى مسلم في كتاب الإمارة عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ سَمِعْتُ جَدَّتِي تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يَقُولُ "وَلَوْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا .

وفي رواية ابن ماجة: « ما قادكم بكتاب الله » وفي رواية للترمذى « ما اقام لكم كتاب الله ».

لاحظ اشتراط أن يقود بكتاب الله لتجب الطاعة !!

وايضا فان الله قد امر بطاعة السلطان المسلم وبرد الامور الى السلطان المسلم قال تعالى: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم " وقال تعالى " ولو ردوه الى الرسول والى اولى الامر منهم " وكلمة منهم في الاية الثانية تعني من المسلمين ومفهومه ان لا يطاع غير المسلم وان لا يجب الامر لغير المسلم وهوكناية عن ان لا يكون غير المسلم حاكما لانه اذا امتنعت له الطاعة، وامتنع الرد اليه وهما وظيفة السلطان، ولا سلطان بغيرهما، امتنع ان يكون سلطانا، فكان ذلك دليلا على انه لا يجوز ان يكون للكافر سلطان على المسلم وايضا فان الله

اشترط في الشاهد في الرجعه ان يكون مسلما قال تعالى " واشهدوا ذوى عدل منكم " فاشتراط ذلك في الحاكم من باب اولى.

كم هنا فلفظة أولي الأمر ولفظة الإمام ولفظة الخليفة حقائق شرعية فيبحث في تحقيق مناطها في الأحكام المتعلقة بالبيعة والخروج على الحاكم ومحاسبة الحاكم وما إلى ذلك بناء على أن يكون الحاكم ابتداء يحكم بالكتاب والسنة وأخذ البيعة من المسلمين بالرضا والاختيار، فمن اغتصب سلطان الأمة لا يسمى حاكما ولا يبحث في الخروج عليه بالاستدلال بأحاديث إلا أن تروا كفرا بواحا، بل يستدل بأحاديث أخرى كقوله صلى اللّه عليه وسلم: فيما روى مسلم في كتاب الإمارة: « عَنْ عَرْفَجَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ » وحديث «إذا بويع لخليفتين، فاقتلوا الآخر منهما » رواه مسلم وإجماع الصحابة الذي عبر عنه عمر رضي اللّه عنه بقوله في مرض موته: ثم اجمعوا أمركم فمن تأمر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه. الطبقات الكبرى لابن سعد، وما إلى ذلك.

ثم إن البيعة إذا ما وردت أيضا في الحديث فإن لها حقيقة شرعية متعلقة ببيعة الحاكم إذ رتب على الخروج عليها الخروج على الطاعة وخلع ربقة الاسلام من العنق، وهو ما لا يتأتى لبيعة شيخ طريقة أو إمام مسجد.

من هنا فواقع حكام المسلمين اليوم لا تنطبق عليه الأدلة الآمرة بطاعة أولي الأمر ولا تجعل مثل هذه الأدلة لهم أي صفة شرعية تضفي على وجودهم معنى من معاني الطاعة والامتثال لأمرهم.

كذلك الأمر فواقع الامام المذكور في أحاديث الخروج على الحكام ومنابذتهم بالسيف واقع من كان يحكم بالاسلام ابتداء ومن ثم قام بالإخلال بالبيعة وأظهر الكفر البواح بعد أن لم يكن ظاهرا ، فهذا الذي يخرج عليه بالسيف.

أما من لم يطبق الاسلام ابتداء فلا يتحقق فيه مناط الأحاديث الآمرة بالخروج عليه بالسيف بل يتحقق في التغيير عليه واقع وصف دار الكفر والأحكام المتعلقة بالتغيير فيها.والسلام عليكم ورحمة الله

وقفات مع مفهوم البيعة

الحمد لله وسلاما على عباده الذين اصطفى

روى البخاري قال: عن عبادة بن الصامت قال «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنّا لا نخاف في الله لومة لائم»

بطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من المسلمين أن يبايعوه على السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر، فإنه ولا شك يطلب منهم البيعة له على أساس أنه رئيس الدولة، لا على أساس أنه نبي، لأن الموقف الذي على المسلمين أن يتخذوه تجاه النبي هو الايمان به، واتباعه فيما أمر ونهى، ولا ترد هنا بحال البيعة على السمع والطاعة، إذ أن الايمان بالنبوة واتباع الأوامر والانتهاء عن النواهي، قضايا تتطلب الاقرار، لا البيعة على السمع والطاعة، فمن لم يقر خرج من الايمان، فلا معنى لأخذ البيعة على السمع والطاعة مع وجود الاقرار إلا إذا كانت البيعة على السمع والطاعة لأمر آخر غير الاقرار بالنبوة أي ليس من مقتضيات الايمان، فيبقى أنه أمر متعلق بالبيعة على السمع والطاعة للنبي عليه الصلاة والسلام بوصفه رئيس دولة.

كذلك فمن دراسة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالبيعة نضع يدنا على هذا الحديث:

«روى البخاري قال :حدثني أبو عَقيل زهرة بن معبد عن جده عبد الله بن هشام وكان قد أدرك النبي rوذهبت به أمه زينب ابنة حُميد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله بايعه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هو صغير، فمسح رأسه ودعا له »

فقد رفض الرسول صلى اللّه عليه وسلم بيعته لأنه غير بالغ، مما يدل على أنها بيعة على الحكم.

هذا الأمر يقودنا إلى دراسة واقع البيعة على اعتبار أنها الطريقة الشرعية الوحيدة لتنصيب الحاكم في الاسلام، فالرسول صلى اللّه عليه وسلم أخذها من المسلمين بوصفه رئيس دولة، وأمر ببيعة الخلفاء من بعده لتنعقد لهم الخلافة وتجب لهم الطاعة.

ومن الأحاديث الأخرى التي تنص على بيعة الإمام، ومنها نتبين أن البيعة هي طريقة تنصيب الإمام في الاسلام: ففي مسلم من طريق عبد اللّه بن عمرو أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: « من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر »

وفي مسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما »

وروى مسلم عن أبي حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي وستكون خلفاء فتكثر، قالوا فما تأمرنا ؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول ».

فالنصوص صريحة من الكتاب والسنة بأن طريقة نصب الخليفة هي البيعة.

لكن كثيرا ما استوقفتني هذه الآية

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ»

وسألت نفسي: البيعة فيها على أي شيء؟

أن لا يشركن بالله شيئا، ولا يسرقن ،ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ،ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينك في معروف،

فسألت نفسي:

هذه الأمور ما علاقتها برئيس الدولة؟ طالما أنه تبين لنا بالدليل أن البيعة للرسول صلى الله عليه وسلم هي بيعة له على أنه رئيس دولة وحاكم ، أي بيعة على الحكم لا على النبوة؟

أقول: هنالك من يتصور أن الصلاة عمل فردي بحت، والزكاة والحج وما شابه

لكن التدقيق في واقع فرض الصلاة يجد أحكاما كثيرة متعلقة بالصلاة أو داخلة في مسألة الصلاة في الفقه لا تتعلق فقط بالفرد، بل هي من عمل الدولة وأذكر على سبيل المثال لا الحصر أن عقوبة تارك الصلاة لا علاقة للفرد بتطبيقها وإنما هي منوطة بالدولة، وبالمثل كثير من أمور الزكاة والحج وسائر الفروض العينية ، تحوي مسائل متعلقة بغير الفرد تنضوي تحت هذه المسألة أو تلك ، وبالتالي فحين يرد قوله تعالى على سبيل المثال "الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) الحج، فلا ننظر لهذه المسألة على أنها فقط مما يتعلق بالفرد من إقامة الصلاة ، فالأحكام المتعلقة بالدولة والتي تتناول واجبات الدولة تجاه فرض الصلاة في المجتمع أكثر من أن تحصى.

فنقول بالتدقيق في هذه الآية:

مسئولية رئيس الدولة أن يحافظ على العقيدة فيمنع الأفكار الكفرية من الانتشار في المجتمع ويحول بين المسلمين وبين الشبهات ويوعيهم بإنشاء برامج التثقيف وما شاكل

كما أنه يعمل على المحافظة على أن لا يكون ثمة تشريع إلا ما جاء به الوحي من الله تعالى أي أنه يحافظ على الحاكمية

والإخلال بالحاكمية إخلال بالتوحيد أي دخول في الشرك، وهو ما يبايع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكام من بعده، فهي بيعة متعلقة بالحكم لا بالنبوة والايمان.

وكذلك المؤمنات هنا يبايعن على أن لا يشركن بالله شيئا ، فلا يخضعن إلا لحكم الله ولا تكون إحداهن مصدر أفكار شرك ولا مروجة لها ولا حاملة لها ولا تحمل أي فكر إلا ما انبثق عن العقيدة الاسلامية

الأمور التالية السرقة والزنا وقتل الأولاد وما شاكل

واضح كل الوضوح أنها متعلقة بالحاكم والحكم، فالذي ينفذ الحد فيها الدولة

فهي بيعة على طاعة رئيس الدولة في أمور متعلقة بصلاحياته كرئيس دولة حتى تعلم إحداهن أنها لو أتت شيئا من ذلك حاسبها رئيس الدولة بهذه الصفة

والأمر الأخير أبين وأجلى: أن لا يعصينك في معروف

والطاعة لا تكون إلا بالمعروف

ولا طاعة في معصية ولا لمن عصى

وهي أمر بطاعة رئيس الدولة لتنفيذ أوامر الله

وقد نصت أحاديث أخرى كثيرة على وجوب الطاعة في غير معصية، مما يثبت أن المسألة كلها متعلقة فعلا بالبيعة كطريقة لتنصيب رئيس الدولة،

ففي صحيح الإمام البخاري كتاب الأحكام باب الأمراء من قريش حدثنا عن الزهري قال كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث ... عن معاوية: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين فهو يشترط إقامة الدين كل الدين أي تطبيق الإسلام.

وقد روى مسلم في كتاب الإمارة عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ

وروى الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَيْفَ بِكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِذَا كَانَ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُضَيِّعُونَ السُّنَّةَ وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مِيقَاتِهَا قَالَ كَيْفَ تَأْمُرُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ تَسْأَلُنِي ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ كَيْفَ تَفْعَلُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

والحمد لله رب العالمين

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم

يقول الحق سبحانه وتعالى: "وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨) " الكهف.

قال الرازي في التفسير الكبير: روي عن عبدالله بن مسعود أنه قال: مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وخباب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء عن قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ أطردهم عن نفسك، فلعلك إن طردتهم اتبعناك، فقال عليه السلام: " ما أنا بطارد المؤمنين " فقالوا فأقمهم عنا إذا جئنا، فإذا أقمنا فأقعدهم معك إن شئت، فقال «نعم» طمعاً في إيمانهم. وروي أن عمر قال له: لو فعلت حتى ننظر إلى ماذا يصيرون، ثم ألحوا وقالوا للرسول عليه السلام: أكتب لنا بذلك كتاباً فدعا بالصحيفة وبعلي ليكتب فنزلت هذه الآية، فرمى الصحيفة، واعتذر عمر عن مقالته، فقال سلمان وخباب: فينا نزلت، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا وندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام، فنزل قوله: { وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم } [الكهف: ٢٨] فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه وقال: " الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن اصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات " . انتهى

لقد اتخذ الصراع بين الاسلام والكفر أبعادا عدة، منها البعد العقائدي بين أفكار الاسلام وأفكار الكفر، ومنها هذا البعد، بين المسلمين كتكتل ملتف حول الرسول عليه الصلاة والسلام، قوامه وسواده من الفقراء، وبين متكبرين لا يرضون أن ينضووا تحت لواء تكتل سواده الفقراء، وهم الذين اعتادوا أن يكونوا السادة والفقراء لهم عبيد وتبع.

ولقد شدد الحق سبحانه على أن يقوي أواصر رابطة الصحبة التي على أساسها قام التكتل بين الرسول عليه السلام وبين أصحابه، حتى بلغت أن لا يقوم من مجلسهم حتى يقوموا عنه، صابرا نفسه معهم.

يقول الألوسي في تفسيره: والتعبير في قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين، عن أولئك بالموصول لتعليل الأمر بما في حيز الصلة من الخصلة الداعية إلى إدامة الصحبة. انتهى

لقد كان تكتل الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه رضي الله عنهم، على أساس الصحبة، فكان هو وأصحابه حزبا من دون الناس، متكتلين لهم ما يتميزون به عن المجتمع الجاهلي، عن حزب الشيطان، وهو دعوتهم ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وهو تعبير كناية على اتصال دعوتهم دوما، ليل نهار، وبذا تميزوا عمن مقياسه في الحياة زينتها، متبعا غفلة القلب واتباع الهوى.

فهنا صراع بين عقيدة الاسلام التي لا تميز بين فقير وغني، ولا تقيم وزنا لهذه النظرة السطحية إلى العلاقات التي تسود المجتمع، وبين عقيدة الكفر التي قوامها اتباع هوى النفس.

وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(52) الأنعام

لقد طعن الكفار في إيمان أولئك الفقراء وقالوا يا محمد إنهم إنما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنهم يجدون بهذا السبب مأكولاً وملبوساً عندك، وإلا فهم فارغون عن دينك، فقال الله تعالى إن كان الأمر كما يقولون، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر وإن كان لهم باطن غير مرضي عند الله، فحسابهم عليه لازم لهم، لا يتعدى إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعدى إليهم.

ويقول رب العزة سبحانه: وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) العصر.

يرجح بعض المفسرين أن معنى والعصر قسم بعصر الإنسان أي عمره ومدة حياته الذي هو محل الكسب والخسران لإشعار السياق، ولأنه يخص العبد في نفسه موعظة وانتفاعاً.

ولقد اكتنفت سورة العصر سورة التكاثر قبلها، والهمزة بعدها، والأولى تذم التلهي والتكاثر بالمال والولد، حتى زيارة المقابر بالموت، ومحل ذلك هو حياة الإنسان.

وسورة الهمزة في نفس المعنى تقريباً، في الذي يقضي عمره في جمع مال وعدده، يحسب أن ماله أخلده.

ولو لم ينزل من القرآن إلا سورة العصر لكفت حجة على الخلائق، ففيها الانذار بالخسران إن لم يؤمن المرء ويعمل الصالحات، ويعلم أن عليه أن يقف حياته على حمل الدعوة (وتواصوا بالحق، أي حملوا الدعوة إلى هذا الحق)، فبعد أن يتوصل المرء إلى صدق العقيدة الاسلامية ويؤمن بها، عليه أن يعمل بالنظام المنبثق عنها، ومن ثم عليه أن يعلم أن المبدأ الاسلامي، عقيدة ونظام حياة، إنما جاء لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، وأن من يضطلع بهذا الواجب هو هذا المسلم، فعليه أن يحمل الدعوة إلى هذا الواجب، ومن هنا قوله تعالى : وتواصوا بالحق.

وفي كل حال، لسان حال المؤمن أنه يتواصى بالحق، فمن قام بمنكر تواصى بالحق معه بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ومن حاد عن الصراط السوي حمله عليه بدعوته إليه، فكان بذا أيضا متواصيا بالحق، وإن ظلمه الحاكم تواصى بالحق، فأطره على الحق أطرا، ومن غفل ذكّره بهذا الحق، فهو دائم التواصي بالحق أي دائم الحمل للدعوة.

وعليه أيضا أن يعلم أن لحمل الدعوة هذا تبعات خطيرة عليه أن يتعامل معها بالصبر على حمل الدعوة وما يحيط به، وأن يتواصى بالصبر أيضا مع حملة الدعوة.

لقد وردت إشارات مهمة في هذه السورة العظيمة ينبغي التنبه لها، وهي أنها انطلقت من الحديث عن الانسان الفرد، إن الانسان لفي خسر، وانطلقت بعد الحديث عنه كفرد إلى

الحديث عن المؤمنين كجماعة، فقال: إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا، وعملوا، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر.

فالاطار الذي به يتحقق الايمان وبه تتحقق إقامة الصالحات، هو الاطار الجماعي، ودليله قوله بعدها: وتواصوا، وما فيها من تعدي المسألة من ناحية الفرد إلى ناحية الجماعة، فالجماعة تتواصى فيما بينها.

ولئن كان التواصي بالحق، متحققا بحمل الدعوة من خلال جماعة أو من خلال الدعوة الفردية التي يقوم بها المسلم تجاه غيره، فيمكن أن يوصي غيره بالحق كأن يدعوه للاسلام، فإن التواصي بالصبر لا يكون إلا بين المؤمنين أنفسهم الذين يحملون الدعوة، ويتعرضون لعين الشدائد التي تتطلب منهم الصبر ، وتذكير بعضهم البعض بالصبر ، والصبر هنا معناه الثبات على الحق، وعدم الحيدة عنه قيد أنملة مهما اشتدت الصعاب،

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ (٣٥) الأحقاف، وصبرهم كان بتحملهم الشدائد وثباتهم على الحق،

قال رب العالمين في محكم التنزيل: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) الأنفال

وفي هذه الآيات الاشارة إلى تكتل الصحابة، حسبك اللّه ومن اتبعك من المؤمنين، والتكتل يكون باتباع أمير يطاع، على مبدأ يحمل وجهة نظر في الحياة، والصبر هنا في المعركة لا يكون إلا بالثبات مهما كشفت الحرب عن ساقها، وكذلك الصبر على حمل الدعوة لا يكون إلا بالثبات مهما اشتدت الأهوال وادلهمت الخطوب.

فقوله تعالى: وتواصوا بالصبر يفهم منه أن التواصي هو ما يقوم به أعضاء التكتل فيما بينهم ليثبتوا بعضهم البعض.

وفي ذلك أيضا إشارات مهمة إلى أن المطلوب من المسلم ليس أن يهتدي لنفسه فقط، فلم يقتصر تجنب الخسران على من آمن وعمل الصالحات لنفسه، بل تعداه إلى واجب عليه أن يقوم به وهو حمل الدعوة في إطار جماعة، يتواصى بالحق ويتواصى بالصبر ، والتواصي لا بد له من أكثر من فاعل، فزيد يوصي عبيدا وعبيد يوصي عمرا وهكذا، مما يعني أن حمل الدعوة لا بد أن يكون من خلال جماعة، على أن نص الآية إلا الذين آمنوا، أي الجماعة، مع أنها بدأت بتحديد الجانب الذي تطاله الخسارة وهو الانسان المفرد، فحصل الالتفات من الحديث عن المفرد إلى الحديث عن الجماعة لأن طبيعة حمل الدعوة طبيعة جماعية تستدعي العمل الجماعي.

ولقد جاءت الاشارة إلى هذه الكتلة التي أسماها رب العالمين في موضعين من القرآن الكريم بأنها تمثل حزب الله، من هذه المواضع قوله تعالى:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ (214) البقرة

لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) التوبة

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ

وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) المائدة

لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) المجادلة

من هنا وبعد هذا الحديث عن العمل الجماعي واتباع الرسول عليه السلام كسمة لحزب الله، جاء الأمر الحاسم بتكوين الجماعة التي ينبغي أن يعمل من خلالها المؤمنون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقول الرب سبحانه في آل عمران:

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأعمال التي لا يطيقها العامة لوجوب سبق القيام بها العلم بالمعاريف والمناكير الواجب الأمر بها والنهي عنها، فاقتصر الأمر بذا على طائفة من المسلمين يقدرون على هذا الفرض الذي نص الفقهاء على أنه فرض كفاية في هذا الموضع، وخص الله أولئك المتكتلون في هذا التكتل بالفلاح، مما يدل على أن من في قوله تعالى ولتكن منكم أمة، هي للتبعيض.

فيا أيها المسلم يا عبد الله

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً.

القيادة في الاسلام فردية وليست جماعية

لا تزال البشرية تتخبط في أتون النظم البشرية، فلا تخرج من مستنقع نظرية إلى وقعت فريسة غيرها، وما زال المشرعون من بني البشر يرقعون نظمهم محاولين إخفاء فشلها تحت مسميات لا أصل لها في الواقع، ومن هذه الترقيعات خرافة ما يسمى بالقيادة الجماعية.

انتشرت في أوروبا فكرة الديمقراطية السياسية Political Democracy وهي أن يحكم الناس أنفسهم على أساس من الحرية والمساواة فلا تمييز بين الأفراد بسبب الأصل أو الجنس أو الدين أو اللغة.

ومن هذه الديمقراطيات: الديمقراطية الإدارية Demo Administration للدلالة على القيادة الجماعية التي تتم بالمشورة والمشاركة مع المسؤولين في عملية اتخاذ القرارات.

وانتشرت في روسيا والصين الاشتراكية، وقامت على أساس دولة الحزب الواحد، وحتى يخرجوا من شبهة الحجر على عقول الناس ادعوا بأن قيادتهم قيادة جماعية.

والناظر حقيقة في طبيعة القيادة يرى أنه يستحيل أن تكون القيادة جماعية وإلا لفسدت الحياة ولما استقامت على تحقيق رعاية الشئون.

ورب العالمين سبحانه يشير إلى هذا المعنى بوضوح في غير موضع من القرآن الكريم، فتراه يقول:

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) الأنبياء

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) الاسراء

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) المؤمنون

وقد أشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى هذا المعنى أيضا يوم السقيفة فقال:

أخرج البهيقي عن ابن اسحق في خطبة أبى بكر الصديق رضي الله عنه يومئذ (أي يوم سقيفة بني ساعدة) قال: انه لا يحل أن يكون للمسلمين أميران ، فانه مهما يكن ذلك يختلف أمرهم وأحكامهم ، وتتفرق جماعتهم ، ويتنازعوا فيما بينهم ، وهنالك تترك السنة ، وتظهر البدعة، وتعظم الفتنة ، وليس لأحد ذلك صلاح.

وفي سنن البهيقي باب لا يصلح إماما في عصر واحد قال : وروينا من حديث السقيفة أن الأنصار حين قالوا منا رجل ومنكم رجل قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ: سيفان في غمد واحد إذاً لا يصطلحان .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: إذا بويع لخليفتين فاضربوا عنق الآخر منهما

القيادة والرئاسة والإمارة بمعنى واحد والقائد والرئيس والأمير يحتم الاسلام أن يكون واحدا، في الموضوع الواحد، ولا يجيز أن يكون أكثر من واحد، فالاسلام لا يعرف ما يسمى بالقيادة الجماعية، ولا يعرف الرئاسة الجماعية وإنما القيادة في الاسلام فردية محضة، والدليل على ذلك أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله.

روى أحمد واللفظ له، وأبو داود والبزارعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم"

فالنص في هذا الحديث على أن يكون الأمير واحدا. ففي رواياته وقعت الجمل الثلاث التالية:

إلا أمروا عليهم أحدهم ، فليؤمروا أحدهم، فليؤمروا أحدهم.

وكلمة أحد هي كلمة واحد، وهي تدل على العدد الواحد لا أكثر، ويفهم ذلك من مفهوم المخالفة، ومفهوم المخالفة في العدد والصفة يعمل به بدون نص، مثل قوله تعالى قل هو الله أحد ، أي لا ثاني له، ولا يعطل مفهوم المخالفة إلا إذا ورد نص يلغيه، فإذا لم يرد نص يلغي مفهوم المخالفة فإنه حينئذ يعمل به، مثل قوله تعالى الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة

فالجلد في الآية قيد بعدد مخصوص وهو مائة جلدة، وتقييده بهذا العدد المخصوص يدل على عدم جواز الزيادة على المائة جلدة.

وعلى هذا فإن قول الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث: فليؤمروا احدهم ،، يدل مفهوم المخالفة فيه على أنه لا يجوز أن يؤمروا أكثر من واحد

وأما الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أرسل معاذا وأبا موسى إلى اليمن وقال لهما يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا

فإن الرسول عليه السلام أرسل كل واحد منهما إلى جهة في اليمن وليس إلى مكان واحد فالحديث رواه البخاري بنصين، وفي أحدهما ينص على أنهما أرسلا إلى مكانين حيث قال: حدثنا موسى حدثنا أبو عوانه حدثنا عبد الملك عن أبي بردة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن ، قال وبعث كل واحد منهما إلى مخلاف قال واليمن مخلافان ، ثم قال يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا فانطلق كل واحد منهما إلى عمله.

وعلى ذلك فلا يجوز أن يكون للأمر الواحد رئيسان اثنان ولا للمكان الواحد رئيسان اثنان بل يجب أن يكون الرئيس والقائد والأمير واحدا فقط ويحرم أن يكون أكثر من ذلك. كذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما

ففيم يقتل من ينازع الخليفة على منصبه؟؟ وفيم لو كان من الممكن شرعا أن تكون الخلافة جماعية؟

أما ما تفشى في بلاد المسلمين من إقامة رئاسة جماعية باسم مجلس أو غيره فهو مخالف للحكم الشرعي إلا إذا كانت اللجنه أو المجلس أو الهيئة من أجل حمل الأعباء ومناقشة الأمور والقيام بالشورى فإن ذلك جائز وهو من الاسلام لأن مما يمدح به المسلمون أن أمرهم شورى بينهم ويكون رأيها من حيث الاعتبار على النحو المبين في حكم الشورى

على أن الخليفة وجهاز الدولة الاسلامية يتضمن وجود المعاونين الذين هم الوزراء يعينهم الخليفة معه ليعاونوه في تحمل أعباء الخلافة والقيام بمسئولياتها

فكثرة أعباء الخلافة خاصة كلما كبرت وتوسعت دولة الخلافة ينوء الخليفة بحملها وحده فيحتاج إلى من يعاونه في حملها والقيام بمسئولياتها وتعيينهم من المباحات.

لا شك أن الخلفاء الراشدين اقتدوا بالرسول الأكرم صلى اللّه عليه وسلم في أنه كان أكثر الناس مشاورة كما بينت الأحاديث، ولا شك أننا سنجد الكثير الكثير من المواقف والنصوص التي منها نتبين أن الخليفة نزل على رأي أهل الشورى وعمل بها

ولكن النقطة الحاسمة في البحث هنا هي لمن القرار الأخير: وهل يمكن للخليفة أن يخالف أهل الشورى أو الأغلبية حتى ولو كان القرار خطيرا ويتعلق بهم بل وبدين اللّه تعالى وجودا وعدما في واقع الحياة؟؟ إليكم التفصيل:

روى الإمام ابن كثير في البداية والنهاية (وما رواه موجود بنصه أيضا في معظم كتب التفسير بل وفي كتب الحديث أحيانا):

قال سيف بن عمر: عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: لمَّا بويع أبو بكر وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه، قال: ليتم بعث أسامة وقد ارتدَّت العرب إمَّا عامَّة وإمَّا خاصَّة في كل

قبيلة، ونجم النِّفاق واشرأبَّت اليهودية والنَّصرانية، والمسلمون كالغنم المطيرة في اللَّيلة الشَّاتية لفقد نبيِّهم صلَّى اللّه عليه وسلَّم وقلَّتهم وكثرة عدوِّهم.

فقال له النَّاس: إنَّ هؤلاء جلَّ المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقصت بك، وليس ينبغي لك أن تفرِّق عنك جماعة المسلمين.

فقال: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أنَّ السِّباع تخطَّفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته.

تأملوا: قال له الناس،، وقالوا فيما قالوا: وليس ينبغي لك ان تفرق عنك جماعة المسلمين وكان القرار الفصل له وحده وليس لجماعة ولم ينزل على رأي الناس

تأمل أيضا ما ترويه أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها عن القرارات المتخذة في تلك الفترة:

فمن حديث القاسم وعمرة عن عائشة قالت: لمَّا قبض رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم ارتدَّت العرب قاطبة وأشرأبَّت النِّفاق، واللّه لقد نزل بي ما لو نزل بالجِّبال الرَّاسيات لهاضها، وصار أصحاب محمَّد صلَّى اللّه عليه وسلَّم كأنَّهم معزى مطيَّرة في وحش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة، فواللّه ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بخطلها وعنانها وفصلها

ما اختلفوا: أي الصحابة وكلهم أهل لأخذ الرأي منه والمشورة إلا وكان الفصل لأبي بكر رضي اللّه عنه

وتأمل أيضا هذا النص العظيم مما نقله لنا ابن كثير يرحمه اللّه:

فقيل له: مه يا أبا هريرة. فقال: إنَّ رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم وجَّه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشَّام فلمَّا نزل بذي خشب قُبض رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم وارتدَّت

العرب حول المدينة فاجتمع إليه أصحاب رسول الله فقالوا: يا أبا بكر ردَّ هؤلاء توجَّه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدَّت العرب حول المدينة.

فقال: والذي لا إله غيره لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ما رددت جيشاً وجَّهه رسول الله، ولا حللت لواء عقده رسول الله، فوجَّه أسامة فجعل لا يمرُّ بقبيل يريدون الإرتداد إلا قالوا: لولا أنَّ لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الرُّوم، فلقوا الرُّوم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام

من الذي اجتمع إل أبي بكر؟ أصحاب رسول الله ولمن كان القرار الفصل؟

عن الحسن البصريّ أنَّ أبا بكر لمَّا صمَّم على تجهيز جيش أسامة، قال بعض الأنصار لعمر: قل له فليؤمِّر علينا غير أسامة، فذكر له عمر ذلك، فيقال: أنَّه أخذ بلحيته وقال: ثكلتك أمُّك يا ابن الخطَّاب أؤمِّر غير أمير رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ نهض بنفسه إلى الجُّرف فاستعرض جيش أسامة وأمرهم بالمسير وسار معهم ماشياً وأسامة راكباً وعبد الرحمن بن عوف يقود براحلة الصِّديق.

إذن فعمر رضي الله عنه مندوب لينقل رأي الأغلبية وأصحاب الشأن للخليفة، والقرار الفصل للخليفة وحده،

وأما موقف الردة والمرتدين:

قال ابن كثير: وادَّعى النُّبوة أيضاً كما ادَّعاها مسيلمة الكذَّاب وعظم الخطب، واشتدَّت الحال، ونفذ الصِّديق جيش أسامة فقلَّ الجند عند الصِّديق فطمعت كثير من الأعراب في المدينة، وراموا أن يهجموا عليها فجعل الصِّديق على أنقاب المدينة حراساً يبيتون بالجيوش حولها، فمن أمراء الحرس عليٌّ ابن أبي طالب، والزُّبير بن العوَّام، وطلحة بن عبد الله، وسعد ابن أبي وقَّاص، وعبد الرَّحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود.

وجعلت وفود العرب تقدم المدينة يقرّون بالصّلاة، ويمتنعون من أداء الزَّكاة، ومنهم من امتنع من دفعها إلى الصِّديق، وذكر أنَّ منهم من احتج بقوله تعالى: ((خذ من أموالهم صدقة تطهِّرهم وتزكِّيهم بها وصلِّ عليهم إنَّ صلاتك سكن لهم)).

قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا، وأنشد بعضهم:

أَطَعْنَا رَسُولَ اللّهِ إِذْ كَانَ بيننَا فَواعجَباً ما بالُ مُلْكِ أَبي بَكْر

وقد تكلَّم الصَّحابة مع الصِّديق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزَّكاة ويتألَّفهم حتَّى يتمكَّن الإيمان في قلوبهم، ثمَّ هم بعد ذلك يزكُّون فامتنع الصِّديق من ذلك وأباه.

وقد روى الجماعة في كتبهم سوى ابن ماجه عن أبي هريرة أنَّ عمر بن الخطَّاب قال لأبي بكر: علام تقاتل النَّاس وقد قال رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم: ((أُمرت أن أقاتل النَّاس حتَّى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأنَّ محمَّداً رسول اللّه فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلا بحقها)). فقال أبو بكر: واللّه لو منعوني عناقاً، وفي رواية: عقالاً كانوا يؤدُّونه إلى رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم لأقاتلنَّهم على منعها، إنَّ الزَّكاة حقَّ المال، واللّه لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصَّلاة والزَّكاة. قال عمر: فما هو إلا أن رأيت اللّه قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنَّه الحقّ.

قلت: وقد قال اللّه تعالى: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التَّوبة:٥].

وثبت في الصَّحيحين: ((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأنَّ محمَّداً رسول اللّه، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وحجُّ البيت، وصوم رمضان)).

هكذا يتبنى الخليفة الرأي الشرعي الذي يتوصل إليه علمه واجتهاده ويعمل على تطبيقه حتى لو خالف ما تبناه أو فهمه الآخرون

وقد روى الحافظ ابن عساكر من طريقين عن شبابة ابن سوار، ثنا عيسى بن يزيد المدينيّ، حدَّثني صالح بن كيسان قال: لمَّا كانت الرِّدَّة قام أبو بكر في النَّاس فحمد اللّه وأثنى عليه ثمَّ قال: الحمد للّه الذي هدى فكفى، وأعطى فأغنى، إنَّ اللّه بعث محمَّد صلَّى اللّه عليه وسلَّم والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قد رثَّ حبله، وخلق عهده، وضلَّ أهله منه، ومقت اللّه أهل الكتاب فلا يعطيهم خيراً لخير عندهم، ولا يصرف عنهم شراً لشرٍّ عندهم، قد غيَّروا كتابهم وألحقوا فيه ما ليس منه، والعرب الآمنون يحسبون أنَّهم في منعة من اللّه لا يعبدونه ولا يدعونه، فأجهدهم عيشاً، وأضلَّهم ديناً في ظلف من الأرض مع ما فيه من السَّحاب، فختمهم اللّه بمحمَّد وجعلهم الأمَّة الوسطى، نصرهم بمن اتَّبعهم، ونصرهم على غيرهم حتَّى قبض اللّه نبيَّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم فركب منهم الشَّيطان مركبه الذي أنزله عليه، وأخذ بأيديهم وبغى هلكتهم {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤].

إنَّ من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم ولم يكونوا في دينهم، وإن رجعوا إليه أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا على ما قد تقدَّم من بركة نبيِّكم صلَّى اللّه عليه وسلَّم وقد وكَّلكم إلى المولى الكافي الذي وجده ضالاً فهداه، وعائلاً فأغناه، {وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا} [آل عمران: ١٠٣].

واللّه لا أدع أن أقاتل على أمر اللّه حتى ينجز اللّه وعده ويوفي لنا عهده، ويقتل من قتل منَّا شهيداً من أهل الجنَّة، ويبقى من بقي منها خليفته وذريته في أرضه، قضاء اللّه الحق، وقوله الذي لا خلف له {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ} [النُّور: ٥٥]. ثمَّ نزل.

وقال القاسم بن محمَّد: اجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة الأسدي، وبعثوا وفوداً إلى المدينة، فنزلوا على وجوه النَّاس فأنزلوهم إلا العبَّاس، فحملوا بهم إلى أبي بكر على أن

يقيموا الصَّلاة ولا يؤتوا الزَّكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحقِّ وقال: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم، فردَّهم، فرجعوا إلى عشائرهم فأخبروهم بقلَّة أهل المدينة وطمَّعوهم فيها، فجعل أبو بكر الحرس على أنقاب المدينة، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد، وقال: إنَّ الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلَّة، وإنَّكم لا تدرون ليلاً يأتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، فاستعدُّوا وأعدُّوا فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارةً، وخلَّفوا نصفهم بذي حسى ليكونوا ردءاً لهم، وأرسل الحرس إلى أبي بكر يخبرونه بالغارة، فبعث إليهم أن الزموا مكانكم، وخرج أبو بكر في أهل المسجد على النواضح إليهم فانفشَّ العدوّ واتَّبعهم المسلمون على إبلهم ... الخ

واضح أن أبا بكر رضي الله عنه هو الذي منعهم وكان القرار له وحده وقد حاول بعض الصحابة أن يتألفهم والاسلام والمدينة في ضعف من قلة الرجال والجند والخطر داهم فأبى الخليفة

والمتتبع لسيرة الفاروق عمر رضي الله عنه يرى أن أمر الفتوحات على سبيل المثال كان القرار الفصل فيها له أين يسير المسلمون

كان يعين القادة ويخلعهم رغم كفاءاتهم القتالية

وما تكاد شاردة ولا واردت من خطط الحرب والتحركات - رغم بعد المسافات وصعوبة الحال- إلا ويكون الرجوع فيها لعمر رضي الله عنه

قال ابن كثير رحمه الله:

قال سيف بن عمر: لما ارتحل أبو عبيدة من اليرموك فنزل بالجنود على مرج الصفر وهو عازم على حصار دمشق إذ أتاه الخبر بقدوم مددهم من حمص، وجاءه الخبر بأنه قد اجتمع طائفة كبيرة من الروم بفحل من أرض فلسطين وهو لا يدري بأي الأمرين يبدأ.

فكتب إلى عمر في ذلك، فجاء الجواب: أن ابدأ بدمشق فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، فانهد لها واشغلوا عنكم أهل فحل بخيول تكون تلقاءهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب، وإن فتحت دمشق قبلها فسر أنت ومن معك واستخلف على دمشق، فإذا فتح الله عليكم فحل فسر أنت وخالد إلى حمص واترك عمراً وشرحبيل على الأردن وفلسطين

لما فتح المسلمون فارس وجاءوا بالكنوز إلى عمر رضي الله عنه:

فروينا: أن عمر لما نظر إلى ذلك قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء.

فقال له علي بن أبي طالب: إنك عففت فعففت رعيتك، ولو رتعت لرتعت.

فقال: اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك، وكان أحب إليك مني، وأكرم عليك مني، ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك مني، وأكرم إليك مني، وأعطيتنيه فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي.

ثم بكى حتى رحمه من كان عنده.

والخليفة هو الذي يعين الولاة ويعزلهم وما أمر سيدنا عثمان رضي الله عنه في أمره وعزله منا ببعيد

لما افتتحت إفريقية أمر عثمان عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع ابن عبد القيس أن يسيرا إلى الأندلس فأتياها من قبل البحر وكتب عثمان إلى من انتدب معهما: أما بعد فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس.

فخرجوا ومعهم البربر ففتح الله على المسلمين وزاد في سلطان المسلمين مثل إفريقية.
ولما عزل عثمان عبد الله بن سعد عن إفريقية ترك في عمله عبد الله بن نافع بن عبد القيس فكان عليها ورجع عبد الله إلى مصر وبعث عبد الله إلى عثمان مالًا قد حشد فيه فدخل عمرو على عثمان فقال له: يا عمرو هل تعلم أن تلك اللقاح درت بعدك قال عمرو: إن فصالها قد

هلكت. ومعلوم أن عثمان رضي الله عنه كما كان أبو بكر وعمر وكما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من كان بمنصب رئيس الدولة كان يعين الولاة والقضاة ويعزل وعلى هذا سارت الدولة الاسلامية.

فلا شك أن القيادة في الاسلام فردية، تقوم على الشورى ولكن القرار النهائي والفصل فيها للخليفة وحده ليصلح بهذا حال المسلمين.

والحمد لله رب العالمين

علاقة العالم بالحاكم في الاسلام

الحمد للّه وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى

أصدقك أخي الكريم / أختي الفاضلة أنني إذ كنت أقرأ حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الذي أخرجه أحمد في مسنده، والبيهقي بسند صحيح، عن أبي هريرة رضي اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: « من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحد من السلطان قرباً، إلا ازداد من اللّه بعداً ».

والحديث الذي أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده، والحاكم في تاريخه، وأبو نعيم، والعقيلي، والديلمي، والرافعي في تاريخه، عن أنس بن مالك، رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: « العلماء أمناء الرسل على عباد اللّه ما لم يخالطوا السلطان فإذا خالطوا السلطان، فقد خانوا الرسل فاحذروهم، واعتزلوهم ».

وحديث : «إياكم و أبواب السلطان ؛ فإنه قد أصبح صعبا هبوطا». صحيح الجامع

وغيرها من الأحاديث، كنت أقف مشدوها، فلفظ: « وما ازداد أحد من السلطان قربا إلا ازداد من اللّه بعدا » ، يعم العالم وغيره، وأبواب السلطان لا يلجها أحد إلا أن تكون له به حاجة وإلا فالأمر جلل!!

وكنت أتساءل: إن لم يكن العالم هو الذي يقف إلى جانب الحاكم ينصح له، ويكبح جماحه ساعة الغضب، ويعينه على الاجتهاد، فمن؟ ولمن نترك مجلس السلطان؟ أنتركه لبطانة السوء أم للجهال؟

ظاهر المصلحة التي تظهر من النظرة العجلى للعقول تقول أن الواجب أن يكون العالم هو أول بطانة السلطان!!

لكن الأحاديث هذه وغيرها الكثير تحذر أشد التحذير من ذلك، حتى أن السلف الصالح جعل الولوج إلى باب السلطان بلوى كبيرة يتجنبونها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا:

أخرج البيهقي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: « اتقوا أبواب السلطان ».

وفي « الفردوس » من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً: « أفضل التابعين من أمتي من لا يقرب أبواب السلاطين » .

وأخرج البيهقي، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: « إن على أبواب السلطان فتناً كمبارك الإبل، لا تصيبون من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينكم مثله ».

وأخرج ابن أبي شيبة، عن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه قال: « ألا! لا يمشين رجل منكم شبراً إلى ذي سلطان ».

قال سفيان الثوري: « إن دعوك لتقرأ عليهم: قل هو الله أحد، فلا تأتهم » رواه البيهقي، وروى أبو نعيم في الحلية عن ميمون بن مهران: أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان قدم المدينة، فبعث حاجبه إلى سعيد بن المسيب فقال له: أجب أمير المؤمنين! قال: وما حاجته؟ قال: لتتحدث معه. فقال: لست من حداثه. فرجع الحاجب إليه فأخبره، قال: دعه.

قال البخاري في تاريخه: « سمعت آدم بن أبي إياس يقول :شهدت حماد بن سلمة ودعاه السلطان، فقال: أذهبُ إلى هؤلاء!؟ لا والله لا فعلت ».

وأخرج أبو نعيم، عن أبي صالح الأنطاكي، قال: سمعت ابن المبارك يقول: « من بخل بالعلم ابتلى بثلاث: إما بموت فيذهب علمه، وإما ينسى، وإما يلزم السلطان فيذهب علمه »

وقال الخطيب البغدادي في كتاب رواه مالك: « عن مالك بن أنس رحمه الله، قال: «أدركت بضعة عشر رجلا من التابعين يقولون لا تأتوهم، ولا تأمروهم، يعني السلطان ».

هذا غيض من فيض من مواقف علماء سلف هذه الأمة.

وبقي السؤال: هل ما تبديه نظرة العقول والمصلحة هو الصواب؟ أم أن المصلحة في عين ما بينه الشارع؟

لا شك ان المصلحة لا تكون إلا حيث يكون الشرع!

وأن العقول لا تحيط بدقائق الأمور فتتوهم أشياء يتبين خطؤها بالتدبر في ما أرشد الشرع إليه!

فما هو السر في طبيعة هذه العلاقة بين العالم والحاكم؟

لقد جعل الاسلام العالم والحاكم كقطبي مغناطيس متشابهين، فكلاهما يحمل نفس الشحنة الموجبة، إذ أنهما يعملان على تحقيق نفس الغاية: حراسة تطبيق الشريعة في الأمة الاسلامية! حتى يحيا الناس في المجتمع حياة إسلامية.

فاللّه سبحانه وتعالى يقول: [المص (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ] الأعراف.

كما أنه عز وجل أمر الحكام أن يحكموا به فقال جل من قائل :
[وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)] المائدة

[يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ] (٢٦) ص

[إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً (105)] النساء

وعليه فإن الله قد عدّ الحاكم الذي لا يحكم بالشرع إما أن يكون كافرا أو فاسقا أو ظالما، وتوعده بالحرمان من رائحة الجنة إن غش الرعية في الحكم والرعاية.

وغيرذلك من الآيات التي تبين أن الكتاب والشرع إنما نزل ليحكم بين الناس ليقيم العدل ويحق الحق ويبطل الباطل، وأن الحاكم هو السلطان يحكم بما أنزل الله بهذا تجب طاعته ويحرم الخروج عليه قيد انملة:

روى البخاري رحمه الله عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من كره من أميره شيئا فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية »

قال الحافظ في الفتح: قوله (فإنه من خرج من السلطان) أي من طاعة السلطان ... ، قال ابن أبي جمرة : المراد بالمفارقة السعي في حل عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير ولو بأدنى شيء ، فكني عنها بمقدار الشبر ، لأن الأخذ في ذلك يئول إلى سفك الدماء بغير حق . انتهى

وفي حديث إسناده صحيح لما خرج أبو ذر إلى الربذة لقيه ركب من أهل العراق فقالوا : يا أبا ذر قد بلغنا الذي صنع بك فاعقد لواء يأتيك رجال ما شئت قال : مهلا مهلا يا أهل الإسلام فإني سمعت رسول الله يقول : « سيكون بعدي سلطان فأعزوه من التمس ذلة ثغر ثغرة في الإسلام و لم يقبل منه توبة حتى يعيدها كما كانت ».

فهذا مكان السلطان العالي المحفوظ في الاسلام إذ أنه حارس يعمل على تطبيق الاسلام، وللكلمة في مجلسه مكانة عظيمة:

روى البخاري في كتاب الرقاق عن أبي هريرة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق ».

قال الحافظ في الفتح: قال ابن عبد البر : الكلمة التي يهوي صاحبها بسببها في النار هي التي يقولها عند السلطان الجائر ، وزاد ابن بطال : بالبغي أو بالسعي على المسلم فتكون سببا لهلاكه وإن لم يرد القائل ذلك لكنها ربما أدت إلى ذلك فيكتب على القائل إثمها ، والكلمة

التي ترفع بها الدرجات ويكتب بها الرضوان هي التي يدفع بها عن المسلم مظلمة أو يفرج بها عنه كربة أو ينصر بها مظلوما . وقال غيره في الأولى : هي الكلمة عند ذي السلطان يرضيه بها فيما يسخط الله ، قال ابن التين : هذا هو الغالب. انتهى

وأما العالم فمكانته عالية أيضا سامقة استفاضت الأحاديث والآثار تبين علو منزلته.

قال صلى الله عليه وسلم: «من سلك طريقا يطلب فيه علما، سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر » صحيح أبي داود

وقد أمر الله المسلمين أن يحتكموا إلى الشرع في كل صغيرة وكبيرة ، فالشرع قوام حياة المجتمع

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ] (٢٤) الأنفال

والمسلمون أمرهم الشرع بأن يحتكموا في كل شؤون حياتهم إلى الكتاب والسنة ، مما قل أو كثر فقال تعالى في سياق التحذير:

[فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً (٦٥)] النساء

كما قال أيضا: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً (٦٠)

وإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إلَى مَا أنزَلَ اللّهُ وَإلَى الرَّسُولِ رَأيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً (٦١)] النساء

فالاحتكام إلى الشرع حياة للأمة [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الألْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (١٧٩) البقرة والاحتكام إلى الشرع أساس السلطان، وعليه مدار الحكم ومن أجله نزل الكتاب وشرع الدين، ويتوقف عليه الايمان والكفر للحاكم وللرعية حسب ما بين الفقهاء من أحكام.

فالعالم والحاكم قطبا مغناطيس متماثلي الشحنة لا يجتمعان إلا حصل التنافر ففيم؟

لا شك أن الأمة تتكون من كيانين : كيان تنفيذي ممثل بالحاكم وبطانته وجهاز الحكم في دولته والجيش الذي يعمل على حماية تطبيق الاسلام ونشره في العالم، فهذا الكيان يسهر على تطبيق الاسلام وبيده القوة التي وصفها سيدنا عثمان رضي الله عنه بقوله: يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

والكيان الثاني هو كيان الأمة المجتمعي، وهذا لا بد له من قيادة تقوده، ولا بد له من ساهر على وعيه وثقافته ، وحارس يبين له أي جنوح عن تطبيق الاسلام ممن بيدهم القوة، أو من مؤامرات تحاك ضدهم من قبل أولي الأمر أو أعدائهم وهذه القيادة لا تتمثل إلا بالعلماء!!

خاصة والاسلام يدرك ان الدولة الاسلامية دولة بشرية تتراوح في قوة تطبيقها للاسلام بين خلافة راشدة وبين ملك عاض!

وأن المسلمين قد يغفلوا عن حماية الاسلام فتضيع الدولة فيقعوا بين فك ملك جبرية تهلكهم!

من هنا فالحاكم هو قائد الكيان التنفيذي يسهر من مكانه على تطبيق الاسلام وحراسته، وبيده القوة التي يزع بها الله من لم يزعه القرآن، ولكنه بشر يصيب ويخطئ.

والعلماء هم قادة الكيان المجتمعي يسهرون على تطبيق الاسلام وأهم أعمالهم المحاسبة!!

فما هي الصورة التي ستنشأ لو جعل العالم والحاكم في سلة واحدة؟

سينضم العالم إلى الكيان التنفيذي ، إن لم يكن بصفة رسمية كأن يشغل منصبا في الدولة فيأكل من مائدة السلطان فلا ينكر عليه بعدها كثيرا مما يظنه صغائر، أو بأن يغرق مع الحاكم في شئون تصريف الحكم فيأخذ في إيجاد المعاذير للحاكم الواحد بعد الآخر على إساءة التطبيق بحجج يعايشها إذ يكون في حضرة مجلس الحكم بشكل مستمر حتى يدب الوهن في هيكل الكيان التنفيذي من شدة بعده عن تطبيق الاسلام!

فمن ضرائب تفرض على الرعية لسداد عجز أو قضاء مصالح، كان بالامكان الاستعاضة عنها بمصادر أخرى، كان وجود العالم في وسط الناس مشعرا له بحاجاتهم ودافعا لقيادتهم حتى لا يقع الظلم عليهم، ولنا في قصة العز بن عبد السلام رحمه الله عبرة إذ أراد المماليك فرض ضريبة إضافية من أجل تجهيز الجيش لتحرير بلاد المسلمين من التتار فأمر أن تباع القصور وما فيها من حلي ومتاع حتى إذا لم تكف الأموال فرضت الضريبة على الناس.

فالدور الذي أناطه الشارع إذن بالعالم أن يكون قائدا للكيان المجتمعي ليحرس بقوة الرعية الهائلة الشريعةَ من أن يعبث بها القائمون على الأمر وقوتهم بأيديهم!

لا شك أن الأمة هي القوة الهائلة التي توقف السلطان وتردعه عن أن يبتعد عن تطبيق الاسلام قيد شعرة!

وأن هذه الأمة بحاجة دوما لمن يبين لها مثل هذه المخالفات، فيرفع من مستوى وعيها ويبين لها شرعا الموقف الصحيح الذي عليها أن تتخذه في كل ظرف، وبالتالي يقف سدا منيعا إذا ما حادت الدولة عن تطبيق الشرع أو أساءت تطبيقه !

«خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم. ويصلون عليكم وتصلون عليهم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم قيل: يا رسول الله! أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال لا. ما أقاموا فيكم الصلاة .وإذا رأيتم من ولا تكم شيئا تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدا من طاعة» .

فالأمة إذن الحارس على تطبيق الشرع، تنابذ من عطله بالسيف

وفي حديث معاوية رضي الله عنه: « إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين » .

فطالما أن الحكام يقيمون الدين لا يجوز معاداتهم، ومن مفهوم المخالفة أنهم إن لم يقيموا الدين يعاديهم الكيان المجتمعي في الأمة ليعيدهم إلى جادة الصواب! أو يخلعهم!

ولمسلم في كتاب الإمارة عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ سَمِعْتُ جَدَّتِي تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يَقُولُ « وَلَوْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا »

وفي حديث آخر له في الباب نفسه عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ »

وللإمام أحمد في مسنده : قَالَ عَمْرُو بْنُ زُنَيْبٍ الْعَنْبَرِيُّ إِنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ أَنَّ مُعَاذًا قَالَ « يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ لَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِكَ وَلَا يَأْخُذُونَ بِأَمْرِكَ فَمَا تَأْمُرُ فِي أَمْرِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا طَاعَةَ لِمَنْ لَمْ يُطِعْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»

كما أن الشرع جعل في ذمة المسلمين أن ينصحوا لولاة الأمر ليقوموا اعوجاجهم:

فعن جرير بن عبد الله قال: « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » متفق عليه

ومثله حديث تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : «الدين النصيحة، قالها له ثلاثا، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». رواه البخاري ومسلم، واللفظ له.

ولنا في بيعة العقبة الثانية مثال على العهد الذي أعطي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد بايعه المسلمون وأعطوه العهد على قول الحق فقد قالوا في نص البيعة ما نصه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلاّ أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم» ، رواه البخاري ومسلم

فهذه البيعة التي أعطيت للرسول - عليه السلام – تعد ميثاقا بينه وبين من بايعوه بصفته حاكما، وفيها نص يبين الحكم الشرعي المتعلق بذمة المسلمين ألا وهو قولهم للحق أينما كانوا لا يخافون في الله لومة لائم.

جاء في الجامع لأحكام القرآن: قال ابن إسحاق: تحامل الوليد بن عتبة على الحسين بن علي في مال له - لسلطان الوليد؛ فإنه كان أميرا على المدينة - فقال له الحسين: أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن بسيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعون بحلف الفضول.

قال عبدالله بن الزبير: وأنا أحلف بالله لئن دعاني لآخذن بسيفي ثم لأقومن معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعا؛ وبلغت المسور بن مخرمة فقال مثل ذلك؛ وبلغت عبدالرحمن بن عثمان بن عبيدالله التيمي فقال مثل ذلك؛ فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه.

وهكذا فالعلماء قادة الكيان المجتمعي لإحقاق الحق إن بغى الحاكم وجار.

وعندما أراد معاوية بن أبي سفيان أن يأخذ البيعة لابنه يزيدا علم أن قادة المجتمع هم الحسين بن علي رضي الله عنه والعبادلة فكان جل همه أن يأخذ بيعتهم أو أن يكرههم عليها، وهم الذين وقفوا في وجهه سدا منيعا حتى غلبهم بالسلطان، فقاموا بإشعال الثورة من أجل إعادة الحق للأمة الذي انتزعه منها يزيد.

وفي العراق كان ابن الأشعث وسعيد بن جبير وطائفة من العلماء قادة الأمة في تحركها ضد طغيان الحجاج والحكام الظلمة!

عن أبي قبيل قال خطبنا معاوية في يوم جمعة فقال: إنّما المال مالنا والفيء فيئنا من شئنا أعطيناه، ومن شئنا منعناه. فلم يرد عليه أحد، فلما كانت الجمعة الثالثة فقام إليه رجل ممن شهد المسجد فقال: كلا بل المال مالنا، والفيء فيئنا، من حال بيننا وبينه حاكمناه بأسيافنا، فلما صلى أمر بالرجل فأدخل عليه، فأجلسه معه على السرير، ثم أذن للناس فدخلوا عليه ثم قال: أيها الناس إني تكلمت في أول جمعة، فلم يرد علي أحد، وفي الثانية فلم يرد علي أحد، فلما كانت الثالثة أحياني هذا أحياه الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : « سيأتي قوم يتكلمون فلا يرد عليهم، يتقاحمون في النار تقاحم القردة » فخشيت أن يجعلني الله منهم، فلما رد هذا علي أحياني أحياه الله ، ورجوت أن لا يجعلني الله منهم .

كما جاء في ذلك آثار كثيرة عن الخلفاء الراشدين وبقية الصحابة منها: خطبة أبي بكر، رضي الله عنه، عند توليه الخلافة ،: لما ولي أبو بكر خطب الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: (أما بعد، أيها الناس: قد وليت عليكم، ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن، وسن النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ...) إلى أن قال: (أيها الناس: إنّما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني).

وأخرج الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق في ترجمة بشير بن سعد ـ رضى الله عنه ـ من عدة طرق يقوي بعضها بعضاً ,أثراً عن عمر بن الخطاب، منها التالي: عن ابن شهاب،

حدثني محمد بن النعمان أن النعمان بن بشير أخبره: "أن عمر بن الخطاب قال في مجلس، وحوله المهاجرون والأنصار: أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين؟ فقال ذلك مرتين، أو ثلاثاً: أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين؟ فقال بشير بن سعد: لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح. فقال عمر: أنتم إذاً أنتم."

كما أن الرسول عليه السلام شدد في ضرورة قول كلمة الحق عند الحكام مهما كان الثمن:

فعن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

وعن أبي أمامة قال: «عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجل عند الجمرة الأولى فقال: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ فسكت عنه، فلما رمى الجمرة الثانية سأله، فسكت عنه، فلما رمى جمرة العقبة ووضع رجله في الغرز ليركب قال: أين السائل؟ فقال: أنا يا رسول الله، قال: «كلمة حق تقال عند سلطان جائر»

فهذا نص في الحاكم ووجوب قول الحق عنده، ووجوب محاسبته، وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على مكافحة الحكام الظلمة مهما حصل في سبيل ذلك من أذى ، وحتى إن أدى ذلك إلى مقاتلتهم .

فقد رُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»

وهذا من أبلغ الصيغ في التعبير عن الحث على تحمل الأذى حتى الموت في سبيل محاسبة الحكام، ومكافحتهم إذا ظلموا.

فقد عد رسول الله صلى الله عليه وسلم محاسبة الحكام وقول كلمة الحق لديهم أفضل الجهاد، واعتبر عليه الصلاة والسلام أن من يقتل لقول كلمة الحق فإنه في مرتبة سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، وهذا يبين لنا مكانة محاسبة الحكام من الفكر الإسلامي.

فمحاسبة الحاكم إذنً فرض على المسلمين، ولا يجوز أن توجد في ذلك أدنى شبهة بعد الأدلة القطعية آنفة الذكر، من القرآن والسنة المتواترة، التي يكفر منكرها .فالمحاسبة واجبة قطعاً ولو أدى ذلك إلى القتال، لأن الإسلام دعا إلى حمل السلاح دفاعاً عن سيادة الشرع في الحياة السياسية، أي لمنع ظهور الكفر البواح، وتحول الدار إلى دار كفر. فجهاد الحكام الظلمة ليكفوا عن ظلمهم واجب، بل إن« أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » لأن الجور ظلم حرمه الشرع، وكل حرام يزال، ولا يسكت عنه، خصوصاً إذا كان هذا الحرام هو إظهار الكفر البواح، باستبدال الشريعة الإسلامية بغيرها من شرائع الكفر، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وتولي الكفار وقتال المسلمين تحت رايتهم، أي راية الكفر ، كما فعل ويفعل حكام المسلمين اليوم.

ومن سيقود الأمة في عملية المحاسبة هذه إلا العلماء؟

من هنا وجب على العلماء دوما أن يكونوا قادة الأمة وعينها الساهرة وموقد فتيل الوعي في كيانها، وإلا فإن الأمة إن لم تكن على درجة الوعي اللازمة فإما أنها لا تدرك التجاوزات التي تخرج عن الاسلام وتستوجب الخروج على الحكام، أو أنها يقودها الدهماء والغوغاء فيثوروا من أجل معروف ظنوه منكرا، أو يخرجوا بالسلاح ولما يظهر الكفر البواح، مما يودي بالمجتمع إلى دركات الفتنة ،فكان الحاجز الصلب الواقف في وجه هذا التدهور هم العلماء .

وأيضا فإن الشارع بين مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفكر الاسلامي في آيات وأحاديث أكثر من أن تحصى:

[لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون]

وهل بعد هذا من تشديد فعلة استحقاقهم اللعنة تركهم النهي عن المنكر . وقال عز وجل : [فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون] فالناهي عن السوء هو الناجي، ومن لم ينه أخذه العذاب البئيس.

روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها : « أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها [يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم] وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول« ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»»

على أن رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو محاسبة الحكام،، فالمعاصي لا تفعل في قوم يزعهم سلطانهم بوازع الإسلام،، وإنما يتمرد أهل الباطل بباطلهم لما يروا سكوت السلطان عليهم وعدم أخذه على أيديهم بالقوة :

وحينها إن سكتت الأمة ولم يكن لعلمائها الدور الأكبر في التحريض على دفع المنكر وإنكاره حتى يتغير ويزول، فستعم البلوى ويقع المحظور.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»

معناه تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم،، وهذه أول عواقب نكوص الأمة عن أداء واجب محاسبة السلطان، إذ يتسلط شرار الخلق على المسلمين يسومونهم سوء العذاب يسرقون أموالهم وما من رادع،، يستخفون القوم فيطيعونهم ولا ينكرون عليهم.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، فإذا عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم » ". قالوا: يا رسول الله، كيف نصنع؟ قال: «كما صنع أصحاب عيسى بن

مريم، نُشّروا بالمناشير، وحمّلوا على الخُشب، لموت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله».

وأمتنا هي خير أمة أخرجت للناس بهذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي لا تسكت على ضيم الظالم وظلمه، ولا يقف بينها وبين تغيير المنكر شيء حتى ولو نشرت بالمناشير وحملت على الخشب وصُلّبت ومُزّقت كل ممزق.

قال النبي صلى الله عليه وسلم«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » (صحيح الترمذي)

فهذا الأمر إذن يترتب على تركه عقوبات جسام، وعذاب عام من الله يعم الجميع ، حتى وإن دعوا الله ليكشفه عنهم لا يستجاب لهم :

عن عدي بن عميرة أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الخاصّة والعامّة » (أخرجه أحمد)

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه، ولا يغيرون، إلاّ أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا » . رواه أبو داود، ورواه ابن ماجة، وابن حبان في صحيحه،

«يا معشر المهاجرين : خمس إذا ابتليتم بهن، و أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون و الأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، و لم ينقصوا المكيال و الميزان إلا أخذوا بالسنين و شدة المؤنة و جور السلطان عليهم، و لم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، و لولا البهائم لم يمطروا، و لم ينقضوا عهد الله و عهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا

بعض مافي أيديهم، و ما لم تحكم أئمتهم بكتاب اللّه، و يتخيروا ما أنزل اللّه، إلا جعل اللّه بأسهم بينهم.» السلسلة الصحيحة للألباني

وغني عن القول التذكير بحديث الرسول عليه السلام، من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان.

ففرض عين على من يرى المنكر أن يغيره بيده إن استطاع فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وليس بعد ذلك حبة خردل من إيمان!!

وهذا يدلك على الارتباط الوثيق بين الأفكار الاسلامية المتغلغلة في النفوس وبين أن تؤثر في السلوك فيغضب المسلم لحرمات اللّه إذ تنتهك ويضع روحه على كفه طلبا لمرضاة اللّه حتى لو أسخط الحكام فنشروه بالمناشير.

فبحسب قدر الإيمان وقوته يكون العزم على التغيير وإنكار المنكر، وكلما خبت جذوة الإيمان في النفوس ، كلما تمادت في التذرع بما لا يعينها على تغيير المنكر فتنتقل إلى المرحلة التي تلي ثم التي تلي حتى يوازي فعلها في إنكار المنكر فعل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان

فالمؤمن القوي بإيمانه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأقلام قد رفعت وأن الصحف قد جفت، ويعلم أن قول الحق فرض عليه لا يؤخر رزقا ولا يقدم أجلا ، ويعلم أن اللّه تعالى أحق أن يخشاه،، فتصغر الخلائق في نظره حتى لا تساوي بعوضة ، فعلام إذن يعطي الدنية في دينه؟؟

فالقضية إذن مرتبطة بالإيمان ارتباطا وثيقا،، وتتناسب معه قوة وضعفا!!
حَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ أَنْبَأَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالًا ثُمَّ لَا يَقُولُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِيهِ فَيَقُولُ رَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ فَيَقُولُ وَأَنَا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى»

حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ حَدَّثَنَا هِشَامٌ يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بْنِ هَانِئٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عُثْمَانَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ « دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ أَنْ قَدْ حَفَزَهُ شَيْءٌ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ خَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا فَدَنَوْتُ مِنْ الْحُجُرَاتِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْعُونِي فَلَا أُجِيبُكُمْ وَتَسْأَلُونِي فَلَا أُعْطِيكُمْ وَتَسْتَنْصِرُونِي فَلَا أَنْصُرُكُمْ»

وقال ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما بعث الله عز وجل نبياً إلا وله حوارى فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله تعالى يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيهم فإذا انقرضوا كان من بعدهم قوم يركبون رؤوس المنابر يقولون ما يعرفون ويعملون ما ينكرون فإذا رأيتم ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وليس وراء ذلك إسلاماً ».

بعد هذا التفصيل لدور الأمة في محاسبة الحكام نلج إلى مسألة أخرى مهمة تتعلق بعلاقة العالم والحاكم ألا وهي: إن فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية وإنما كان أولى الناس به العلماء لعلمهم بالمعاريف والمناكير، حتى لا يأمرنْ آمرٌ بمنكر ظنا منه أنه معروف أو أن ينهى عن معروف ظنا منه أنه منكر، أو أن يشتبه عليه أمر فيه خلاف فقهي يسع فاعله فيثور في غير موضع حق.

قال البيضاوي في تفسيره: [وَلْتَكُن مّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ] من للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له كل أحد إذ للمتصدي له شروط لا يشترط فيها جميع الأمة كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها. خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً ولكن يسقط بفعل

بعضهم، وهكذا كل ما هو فرض كفاية. أو للتبيين بمعنى وكونوا أمة يدعون كقوله تعالى: [كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ]

[ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون] قد مضى القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه السورة. و{من} في قوله {منكم} للتبعيض، ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء. وقيل: لبيان الجنس، والمعنى لتكونوا كلكم كذلك.

قلت: القول الأول أصح؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عينهم اللّه تعالى بقوله [الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة] [الحج:٤١] الآية. وليس كل الناس مكنوا.

وقال في صبح الأعشى: [ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون].

هذا أمر يشتمل على معنى الخصوص دون العموم ولايختص به إلا ذوو الأوامر المطاعة أو ذوو العلوم وقد منحنا اللّه هذين الوصفين كليهما وجعلنا من المستخلفين عليهما.

قال الزمخشري في الكشاف: [ولتكن منكم أمةٌ] من للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر .

فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً أو على من الإنكار عليه عبث كالإنكار على أصحاب المآصر والجلادين وأضرابهم. انتهى

فكما ترى الواجب أن يقود عملية التغيير هذه العلماء، من هنا قلنا أن العلماء إنما يكونون قادة الكيان المجتمعي ووظيفتهم حراسة تطبيق الشرع في الأمة حتى تحيا الأمة حياة إسلامية .

وكما ترى أن الأمر متعلق أشد التعلق بالحكم والحكام وممارسة رعاية شئون الأمة وفق أحكام الاسلام وهو ما يسمى في الفقه الاسلامي السياسة الشرعية، فدور العلماء إذن أن يكونوا ساسة في الأمة من باب محاسبة الحكام، ومن باب السهر على الأمة حتى لا تحكم بغير الاسلام أو لا تقع فريسة تآمر المتآمرين.

وقد علمنا التاريخ أن العلماء لا يقومون بهذا الواجب إلا من خلال الأحزاب السياسية.

فكم من عالم بلغ شأوا عاليا في العلم ضاع علمه في بطون الكتب تعلوه طبقات من الغبار أو رمي في البحر إبان غزو التتار!!

فلولا أن كان لأبي حنيفة وللشافعي ولمالك ولأحمد ولجعفر فرقا وأنصارا حملوا فكرهم ودافعوا عنه، لولاه لاندثر فقههم ولم ينتقع منه إلا القلة القليلة من الباحثين.

وها نحن نرى عالما كبيرا كالدكتور محمد محمد حسين رحمه الله على ما آتاه الله من العلم والحكمة والفهم الدقيق لا يسمع به أكثر أهل الأرض اليوم ، ولو أنه أنشأ لفكره حزبا سياسيا لما قل شأوه عن بعض الأحزاب العاملة المخلصة.

على أن القرآن الكريم أيضا لم يترك الأمر للعلماء يقومون به من غير آلية توضح لهم كيف يقودوا الأمة القيادة الحقيقية التي توصل للهدف المنشود:

فقد أمر رب العالمين في الآية السابقة بأن يقوم العلماء بدورهم هذا من خلال الأحزاب السياسية

قال تعالى: [وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ]

فقد انصب الأمر على أن يقيم المسلمون أمة أي جماعة تعمل على الدعوة إلى الخير أي إلى الاسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أكثر من انصباب الأمر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: [ولتكن منكم أمة]

فالأمر منصب على إيجاد هذه الأمة

وقد بينا من أقوال العلماء والمفسرين في الآية أن من للتبعيض وأن أمة معناها جماعة متكتلة أي حزبا، وأن العلماء هم أصلح من يقوم بهذه المهمة، وهي مهمة سياسية ودورها جله سياسي، من هنا فعلى العلماء أن يقوموا بالعمل على قيادة الأمة والتغيير على الحكام أو العمل على الاصلاح من خلال الأحزاب السياسية.

فكما ترى أن مكان العلماء الصحيح ليس قصر الحاكم وأن يكونوا من بطانته

بل مكانهم الصحيح هو الأحزاب السياسية التي تنطلق من المسجد لتبين للناس ما غفلوا عنه وتنشر الوعي الصحيح في الأمة وتحرس الاسلام وتطبيقه.

أخرج أبو الحسن بن فهر في كتاب « فضائل مالك »، عن عبد اللّه بن رافع وغيره قال : قدم هارون الرشيد المدينة، فوجه البرمكي إلى مالك، وقال له: احمل إليّ الكتاب الذي صنفته حتى أسمعه منك ». فقال للبرمكي: « أقرئه السلام وقل له: إن العلم يزار ولا يزور » فرجع البرمكي إلى هارون الرشيد، فقال له: يا أمير المؤمنين! يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك في أمر فخالفك! أعزم عليه حتى يأتيك. فأرسل إليه فقال: قل له يا أمير المؤمنين لا تكن أول من وضع العلم فيضيعك اللّه .

وروى غنجار في تاريخه عن ابن منير: أن سلطان بخاري، بعث إلى محمد بن إسماعيل البخاري يقول: احمل إليّ كتاب « الجامع » و « التاريخ » لأسمع منك. فقال البخاري لرسوله: « قل له أنا لا أذل العلم، ولا آتي أبواب السلاطين فإن كانت لك حاجة إلى شيء منه، فلتحضرني في مسجدي أو في داري ».

ومتى ما كان العلماء على أبواب السلاطين فالأمة في شر أي شر

ومتى ما كان السلاطين على أبواب العلماء فالأمة في خير.

أيها المسلمون الكرام

إننا نرى الشر العظيم الذي أصاب أمتنا منذ أن غاب عن ذهن كثير من علمائها الدور الذي أناطه بهم الشارع، فترامو في أحضان الحكام يحلون لهم الحرام ويحرمون على المسلمين الحلال إرضاء للحكام، ومنهم من لم يصل به الحال إلى بيع دينه بعرض من الدنيا ولكنه أصبح محتوى في كيان الدولة التنفيذي، يتكلم بلسان حال السلطان ويعرض عن قيادة الأمة ناسيا أن الشرع غائب عن كل صغيرة وكبيرة في الحياة، فاشتراه الحاكم بثمن بخس دراهم معدودة.

ومنهم من ظن الاسلام أحكام حيض ونفاس وزواج وطلاق، فلم يتعدى دوره أن يفتي للناس في هذه الأمور.

ومنهم من حجّم دوره بالدعوة لمكارم الأخلاق، وحضور الجماعات، والزيادة في العبادات، ناسيا أن العمل الذي أناطه به الشارع هو حراسة تطبيق الاسلام في الحياة حتى لا يحيا الناس حياة جاهلية، وأن صلاح السلطان ونظامه هو الكفيل بصلاح الأخلاق والعبادات وعمران المساجد.

قال الحبيب المصطفى عليه السلام: «إن اللّه لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء فإذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا ».

اتخذ الناس رؤوسا جهالا، هكذا نفهم أن على العلماء أن يكونوا هم الرءوس المفكرة القائدة للأمة لا أن يتركوها للجهال يسيرون دفة مركبها.

أخي المسلم / أختي المسلمة:

لا ينكر عاقل الحال الذي وصلته الأمة

فمن الملاحظ في هذه الأيام أن الأمة منفصلة انفصالاً تاماً عن الدولة، أي عن الحكام وأن العلاقة بين جمهرة الناس والحكام علاقة بين فئتين متباينتين لا علاقة بين رعايا ودولة، وفضلاً عن ذلك فإن هذه العلاقة فوق كونها علاقة بين فئتين متباينتين هي علاقة كراهية وتضادد وتناقض ليس فيها أي تقارب ولا ما يشعر بإمكانية وجود تقارب في المستقبل، وهذا هو الذي يضعف كيان الأمة ويضعف الدولة، فأية دولة هذه التي يكيد حاكمها لشعبه ويبغض الشعب الحاكم، ويراه كابوسا جاثما على صدره ؟

فالرعية بدون وجود راع منها تكون واهية البنيان، والدولة بدون وجود رعية تقف صفاً واحداً خلفها تكون واهية الوجود يمكن إزالتها بأقل جهد، وتكون عرضة للاستعانة بأعداء الأمة، وهذا هو الواقع الملموس المحسوس في حياة المسلمين اليوم.

إن هذا الانفصال بين الأمة والدولة كان طبيعياً ، يوم كانت الدولة الكافرة تحكم البلاد مباشرة، يوم كان الانتداب البريطاني والفرنسي هو المهيمن على البلاد، ولكن بعد أن أزيل سلطان الإنجليز رسمياً وأصبح حكام البلاد يباشرون الحكم، وهم مسلمون ومن أبناء الأمة ، فإنه لم يعد هناك مبرر لبقاء هذا الانفصال، وكان يجب أن تتحول العلاقات بين جمهرة الناس وبين الدولة إلى علاقة رعية وراع، وإلى التحام بين الراعي والرعية. غير أن واقع هذا الانفصال

قد بقي ولا يزال باقياً، وظل الحكام فئة والأمة فئة أخرى، وظلت إحدى الفئتين مضادة للأخرى، الأمة تنظر إلى الحكام بأنهم أعداؤها كما كانت تنظر للإنجليز والفرنسيين , بل ربما شعرت بظلمهم أكثر من ظلم المحتل الكافر، والحكام ينظرون إلى الأمة بأنها تتآمر عليهم وتود أن تفتك بهم وأنها عدوة لهم، فهم يكيدون لها وهي تكيد لهم، وهذا ما يجعل الأمة في حالة يأس من أن تتقدم خطوة واحدة نحو العزة والرفاهية، ويجعل تفكير الحكام محصوراً بما يبقيهم على كراسي الحكم ولو بالاستعانة بالأجنبي، ويجعلهم لا يفكرون برفع الأمة إلاّ نفاقاً وبأساليب تبعد الأمة عن الرقي، وتجعلها دائماً في حالة ضعف حتى يظلوا مسيطرين عليها. إن هذه الحالة من الانفصال بين الأمة والدولة هي نتيجة حتمية لعدم قيام الأمة بما فرضه اللّه عليها من محاسبة الحكام، وعدم شعورها بأنها هي مصدر السلطان، فلو كانت تشعر بأنها مصدر السلطان وتقوم بما فرضه اللّه عليها من محاسبة الحكام، لما تولاها حاكم خائن عدو لها، ولما كان بينها وبين الحكام هذا الانفصال ولما كانت في هذا الضعف، و هذا التفكك، والتأخر، ولما ظلت تحت نفوذ الكفار فعلاً وإن كان الذي يحكمها حكماً مباشراً هو من أبنائها.

لذلك كان لا بد للامة حتى تكون كياناً واحداً هي والحكام ، وفي فئة واحدة هي والدولة ، كان لا بد لها أن تقوم بواجب محاسبة الحكام، وأن تقول كلمة الحق في وجه الحكام، وأن تعمل بقوة وبجد للتغيير على الحكام أو تغييرهم، وما لم تبادر إلى ذلك فإنها ولا شك ستظل تنحدر بسرعة إلى أن تشرف على الفناء.

إن الإسلام جعل محاسبة الحكام فرضاً على المسلمين، وأمرهم بقول الحق أينما كانوا لا تأخذهم في اللّه لومة لائم .

فكفاح الحكام على الظلم الذي نراه منهم اليوم، ومحاسبتهم على أعمالهم ، وعلى خياناتهم وتآمرهم على الأمة فرض فرضه اللّه علينا يا معشر المسلمين. والقيام بهذا الفرض هو الذي يزيل الفواصل الموجودة بين الأمة والحكام. وهو الذي يجعل الأمة والحكام كلهم فئة واحدة وكتلة واحدة، وهو الذي يضمن التغيير على الحكام، ويضمن

كذلك تغييرهم إن لم يكن التغيير عليهم. وهو أول طريق النهضة، فالنهضة لا يمكن أن تتأتى إلاّ عن طريق الحكم حين يقام على عقيدة الإسلام، ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بإيجاد الحكم على العقيدة الإسلامية، وإيجاد الحكم على هذا الأساس، لا سبيل إليه إلاّ بكفاح الحكام الظلمة وبمحاسبتهم

وإن أخطر من يقوم بهذا الدور العلماء ومتى ما قادوا الأمة لتحاسب الحكام وتأخذ على يد الظالم منهم، وتغير عليهم أو تغيرهم إن لم يعيدوا الاسلام لواقع الحياة في كل شأن من شئونهم، فلن ترقى الأمة ولن يحصل صلاح لها في دنياها ولا عاقبة أمرها.

ولن يتمكن العلماء من أداء هذا الدور إلا إن عملوا من خلال الأحزاب السياسية التي تعمل على إيجاد الوعي العام لدى الأمة فتلمس مكمن الداء وهو عدم الثقة بأحكام الاسلام أن تطبق، ويسقوا الأمة الدواء ويتسلموا قيادتها بعد أن يكسبوا ثقتها

وكسب الثقة يبدأ بابتعادهم عن قصور الحكام ليقودوا كيان الأمة المجتمعي ويبصروا الأمة بالطاقة الهائلة الكامنة فيها، تلك التي لم تستطع أمة في الأرض أن تهزمها على مدى التاريخ، وأنى لأمة أن تهزم الأمة الاسلامية وهي حاملة لواء العقيدة الحقة الربانية السياسية؟

وختاما أقول: إن موضوع العلاقة بين العلماء والحكام من أخطر المواضيع التي على الأمة أن تدرسها حتى تدرك واجبها في الانصياع تحت إمرة علمائها في صفوف الأحزاب السياسية التي تعمل على التغيير

أيها المسلمون: حكامكم دعاة على أبواب جهنم فلا تجيبوهم!

أيها المسلمون: اعتزلوا أنظمة الحكم في بلادكم ولو أن تعضوا على جذع شجرة!

اعتزال الحكام وأنظمتهم أم اعتزال الأحزاب؟

يكثر الترويج هذه الأيام على لسان مفتي السلطان وأجهزة إعلامه أن لا أحزاب في الاسلام، وأن على المسلمين أن يتجنبوا الأحزاب ويعتزلوها، ومنهم من يتمادى فيسول لمستمعيه أن حكام المسلمين اليوم هم أولي أمرهم وطاعتهم واجبة .

لقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضوابط تعيننا على فهم الواقع واتخاذ الموقف الصواب حياله.

روى الإمام أحمد في أول مسند الكوفيين "عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ فَقَالَ يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأُمَرَاءِ فَقَالَ حُذَيْفَةُ أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ.

لا شك أن نظام الحكم في الاسلام هو نظام الخلافة، ذاك الذي تضافرت الأدلة من كتاب وسنة وإجماع صحابة على أنه النظام الوحيد للحكم في الاسلام.

ولا شك أن الدولة الاسلامية دولة بشرية، يطبق الاسلام فيها بشر عرضة للخطأ والصواب، من أجل هذا شرع الاسلام أحكام النصح للحكام والمحاسبة والخروج عليهم والأخذ على يد الظالم وأطره على الحق أطرا.

وفي الوقت نفسه جعل للحاكم سلطانا إن حكم بالشرع ينبغي للمؤمن أن يرفعه بالتزام طاعته، والحرص على وحدته، ومنابذة من يكيد له لأهميته في حفظ بيضة الدين والمنافحة عن حياض المسلمين.

على أنه جعل بين المؤمنين وبين من لا يحكم بالشرع حواجز لا يجوز اختراقها، وعدّ أية معونة تقدم لمن لا يحكم بالشرع جريمة يستحق مرتكبها عقوبة الحرمان من أن يرد على الرسول عليه السلام حوضه ولا أن يكون من الرسول عليه السلام أو أن يكون المصطفى صلى الله عليه وسلم منه، بل وأن يقذف في جهنم.

وبين يدينا حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي الوقوف بين يديه وفهمه:

عن حذيفة بن اليمان قال: كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت يارسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال: نعم فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال نعم، وفيه دخن، قال: قلت: وما دخنه ؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر، فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال: نعم: دعاة على أبواب جهنم . من أجابهم إليها قذفوه فيها فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا ؟ قال: نعم، قوم من جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، قلت يا رسول الله، فما ترى إذا أدركني ذلك ؟ قال: تلزم جماعة المسلمين، وإمامهم فقلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك. أخرجه البخاري ومسلم.

قسم الحديث ما سيجري إلى المراحل التالية:

١- مرحلة الجاهلية الأولى أعقبها الخير الأول: الاسلام وتطبيقه عمليا في الدولة الاسلامية.

٢- مرحلة الشر الأول بعد الخير الأول : شرٌ، العصمة منه أمران: تعلم كتاب الله واتبع ما فيه، والسيف.

٣- مرحلة الخير الذي يلي: فيه فتنة على دخن: قوم يستنون بغير سنة الرسول عليه السلام ويهتدون بغير هديه تعرف منهم وتنكر، وبهذا الضابط بين أنهم لم يصلوا إلى الكفر البواح الذي يستوجب الخروج عليهم.

٤- مرحلة الشر الثاني بعد الخير الذي فيه دخن: دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها: العصمة منه: إن كان للمسلمين إمام فلزومه، وإلا فاعتزال هذه الفرق التي عليها دعاة على أبواب جهنم.

فلنتناولها مرحلة مرحلة:

أولا: مرحلة الجاهلية الأولى أعقبها الخير الأول: الاسلام وتطبيقه عمليا في الدولة الاسلامية.

قوله (في جاهلية وشر) يشير إلى ما كان من قبل الإسلام من الكفر وقتل بعضهم بعضا ونهب بعضهم بعضا وإتيان الفواحش، والأهم أنهم لم يكن لهم إمام يحكمهم بشرع .

ونتذكر هنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية.

قال الحافظ في الفتح: ... والمراد بالميتة الجاهلية وهي بكسر الميم حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال وليس له إمام مطاع ، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك ، وليس المراد أنه يموت كافرا بل يموت عاصيا. انتهى

فوصف الجاهلية وصف لنظام الحكم الذي يحكمهم، ومعنى قوله رضي اللّه عنه إنا كنا في جاهلية، أي في نظام جاهلي لا نعرف إماما يحكمنا ولا نظاما ينظمنا وكنا في كفر فهدانا اللّه.

أقول هذا حتى ألفت النظر إلى أن موضوع الحديث الحكم والحكام وعلاقة المحكومين بالحكام وعلى هذا الأساس قسم المصطفى عليه السلام إجاباته على اسئلة حذيفة رضي اللّه عنه.

قال: فجاءنا اللّه بهذا الخير، أي الاسلام بما فيه من عقيدة ونظام حياة سادت حياة المسلمين بإقامة دولتهم في المدينة المنورة، فعاشوا حياة إسلامية :

قال: فجاءنا اللّه بهذا الخير فنحن فيه.

قال ياحذيفة تعلم كتاب اللّه، واتبع ما فيه، (ثلاث مرات).

وفي ذلك عصمة من كل شر يأتي بعد، أي على المسلم أن يتعلم كتاب اللّه ليعلم واجبه حيال الموقف فيتصرف بناء على أمر اللّه وأمر رسوله ويلزمه فيتقي الفتن مهما عظمت.

المرحلة الثانية:

قوله (فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم)

في رواية نصر بن عاصم " فتنة وفي رواية سبيع بن خالد عن حذيفة عند ابن أبي شيبة " فما العصمة منه ؟ قال السيف قال فهل بعد السيف من تقية ؟ قال نعم هدنة " والمراد بالشر ما يقع من الفتن من بعد قتل عثمان وهلم جرا أو ما يترتب على ذلك من عقوبات الآخرة .

إذن فبعد الفتنة الأولى وما فيها من شر تمثل في اغتصاب حق المسلمين في البيعة، وتحول الحكم من خلافة راشدة على منهاج النبوة إلى ملك عاضة، قال ما العصمة منه؟ أي من هذا الشر؟

قال: السيف!

فلنسأل أنفسنا ونحن نعلم أنه لا يجوز للمسلمين أن يقتتلوا بالسيف فيما بينهم: متى يجب استعمال السيف في وجه الحاكم؟

ليس إلا أن يظهر الكفر البواح الذي عندنا من اللّه فيه سلطان، وهو ما لم يحصل بعيد فتنة مقتل الامام عثمان رضي اللّه عنه.

والحالة الثانية : اغتصاب الحكم والسلطة من متسلط كما هو الحال أيام يزيد.

يظهر هذا ويوضحه ما روي إبان مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وأرضاه عنه فقد روى ابن سعد في الطبقات:

وقال عمر : أمهلوا فإن حدث بي حدث فليصل لكم صهيب - مولى بني جدعان - ثلاث ليالٍ، ثم أجمعوا أمركم، فمن تأمّر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه.

وجاء في سيرة ابن هشام: قال ابن إسحاق : قال ابن عباس...ثم قال [عمر] : فمن بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فإنه، لا بيعة له هو، ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا . إ.هـ.

فالسيف إذن ليعصم المسلمين من فتنة انتزاع سلطانهم منهم.

المرحلة الثالثة: بعد الشر الأول خير ولكن فيه دخن!

قوله (قال : نعم ، وفيه دخن) بالمهملة ثم المعجمة المفتوحتين بعدها نون وهو الحقد ، وقيل الدغل ، وقيل فساد في القلب ، ومعنى الثلاثة متقارب . يشير إلى أن الخير الذي يجيء بعد الشر لا يكون خيرا خالصا بل فيه كدر . وقيل المراد بالدخن الدخان ويشير بذلك إلى كدر الحال ، وقيل الدخن كل أمر مكروه . وقال أبو عبيد يفسر المراد بهذا الحديث , الحديث الآخر " لا ترجع قلوب قوم على ما كانت عليه " وأصله أن يكون في لون الدابة كُدورةٌ فكأن المعنى أن قلوبهم لا يصفو بعضها لبعض .

قوله (قوم يهدون) بفتح أوله (بغير هديي) وفي رواية أبي الأسود " يكون بعدي أئمة يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي " . قوله (تعرف منهم وتنكر) يعني من أعمالهم ، وفي حديث أم سلمة عند مسلم " فمن أنكر برئ ومن كره سلم .

هذا يؤكد القول أن موضوع الحديث كله: الحكام ، فالرسول عليه السلام يبين أن مصدر الدخن: قوم يهدون بغير هديه ويستنون بغير سنته، ولو كانوا من العامة لوجب الأخذ على أيديهم وزجرهم، ولكنهم من الحكام كذا نص في الرواية الأخرى: يكون بعدي أئمة،

لذا بين طريقة التعامل معهم بحسب درجة هذا البعد عن الاهتداء بهدي المصطفى عليه السلام:

فقد روى الامام مسلم في كتاب الامارة عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ ومن أنكر سلم ولكن من رضي وتابع قالوا أفلا نقاتلهم قال لا ما صلوا .

وفي روايات الحديث الأخرى ما يوضح ذلك ويجليه:

قال: قلت: يارسول الله أبعد هذا الشر من خير؟

قال نعم،

[قلت: فما العصمة منه؟ قال :السيف]

قلت وهل بعد ذلك الشر من خير؟ (وفي طريق: قلت: وهل بعد السيف بقية؟)

قال :نعم، وفيه (وفي طريق: تكون إمارة (وفي لفظ: جماعة) على أقذاء، وهدنة على) دخن، قال :قلت: وما دخنه ؟

قال: قوم (وفي طريق أخرى: يكون بعدي أئمة [يستنون بغير سنتي،] و يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، [وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين، في جثمان إنس]

(وفي أخرى: الهدنة على دخن ما هي؟ قال: لا ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه)

فلنرجع إلى أحاديث نستوضح منها ضوابط هذا البعد عن الاهتداء بسنة الرسول عليه السلام وهديه الذي لا يوصل إلى الخروج على الحكام ، بل يلزم معه أن تعرف وتنكر أي أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر :

أطيعوا أمراءكم مهما كان فإن أمروكم بشيء مما جئتكم به فإنهم يؤجرون عليه وتؤجرون بطاعتهم وإن أمروكم بشيء لم آتكم به فإنه عليهم وأنتم منه براء. كتاب السنة لابن أبي عاصم ٢ / ٤٨٥ وقال الألباني حديث صحيح

عن عمر قال: اسمع وأطع وإن أمر عليك عبد حبشي مجدع إن ضرك فاصبر، وإن أمرك بأمر فأتمر وإن حرمك فاصبر، وإن ظلمك فاصبر، وإن أراد أن ينقص من دينك فقل: دمي دون ديني ولا تفارق الجماعة. كنز العمال

روى الامام البخاري رحمه الله في كتاب الفتن: عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من كره من أميره شيئا فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية.

وروى البخاري رحمه الله في كتاب الفتن: عن جنادة بن أبي أمية قال دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض قلنا أصلحك الله حدث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم قال دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان.

قال الحافظ في الفتح: قوله (إنكم سترون بعدي أثرة) .. وحاصلها الاختصاص بحظ دنيوي.

قوله (وأمورا تنكرونها) يعني من أمور الدين ، وسقطت الواو من بعض الروايات فهذا بدل من أثرة, انتهى

فما معنى ذلك؟ أليس معناه أنهم يهتدون بغير هديه وغير هديه هو الكفر؟

الجواب: لا

والقول في ذلك أن من هذه الأحاديث وفي غيرها ما أكمل وبين ضابط وجود الكفر مانعا من الطاعة وسببا في القيام بالسيف على الحاكم.

فهذه الأعمال التي ليست على هدي المصطفى عليه السلام ولا على سنته لم تصل إلى الكفر البواح، ونمثل عليها بكثير من الأمثلة:

مثلا استئثار الحاكم على المحكومين ، فيبني لنفسه القصور ويرفه العيش على نفسه وأولاده، هذا على غير الهدي ولكنه ليس عمل كفر

ومثلا احتاج الحاكم إلى ضريبة يأخذها من الناس وقت حرب وخزانة الدولة فارغة كما حصل أيام المماليك فأفتاهم العز بن عبد السلام أن يبيعوا أولا كل ما يملكون من قصور وحلي وما إلى ذلك حتى إذا نقص أخذوا من الناس

فمثال ما نرمي إليه أن يأخذ الحاكم من الناس الضريبة وقصوره مليئة بالذهب والفضة والأولى أن يصرف منها.

مثال آخر: الأصل أن لا يعين الخليفة إثر موت الخليفة بالوراثة أو بحصره في أبناء عائلة معينة هذا ليس هدي المصطفى عليه السلام ولكنه ليس كفرا

وبالتالي فالطاعة واجبة للخليفة المبايع بيعة شرعية بعد موت الخليفة الأول

إساءة تطبيق الشريعة فمثلا يعين أقاربه في مناصب الحكم والوزارات ليس عمل كفر ولكنه ليس استنانا بسنة المصطفى عليه السلام ولا بهديه ....الخ

فهذه الأعمال تجب معها طاعة الأمير مع أنها ليست على هدي المصطفى عليه السلام لكن لو سن الحاكم نظام كفر كأن أباح الربا

فهذا كفر بواح وخط أحمر لا يجوز السكوت عليه.

روى معاذ قال : يا رسول الله ارايت ان كان علينا امراء لايستنون بسنتك ولا يأخذون بأمرك فما تئامر في أمرهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا طاعة لمن لم يطع الله عز وجل .) رواه احمد .

وروى عبدالله بن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال سيلي اموركم بعدى رجال يطفئون السنة ويعملون بالبدعة ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها . فقلت يا رسول الله : ان ادركتهم كيف افعل ؟ قال (تسألني يا ابن ام عبد كيف تفعل ؟ لا طاعة لمن عصى الله . رواه ابن ماجه واحمد .

وعن ام الحصين انها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ان امر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا له واطيعوا ما قادكم بكتاب الله » . رواه ابن ماجة، وفي رواية للترمذى «ما اقام لكم كتاب الله» وفي رواية لمسلم [يقودكم بكتاب الله] .

وفي صحيح البخاري كتاب الاحكام باب الامراء من قريش كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده في وفد من قريش أن عبد الله بن عمرو يحدث أنه سيكون ملك من قحطان فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فإنه بلغني أن رجالا منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك جهالكم فإياكم والأماني التي تضل أهلها فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين.

نخلص من هذه الأحاديث إلى أن الحاكم الذي لا يصل إلى مرحلة الكفر البواح فالواجب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر لا الخروج عليه وقد بينت الأحاديث أن الطاعة مرتبطة بطاعة الله وإقامة الدين أو الصلاة كناية عن الدين أو أن لا يأمر بالاثم بواحا أو أن لا تكون معصية الله بواحا وإلا فلا طاعة ولا كرامة له:

قال الامام النووي رحمه الله:

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : (فمن عرف فقد برئ) وفي الرواية التي بعدها : (فمن كره فقد برئ) فأما رواية من روى (فمن كره فقد برئ) فظاهرة ، ومعناه : من كره ذلك المنكر فقد برئ من إثمه وعقوبته ، وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده لا لسانه فليكرهه بقلبه ، وليبرأ .

وأما من روى (فمن عرف فقد برئ) فمعناه - والله أعلم - فمن عرف المنكر ولم يشتبه عليه ؛ فقد صارت له طريق إلى البراءة من إثمه وعقوبته بأن يغيره بيديه أو بلسانه ، فإن عجز فليكرهه بقلبه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (ولكن من رضي وتابع) معناه : لكن الإثم والعقوبة على من رضي وتابع .

وفيه : دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت . بل إنما يأثم بالرضى به ، أو بألا يكرهه بقلبه أو بالمتابعة عليه .

وأما قوله : (أفلا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما صلوا) ففيه معنى ما سبق أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئا من قواعد الإسلام. انتهى.

المرحلة الرابعة:

مرحلة الشر الثاني بعد الخير الذي فيه دخن: دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها: العصمة منه: إن كان للمسلمين إمام فلزومه، وإلا فاعتزال هذه الفرق التي عليها دعاة على أبواب جهنم.

وصل الأمر إلى القذف في جهنم، وكما بينا فإن موضوع الحديث الحكام: فهم أولا يهدون بهدي المصطفى عليه السلام ويستنون بسنته، أولئكم الخلفاء الراشدون، ثم فتنة العصمة

منها السيف: اغتصاب السلطة، ثم عاد الأمر خيرا فيه دخن: لم يعد الاهتداء بهدي المصطفى عليه السلام ولا الاستنان بسنته، بل أصبح الحكم وراثة يعض عليها بالنواجذ، ولم يصل مرحلة الكفر البواح،

قال الحافظ في الفتح:

قوله (قوم يهدون) (بغير هديي) ، وفي رواية أبي الأسود " يكون بعدي أئمة يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي " . قوله (تعرف منهم وتنكر) يعني من أعمالهم ، وفي حديث أم سلمة عند مسلم " فمن أنكر برئ ومن كره سلم".

قوله (دعاة) (على أبواب جهنم)

أطلق عليهم ذلك باعتبار ما يئول إليه حالهم ... قال عياض : المراد بالشر الأول الفتن التي وقعت بعد عثمان ، والمراد بالخير الذي بعده ما وقع في خلافة عمر بن عبد العزيز , والمراد بالذين تعرف منهم وتنكر الأمراء بعده ، فكان فيهم من يتمسك بالسنة والعدل وفيهم من يدعو إلى البدعة ويعمل بالجور قلت : والذي يظهر أن المراد بالشر الأول ما أشار إليه من الفتن الأولى ، وبالخير ما وقع من الاجتماع مع علي ومعاوية وبالدخن ما كان في زمنهما من بعض الأمراء كزياد بالعراق وخلاف من خالف عليه من الخوارج , وبالدعاة على أبواب جهنم من قام في طلب الملك من الخوارج وغيرهم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله " الزم جماعة المسلمين وإمامهم " يعني ولو جار ويوضح ذلك رواية أبي الأسود " ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك " وكان مثل ذلك كثيرا في إمارة الحجاج ونحوه .

... وفي رواية عبد الرحمن بن قرط عن حذيفة عند ابن ماجه " فلأن تموت وأنت عاض على جذل خير لك من أن تتبع أحدا منهم " والجذل بكسر الجيم وسكون المعجمة بعدها لام عود ينصب لتحتك به الإبل ، وقوله " وأنت على ذلك أي العض " ، وهو كناية عن لزوم جماعة المسلمين وطاعة سلاطينهم ولو عصوا . قال البيضاوي : المعنى إذا لم يكن في الأرض خليفة فعليك بالعزلة والصبر على تحمل شدة الزمان ، وعض أصل الشجرة كناية عن مكابدة المشقة

كقولهم فلان يعض الحجارة من شدة الألم ، أو المراد اللزوم كقوله في الحديث الآخر " عضوا عليها بالنواجذ " ويؤيد الأول قوله في الحديث الآخر " فإن مت وأنت عاض على جذل خير لك من أن تتبع أحدا منهم " وقال ابن بطال : فيه حجة لجماعة الفقهاء في وجوب لزوم جماعة المسلمين وترك الخروج على أئمة الجور ، لأنه وصف الطائفة الأخيرة بأنهم " دعاة على أبواب جهنم " ولم يقل فيهم " تعرف وتنكر " كما قال في الأولين ، وهم لا يكونون كذلك إلا وهم على غير حق ، وأمر مع ذلك بلزوم الجماعة . ... قال الطبري : والصواب أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره ، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة ، انتهى

فكما ترى أن كلمة المفسرين مطبقة على أن الموضوع وصف لأنواع الحكام بعده عليه السلام: حكاما على خير هم الخلفاء الراشدون ومن ثم بعده شر لكن لم يصل إلى الكفر البواح، فيه خروج على نظام الحكم في الاسلام بأول اغتصاب للسلطة كان العاصم منه السيف، ثم خير لكن فيه دخن فلم يعد الحكم على نسق الخلافة الراشدة بل أصبح يتوارث وراثة وفيه اهتداء بغير هدي الرسول عليه السلام ولكن لم يصل الكفر البواح،

وبقيت مرحلة من شقين:

أما المرحلة فهي أن يصبح الحكام دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم قذفوه فيها!

هنا المسلم إما أن يوجد في زمان فيه خليفة، فعليه أن يعتزل هؤلاء الدعاة ويهاجر من أرضهم التي يسودونها بالكفر البواح، ويلحق بالخليفة، ومثال ذلك لما خرجت الحجاز ونجد بقيادة آل سعود عن دولة الخلافة وحكموا بالطاغوت، وجب على المسلمين الذين يعيشون في بلدهم أن يعتزلوهم وأن يلحقوا بالخليفة العثماني وإن جلد ظهرك وأخذ مالك، فهو الحاكم بالشرع وإن أخطأ في التطبيق، إلا أنه لم يصل إلى الخط الأحمر: الكفر البواح.

والحالة الثانية: ما نراه اليوم من أنه لم يعد للمسلمين خليفة ولا إمام، وبالتالي فلا جماعة لهم، لأن الجماعة لا تكون إلا على إمام: فالواجب أن يعتزل الدول التي في العالم الاسلامي بمعنى اعتزال أنظمة الحكم فيها ولو أن يأتيه الموت وهو عاض على أصل شجرة.

لنراجع نص الحديث برواياته المختلفة أولا:

عن حذيفة بن اليمان قال: كان الناس يسألون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الخير، وكنت أساله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت يارسول اللّه، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا اللّه بهذا الخير [فنحن فيه]، [وجاء بك]، فهل بعد هذا الخير من شر [كما كان قبله]؟ [قال ياحذيفة تعلم كتاب اللّه، واتبع ما فيه، (ثلاث مرات). قال: قلت: يارسول اللّه أبعد هذا الشر من خير؟] قال نعم، [قلت: فما العصمة منه؟ قال: السيف]قلت وهل بعد ذلك الشر من خير؟ (وفي طريق: قلت: وهل بعد السيف بقية؟) قال: نعم، وفيه (وفي طريق: تكون إمارة (وفي لفظ: جماعة) على أقذاء، وهدنة على) دخن، قال: قلت: وما دخنه ؟ قال: قوم (وفي طريق أخرى: يكون بعدي أئمة [يستنون بغير سنتي، و] يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، [وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين، في جثمان إنس] (وفي أخرى: الهدنة على دخن ما هي؟ قال: لا ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه) فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، [فتنة عمياء صماء عليها] دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها فقلت: يا رسول اللّه، صفهم لنا ؟ قال: هم من جلدتنا، و يتكلمون بألسنتا، قلت: [يا رسول اللّه]، فما تأمرني إذا أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين، وإمامهم [تسمع وتطيع الأمير، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع] فقلت :فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك. (وفي طريق) فإن تمت يا حذيفة وأنت عاض على جذل خير لك من أن تتبع أحدا منهم. (وفي أخرى) فإن رأيت يومئذ للّه عز وجل في الأرض خليفة، فالزمه وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فإن لم تر خليفة فاهرب [في الأرض] حتى يدركك الموت وأنت عاض على جذل شجرة.

لاحظنا أن الحديث دوما يتحدث عن الحكام وأثرهم في المحكومين وموقف المحكومين من الحكام.

ولاحظنا أنه نص على:

تكون إمارة (وفي لفظ: جماعة) على أقذاء، وهدنة على دخن.

ومعلوم لدينا أن لفظة الجماعة تعني المسلمين على إمام:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (((يا معشر العريب : الارض ، الارض ، انه لا اسلام الا بجماعة ، ولا جماعة الا بامام ، ولا امام الا بطاعة))) .

لنبحث في معنى الفرق التي أمر الرسول عليه السلام باعتزالها: أهي الأحزاب السياسية التي تقوم على أساس الاسلام أم أنظمة الحكم التي تحكم بغير ما أنزل الله؟

قال في لسان العرب:

فرق : الفَرْقُ : خلاف الجمع فَرَقه يَفْرُقُه فَرْقاً و فَرَّقهِ وقيل : فَرَقَ للصلاح فَرْقاً و فَرَّق للإفساد تَفْريقاً و انْفَرَقَ الشيء و تَفَرَّقَ و افْتَرَقَ.

... وفي الحديث : من فارَقَ الجماعة فَمِيتَتُه جاهليّة ؛ يعني أن كل جماعة عَقَدت عقْداً يوافق الكتاب والسنَّة فلا يجوز لأحد أن يفارقهم في ذلك العقدِ فإن خالفهم فيه استحق الوعيدِ ومعنى قوله : فميتته جاهلية أي يموت على ما مات عليه أهل الجاهلية من الضلال والجهل. ابن جني : وقراءة من قرأ (فَرَّقنا بكم البحر) بتشديد الراءِ شاذةِ من ذلكِ أي جعلناه فِرَقاً وأقساماً .

و الفِرْقُ : الفِلْقِ من الشيءِ إذا انْفَلَقَ منهِ ومنه قوله تعالى : (فانْفَلَقَ فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم) و فَارَقَ الشيءَ مُفارَقةً و فِراقاً : بايَنَهُ والاسم الفُرْقة،،، و تَفَارَقَ القومُ : فَارَقَ بعضهم بعضاً،،، و فَارَقَ فلان امرأته مُفَارقةً و فِراقاً : بايَنَها و الفِرْقُ و الفِرْقةُ و الفَرِيقُ : الطائفة من الشيء المُتَفَرِّق. و الفِرْقةُ : طائفة من الناس و الفَرِيقُ أكثر منه. وفي الحديث : أفاريق العربِ وهو جمع أفْراقِ و أفراقٌ جمع فِرْقَةٍ. قال ابن بري : الفَرِيقُ من الناس وغيرهم فِرْقة

منهِ و الفَريقُ المُفارقُ ؛ قال جرير : أَتَجْمَعُ قولاً بالعِراقِ فَريقهُ ومنه بأَطْلالِ الأَرَاكِ فَريقُ ؟ قال : و أَفْراق جمع فِرَقٍ و فِرَقٌ جمع فِرْقةِ و الفِرْقُ : طائفة من الناسِ قال : وقال أَعرابي لصبيان رآهم : هؤلاءِ فِرْقُ سوء و الفَريقُ الطائفة من الناس وهم أَكثر من الفِرْق. ويقال : فَرَقَ بين الحق والباطلِ ويقال أَيضاً : فَرَقَ بين الجماعة ؛ قال عدي بن الرِّقاع : والدَّهْرُ يَفْرُقُ بين كلِّ جماعةٍ ويَلُفّ بين تَباعُدٍ وتَناءِ

و الفِرْقُ و الفَريقُ من الغنم : الضالة، و أَفْرَقَ فلانٌ غنمه : أَضلَّها وأَضاعها، و الفَريقةُ من الغنم : أَن تتفرق منها قطعة أَو شاة أَو شاتان أَو ثلاث شياه فتذهب تحت الليل عن جماعة الغنم؛ قال كثيِّر : وذِفْرى ككاهِلِ ذِيخِ الخَلِيفِ أَصاب فَريقَه ليلٍ فعاثَا وفي الحديث : ما ذِئْبانِ عادِيانِ أَصابا فَريقه غنمٍ ؛ الفَريقةُ : القطعة من الغنم تَشِذّ عن معظمها وقيل : هي الغنم الضالة

وفي حديث أَبي ذر : سئل عن ماله فقال فِرْقٌ لنا وذَوْدٌ ؛ الفِرْقُ القطعة من الغنم و الفُرُوق : موضع ؛ قال عنترة : ونحن مَنَعْنا بالفَرُوقِ نساءَكُمْ نُطَرِّف عنها مُبْسِلاتٍ غَوَاشِيا و الفُرُوق : موضع في ديار بني سعد ؛ أَنشد رجل منهم : لا بارَكَ اللَّهُ على الفُرُوقِ ولا سَقاها صائبَ البُرُوقِ وفي حديث عثمان : قال لخَيْفان كيف تركتَ أَفاريق العرب ؟ هو جمع أَفْراقٍ و أَفْراقٌ جمع فِرْقٍ و الفِرْق و الفَريقُ و الفِرْقةُ بمعنى. انتهى

من الربط بين الأحاديث السابقة وبين معنى الفرقة في اللغة نخلص إلى ما يلي:

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيما روى البخاري:

عن ابن عباس عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال من كره من أميره شيئا فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية .

قال ابن حجر:

قوله (فإنه من خرج من السلطان) أي من طاعة السلطان ، ووقع عند مسلم " فإنه ليس أحد من الناس يخرج من السلطان " وفي الرواية الثانية " من فارق الجماعة " وقوله "شبرا" بكسر المعجمة وسكون الموحدة وهي كناية عن معصية السلطان ومحاربته ، قال ابن أبي جمرة : المراد بالمفارقة السعي في حل عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير ولو بأدنى شيء ، فكني عنها بمقدار الشبر ، لأن الأخذ في ذلك يئول إلى سفك الدماء بغير حق . انتهى

فحديث حذيفة رضي الله عنه يفصل في حال وجود جماعة عليها إمام للمسلمين مقابلها فرق، أي أن هناك من فرق كلمة المسلمين بعد أن كانت واحدة في جماعة عليها إمام، هذا الذي فرقها كان تفريقها بنقض عقد البيعة فخرج بذلك عن السلطان وأنشأ فرقة تابعة له خارجة عن السلطان.

وهذا الوضع ينطبق تماما على الحكام الذين خرجوا على الدولة العثمانية كالسعودية والأردن ومصر وغيرها، ولا ينطبق على أي من الأحزاب الاسلامية لأن الأحزاب إنما نشأت لتعيد السيادة للشرع لتطبيق أحكامه والسلطان للأمة أن تنتخب خليفة يقيم لها جماعتها بعد أن فرقها الحكام اليوم شذر مذر،

كما أن الجماعات الاسلامية لم تفرق الأمة فرقا على أساس اختلاف العقيدة حتى يكون واقع آيات النهي عن التفرق كتفرق أهل الكتاب منطبقا عليها، بل خلافها في الفرعيات وهذا من الخلاف المحمود الذي لا يفضي إلى القول بتفرقة الأمة فرقا، وهو من نوع الاختلاف الذي كان بين أئمة الفقه الاسلامي وما نشأ عنه من مذاهب فقهية، ولا يدعي أحد أن هذا الخلاف الفقهي يفضي إلى الخروج على السلطان المسلم أو تفريق كلمة المسلمين.

على أن الدليل الفاصل في المسألة الذي يبين بوضوح أن المعنى هو أنظمة الحكم اليوم هو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

روى مسلم في كتاب الإمارة: "عَنْ عَرْفَجَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ".

لاحظ: يفرق جماعتكم، بعد أن كنتم على إمام واحد وأمركم جميع، أي وأنتم جماعة على إمام جاء هؤلاء (واحد أو أكثر) يشقون عصاكم أي عصا الطاعة للخليفة الواحد ويفرقون جماعتكم فأصبح لكل واحد منهم فرقته بذلك، وهو ما انطبق قطعا على الحكام .

من هنا فالحديث إذن يأمر المسلمين أن يعتزلوا أنظمة الحكم الطاغوتية التي تحكم بغير ما أنزل الله ويبالغ في تصوير الأمر بالبعد عنها وهجرها حتى يصور حال المسلم كأنه يعض على أصل شجرة حتى يدركه الموت، ذلك أهون عليه من أن يكون جزءا من هذه الأنظمة الطاغوتية.

ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حكامكم اليوم بأنهم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها!!

فانبذوهم نبذ النواة وعاملوهم معاملة النجاسات.

وختاما نذكر بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، فإذا عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم". قالوا: يا رسول الله، كيف نصنع؟ قال: "كما صنع أصحاب عيسى بن مريم، نُشّروا بالمناشير، وحمّلوا على الخُشب، لموت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله."

وقال ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما بعث الله عز وجل نبياً إلا وله حوارى فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله تعالى يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيهم فإذا انقرضوا كان من بعدهم قوم يركبون رؤوس المنابر يقولون ما يعرفون ويعملون ما ينكرون فإذا رأيتم ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وليس وراء ذلك إسلاماً."

جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة: " يا كعب بن عجرة أعاذك الله من إمارة السفهاء، قال وما إمارة السفهاء؟ ، قال: أمراء يكونون من بعدي لا يقتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، فمن دخل عليهم وصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون على حوضي، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردون على حوضي.

وقفة أخيرة:

نتذكر القول في: فإن مت وأنت عاض على جذل خير لك من أن تتبع أحدا منهم " وقال ابن بطال : فيه حجة لجماعة الفقهاء في وجوب لزوم جماعة المسلمين وترك الخروج على أئمة الجور ، لأنه وصف الطائفة الأخيرة بأنهم " دعاة على أبواب جهنم " ولم يقل فيهم " تعرف وتنكر " كما قال في الأولين ، وهم لا يكونون كذلك إلا وهم على غير حق ، وأمر مع ذلك بلزوم الجماعة. انتهى

لاحظ: أنه في أول الحديث بين لحذيفة رضي الله عنه العاصم من كل هذه القواصم : تعلم كتاب الله واتبع ما فيه، قالها ثلاثا. وعندما كان الحديث عن الشر الأول كان العصمة منه السيف، وهو ذاك الذي خرج على المسلمين مغتصبا سلطانهم، وعندما جاء الحديث عن الدعاة على أبواب جهنم في حالة وجود الخليفة عليك اللحاق به.

لكن الدعاة على أبواب جهنم والخليفة غير موجود لم يقل: السيف!!

بل أمر بالاعتزال، أي اعتزال الجاهلية ومفاصلتها.

وتعلم كتاب الله واتباع ما فيه.

وفيه أمر بالتغيير، من ذلك نلمح أن طريقة تغيير الوضع عندما يكون في الأمر الدعاة على أبواب جهنم فالتصرف الصحيح هو مفاصلة الجاهلية ومقاطعتها وعدم الخوض في الحياة السياسية لترقيع الجاهلية، بل أن تفاصلها حتى لو عضضت على جذع شجرة، ومن ثم تتعلم كتاب الله وتتبع فترى طريقة الرسول عليه السلام في التغيير ولم يذكر هنا السيف، مع أنه ذكره في الحالة الأولى ولو كان طريقا للتغيير على الدعاة على أبواب جهنم لذكره صلى الله عليه وسلم. والله أعلم

والحمد لله رب العالمين

الاصلاح أم تجريد المسلمين من دينهم

الحمد لله وسلاما على عباده الذين اصطفى

بالأمس البعيد، شن الكافر المستعمر حربا فكرية على الاسلام، حاول من خلالها مهاجمة أفكار الاسلام مباشرة، متهما إياها بأنها السبب في انحطاط المسلمين وتأخرهم، ومحاولا إضعاف ثقة المسلمين بصحتها.

فأحل روابط الوطنية والقومية مكان رابطة الأخوة في العقيدة، واستحدث مصطلحات ما أنزل الله بها من سلطان ليحيا المؤمنون متفرقين على أساسها: كالسعودية والأردن والجمهورية المصرية، وغيرها، فالأردن للأردنيين ومصر للمصريين.

وهاجم مفهوم تعدد الزوجات، وحكم الاسلام في التأمين، والجهاد، وقال أن نظام الخلافة نظام استبداد لأنه يضع الحكم في يد شخص واحد، وغير ذلك واضعا الاسلام في قفص الاتهام، ولكنه إذ فشل أيما فشل في هزيمة الاسلام، ترك المسلمين ضعيفي الثقة بدينهم.

فلم تغير حربه من تشبث المسلمين بالاعتقاد بأن دينهم هو الحق الذي لا يأتيه الباطل شيئا، لكنه زاد المسلمين ضعفا على ضعف في فهم الاسلام وإنزاله على الواقع.

ثم إنه عمد إلى أن يلقن بعض المستغربين من أبناء هذه الأمة ثقافته، مستعملا معهم أسلوب الضبع، حتى ضبعهم ببهرج مدنيته، ليعودوا أبواقا له يصرفون الناس عن حضارتهم الاسلامية إلى حضارة الغرب.

ثم إنه نحا في هجومه منحى آخر، بإلباسه الكفر لباس الاسلام، حتى يخلط على المسلمين أمر دينهم فلا يفرقوا بين ما هو اسلام وما هو كفر، فنجح في ذلك زمنا، سمعنا فيه من يقول: الاسلام دين الاشتراكية، والدين لله والوطن للجميع، ولا فرق بين الشورى والديمقراطية، وما إلى ذلك.

ثم إنه عمد إلى المفاهيم الاسلامية محاولا تفريغها من معناها الشرعي، ليسهل عليه بعد ذلك صرف المسلمين عن هذه المفاهيم إلى بدائلها التي يضعها لهم من خلال تطبيق الكفر عليهم في الواقع، فلا يعود أمامهم من معنى لهذه الأفكار غير ما يرونه في واقعهم.

فمثلا جاء إلى مفهوم الربا، وفرغه من طاقته اللغوية التي يحملها هذا المفهوم، مرتبطة بالطاقة الشرعية لحرمة الربا، وكونه مؤذنا بحرب الله ورسوله، وما تحدثه من رهبة في نفس آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، ووضع مكانه مصطلح الفائدة، بما يحمله ظاهر هذا المفهوم من طاقة تلعب في نفس المهزوم لعبتها لتجرأه على الحرام، ومن ثم أقام واقعا بالغ الشقاء يحياه المسلمون حتى استفحل الفقر فيهم وجعل بعضهم يلجأ إلى التعامل بالربا بحجج واهية كالاضطرار وفقه الأقليات وفقه الموازنات، وما شاكله من خناجر يغرسها الكافر المستعمر في جنب الاسلام بمعونة متفيقهين عملاء تابعين له.

وجاء إلى مفهوم الجهاد، وجرده من كل آيات السيف ، وشطب بجرة قلم من أبواقه من المرتزقة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، كل أحاديث الرسول عليه السلام التي تحض عليه، فأصبح الجهاد جهاد النفس، ومجاهدتها عن الشهوات!

وأما الولاء والبراء فأدخل معمل تنقية المصطلحات الاسلامية من الاسلام ليخرج منه خلوا من الاسلام، فلم يجدوا معه حلا!!

فعملوا العمل الجاد على إلغائه من قاموس المسلمين لأنه لا بديل لديهم يحمل هذا الاسم بمضمون يوافق أهواءهم.

لذا سمعنا من بعض أبواقهم الخبيثة من يقول في قوله تعالى : ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، من يتجرأ ليقول أن الله يمدح اليهود والنصارى على ثباتهم على دينهم!!

وقام إلى مصطلح الكفر ذلك المصطلح الذي ما انفك يغيظه ويحرك المسلمين للانتصار لدينهم والدفاع عن حرمه، فاستبدله بمصلح: غير المسلمين!! ومن ثم أبناء إبراهيم، والأخوة الانسانية! والكل مؤمنون!!

وما زال الكافر المستعمر وأدواته من علماء سلطان وأبواق الاعلام يعملون على انتزاع المفاهيم الاسلامية من قلوب هذه الأمة بعد أن عقدت عليها، ليستبدلو بما لديهم من كفر وجاهلية مفاهيم الاسلام الصحيحة، حتى يصلوا إلى غاية غاياتهم وهي أن يصبح المسلمون مسلمين بالاسم فقط، لا يحملون من دينهم أكثر من الاسم، هذا إن لم يردونا عن ديننا إن استطاعوا.

فبدلا من الشورى أصبح المفهوم السائد عند من لا يعي حقيقة هذه الحرب السافرة على الاسلام: أصبحت الديمقراطية هي البديل وهي المطلب، وما بقي عند من يطالب بالمصطلح الجديد، ليس (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) ولكن بقي لديهم: حرية إبداء الرأي وانتخاب الحاكم وصلاحياته المحدودة وما يسمى بالقيادة الجماعية، والرأي والرأي الآخر، والمعارضة لا المحاسبة.

وبدلا من الوسطية بمعناها الشرعي الصحيح وهو العدالة، والخيرية، أي أن الأمة الاسلامية أمة الوسَط أي العدالة، أي الخيرية، لا الوسْط بمعنى البينية بين الشيئين ولا الظرفية، لأن الوسَطَ غير الوسْط بسكون السين، ولأن الرسول عليه السلام في الحديث الصحيح فسر الوسطية في الآية بالعدالة، أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي عليه الصلاة والسلام في قوله:[وكذلك جعلناكم أمة وسطاً] قال: «عدلاً». قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .فيكون معنى "وسطاً" عدلاً أي أخياراً. قال الزجاج :وسطاً عدلاً وقال بعضهم أخياراً واللفظان مختلفان والمعنى واحد، لأن العدل خير والخير عدل، وقال البغوي :وسطاً أي عدلاً خياراً وقال القرطبي: وليس من الوسط الذي بين شيئين في شيء.

من هنا فلا يوجد شيء اسمه إسلام الوسطية وإسلام التطرف والغلو، وما شاكلها من مصطلحات تتناقلها أبواق الاعلام لتفريغ مفهوم الوسطية الصحيح من محتواه ، ومن ثم نصب رجال دين من علماء الفضائيات زعامة لما يسمونه الاسلام المعتدل اسلام الوسطية على رؤوس الناس يضلوهم.

وجاءوا إلى المشاعر الاسلامية المتجذرة في نفوس المسلمين، فقالوا عن الحمية التي تغضب لانتهاك حرمات الله، وبغض المسلمين للكفر والكفار، وولائهم لله ورسوله وسموا ذلك كله تعصبا دينيا، وأدخلوا علينا مفهوم التسامح، وقالوا أن الاسلام دين تسامح، لكن بفهمهم: أن يتجرد المسلمون من هذه المفاهيم أولا وأن يسمحوا بنقد القرآن والتشكيك بالسنة، والطعن في الصحابة، وإلغاء كل الثوابت بحجة البحث العلمي وحوار الحضارات ليسموه بعدها دين تسامح.

ونظر الكافر المستعمر في كل من يعارضون أي انحراف عن الدين، وقرر عزلهم عن مجموع الأمة الاسلامية، فوسمهم كما توسم الأنعام، بسمات تنفر الناس منهم، من ذلك نعتهم بالاسلاميين تمييزا لهم عن المسلمين، والأصوليين رميا لهم بالتحجر والتخلف وقيادة الأمة خمسمائة عام للوراء، وهو بذلك يهدف أيضا إلى التعمية على الأصول التي من خلالها يستنبط المجتهد الحكم الشرعي، وأصول الدين التي يقوم عليها، إذ بذا تصبح الكلمة منبوذة مكروهة، هي ومن يتصف بها.

وجاءونا بمصطلحات لا واقع لها في نظامهم ولا في حياتهم لنرفعها شعارات لا ندري محتواها لأن مرادهم أن نأخذها منهم لا بالبحث عن حكم الاسلام فيها ومن ثم التزامه، وإن أخذناها منهم فهي عندهم بغير واقع يضع المرء إصبعه عليه ليعي مدلوله مثل المساواة والعدل والمحاسبة ، والتي من الواقع المشاهد لا تشكل إلا إطارا نظريا ولا واقع لها. ويكفي أن يَنظر المرء لأميركا زعيمة العالم الديموقراطي، ليجد أن المساواة والعدل والمحاسبة كلها انتقائية، يتمتع بها ويمارسها من لهم لون معيَّن، أو دين معيَّن، أو منابت معيَّنة، أو قدرة مالية معيَّنة. وما

عاناه ويعانيه السود والهنود الحمر، ومَن هم من أصول لاتينية أو آسيوية ومَن هم من غير البروتوستنت، أو ليسوا منحدرين من أصول أوروبية غربية، يكفي وحده للدلالة على أن ما يقال عن الديموقراطية نظري فقط، حتى وإنْ حصلت حالات شاذة بخلاف ذلك.

وأخيرا جاءنا الكافر المستعمر بمصطلح جديد: الاصلاح!!

وأما الطامة الكبرى فكانت بإدخال مصطلح المصلحة أساسا في الدين!!

جاءتنا أمريكا مؤخرا بفكرة الاصلاح، واستعملت هذا المصطلح الذي ورد في القرآن في عشرات المواضع، بكل تصريفاته، الصالحين، والمصلحين، والاصلاح، وأصلحوا، والصالحات، وغيرها ليسلبوه من كل هذه المعاني: المرتبطة بالمحافظة التامة على الحكم الشرعي سائدا حياة المسلمين ليحيوا حياة إسلامية، مرتبطا ارتباطا عضويا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتغيير على الحكام ، ليفرغوه من كل ذلك ويضعوا بدلا منه: الاصلاح الديمقراطي!!

فإذا ما طبقت الديمقراطية أصبحت من الذين يعملون الصالحات، والداعية إلى الديمقراطية هو المصلح، والمناهض للديمقراطية هو المفسد، حتى وأمريكا ترينا بأم العين الديمقراطية على الحقيقة في أبو غريب ورفح وتورا بورا، لم يرتدع أبواق الدعوة إلى الاصلاح على الطريقة الأمريكية وما زالوا في حربهم السافرة على الاسلام لتجريده من مفاهيمه ووضع مفاهيم أمريكا مكانها يحياها المسلمون!!

الذكرى تنفعُ المؤمنينَ

في رُكام التيهِ الفكري ، وعندَما تضعفُ لدى بعضِ المغلوبينَ الثقةُ بدينِهم وعقيدتِهم، ويسارعونَ في الذينَ كفروا، يقولونَ نخشى أنْ تصيبَنا دائرةٌ، يصلُ الأمرُ أحياناً كثيرةً إنْ لم نقلْ إلى إنكارِ معلومٍ من الدينِ بالضرورةِ، فإلى تجاهلِهِ ومحاولةِ تغطيتِهِ أو تحريفِهِ.

يتذرعونَ بذرائعَ واهيةٍ، كحرصِهم على نشرِ الدعوةِ، وأنّ الأحكامَ تتغيرُ بتغيرِ الزمانِ والمكانِ، وفقهِ الواقعِ، وفقهِ الأقلياتِ، ومواكبةِ العصرِ، لكنّ هذا كلَّهُ وما شاكَلَهُ لا يُغيِّرُ من واقعِ حالِهم شيئاً، وهو أنهم مهزومونَ داخلياً، عديموْ الثقةِ بالفكرةِ الإسلاميةِ وبطريقةِ تنفيذِها، مضبوعونَ ببهرجِ ما يُصورُهُ الغربُ الحاقدُ لهم من زيفِ حضارتِهِ للناظرينَ.

ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ، وجاهَرَ الحكامُ بإقامةِ أنظمةِ الكفرِ في الأرضِ، يحكمونَ بالطاغوتَ ويقيمونَ الحراسةَ عليه، ويَسجِنونَ من يَخرُجُ عن دستورِ الطاغوتِ المقدسِ لديهم، يُبيحونَ البلادَ والعبادَ لأعداءِ اللّهِ في الأرضِ يسومونهم سُوءَ العذابِ، فأقاموا القواعدَ العسكريةَ لأمريكا تنطلقُ منها راجماتُ الحقدِ لتقصِفَ بيوتَ المسلمينَ الآمنينَ، وزوَّدوها بالوقودِ، وجنودَ الحلفاءِ بما يلزمُهم لأداءِ مهمتِهم على أتمِّ وجهٍ، وجاهَرُوا بعِدائِهم للأمةِ.

ولم نسمعْ ممنْ يدَّعي العلمَ والمشيخةَ أيَّ إنكارٍ على مَنْ يسوسونَ المسلمينَ!!

وذريعتُهُم أنهم إنْ فعلوا ذلكَ حُرِموا المنابرَ الإعلاميةَ ، وحُرِمَتِ الأمةُ طَلْعَتَهم البهيةَ!!

فحينَ يُطرحُ الإسلامُ لتغييرِ الواقعِ بهِ، وَجَدْتَ مَنْ يُرددُ ويقولُ: إنّ الإسلامَ دينُ تسامحٍ وسلامٍ، اشتدّ نَكيرُهم على مَنْ يُريدُ تغييرَ المنكرِ وأطبقَ صمتُهم على مَنْ يُقيمُ الحراسةَ على هذا المنكرِ!

وعندَما تسيلُ أنهارُ الدماءِ من المسلمينَ في فلسطينَ والعراقِ وأفغانستانَ وغيرِها، على مَرأىً ومسمعٍ من القاهرةِ ودمشقَ وعمانَ والرياضِ وغيرِها، يتصرفُ حكامُها وكأنّ هذه الأحداثَ

تَجريْ على كوكبٍ آخرَ لا يعنيْهم من الأمر شيئاً، بل على النقيضِ مِنْ واجبِ نُصرةِ المسلمينَ تراهم يقيمونَ الْحَرَسَ على الحدودِ لمنع تسرُّبِ المعوناتِ والإغاثاتِ، والأسلحةِ، ولمنع المسلمينَ من القيامِ بالواجبِ الشرعيِّ مِن نصرةِ إخوانِهم، ولمنع الجيوشِ مِن أداءِ واجبِها الشرعيِّ في الجهادِ لتحرير المغتَصَبِ من أرضِ المسلمينَ.

استعاضوا عن العملِ الجذريِّ لتغيير الواقع، بالدعوةِ لجمع التبرعاتِ الماليةِ حتى يُفْرِغُوا شحنةَ الحقدِ وجامَ الغضبِ الذي يجريْ في عروقِ المسلمينَ بدفعِهم إلى الظنِّ أنهم فعلوا أقصى ما في وُسعِهم لأنّ الحاكمَ يمنعُهم من الجهادِ فلا أقلَّ من جهادِ المالِ، معَ أنّه شَحَّ في هذه الأيامِ أيضاً لأنَه لا يُرضِيْ أمريكا!!

تَراهم يبادرونَ إلى مؤتمراتِ حوارِ الأديانِ باحثينَ عن القواسمِ المشتركةِ بين الإسلامِ والكفر ليبيضوا وجهَ الإسلامِ أمامَ المستعمر الغربيِّ، ناسِينَ أو متناسِينَ أنّه مَنْ أعلَنَها حرباً صليبيةً سافرةً سافلةً على الإسلامِ والمسلمينَ.

ناسينَ أو متناسينَ أنّ بيتَ المقدسِ والعراقَ والشيشانَ وأفغانستانَ وكشميرَ لا يُحرّرُها إلا دولةُ الخلافةِ التي تُوحّدُ المسلمينَ وجيوشَ المسلمينَ تحتَ رايتِها، ثم تتحركُ.

إنّ المشكلةَ الكبرى هي أنّ هؤلاءِ القومِ لا يثقونَ في أنّ أحكامَ الإسلامِ هي ما سيُخْرِجُ البشريةَ من رُكامِ التِّيهِ الذي تَحْياهُ في ظلِّ الرأسماليةِ السافلةِ، وبَدَلاً منْ أنْ يُعيدُوا قراءةَ الواقع ليُغيّروه بناءً على أحكامِ الإسلامِ تَراهم يَغرقونَ في ظُلُماتِهِ متخذينَ إياها مصدراً للتفكيرَ لا موضعاً له.

مفهوم الرعوية بين الراعي والرعية[١٧]

بعد غياب دولة الإسلام، تلاشى عند الأمة مفهوم من أكثر المفاهيم أهمية إذ ساهم غيابه في قبول الأمة ما آلت إليه من واقع مرير، عطل فيه الحكم بما أنزل الله، وشتت شملها وولي أمرها غير أهله. هذا المفهوم هو مفهوم الرعوية، وأبسط صوره، أن تدرك الأمّة أن الحاكم ما هو إلا راعٍ لها، عليه أن يرعى شؤونها كافة، ما دقّ منها وما جل، دون تهاون أو تقصير، وإلا حاسبته وأمعنت في محاسبته، وأن يدرك الحاكم من جانبه أنه راع عليه رعاية شؤونها الداخلية والخارجية، ما تعلق منها بالجماعة، وما تعلق بالفرد، وأنه مسؤول عن هذه الرعاية. يحاسب عليها أمام الأمة في الدنيا، ثم أمام الله عز وجل في الآخرة. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... والإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته»، هذا ما علمه الرسول صلى الله عليه وسلم للأمة وترسخ فيها قرونا عديدة. ورغم ما طرأ عليه في بعض العهود من تشويش واضطراب، إلا أنه بقي ماثلا بين الراعي والرعية، إلى أن غاب الحكم بما أنزل الله فغاب معه وحل محله مفهوم المواطنة، فالعلاقات بين الناس لا تقوم على أخوة الإيمان، ولكن على كونهم يسكنون بقعة معينة من الأرض، ويحكمهم حاكم واحد، وترتفع فوق رؤوسهم رايات الوطن، لا راية الإسلام. وابتليت الأمة بحكام ما هم برعاة بل لا يصلحون رعاة لربضة غنم، لأنهم خانوا الله ورسوله وأماناتهم، وأوردوا الأمة المهالك، وأكلوا فيئها وأسلموها لأعداء الله، ولم يرقبوا فيها إلاًّ ولا ذمة، ولم يساووا بين الناس في الحقوق والواجبات، وقرَّبوا بعضهم من الأنصار، وأذلوا غيرهم من المعارضين. ولعل كثرتهم في ذاتها مصيبة ولو حكموا بما أنزل الله، لأن الأمر يتعلق براع واحد لا عدة رعاة، وهذا جانب مهم من جوانب مفهوم الرعوية، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»، ولإجماع صحابته رضوان الله عليهم من بعده على ذلك.

١٧- "أبو موسى" - بيت المقدس من مجلة الوعي: العدد ١٤٦

في ظل هذه الأجواء المفعمة بالظلم والاستبداد، وتغييب الإسلام، والغزو الثقافي، وانقطاع الأمة عن تاريخها وحضارتها، اضمحل مفهوم الرعوية عندها، فغدت لا ترى لها حقاً على هؤلاء الحكام في رعاية شؤونها، وفي محاسبتهم، وهذا مشاهد محسوس لا يحتاج لفضل بيان، غير أنه لا بد من الإشارة إلى ظاهرتين يتجلى فيهما هذا الأمر، أولاهما: شيوع المؤسسات والجمعيات، التي يقوم عليها أفراد أو جماعات أو أطراف أجنبية، ترعى شؤون الفقراء والمحتاجين والمرضى والأيتام أو شؤون الناس التعليمية وغير ذلك، وتوجه الناس في قضاء حاجاتهم إليها، بعد غياب الدولة عن قيامها بتقديم هذه الخدمات للأمة، والتي هي من أوليات واجبات الحاكم.

وثانيتهما: الابتهاج والعرفان بالجميل الذي تبديه الأمة عند التفات الحاكم إلى بعض الحالات: كإطعام فقير، أو إيواء عاجز أو يتيم، أو تطبيب مريض أو غير ذلك، وتسميتها، أو قبولها تسمية ذلك، بحالة إنسانية وليست حالة رعوية، وكأن الحاكم تصدق عليها من ماله أو مال أبيه، وكأنها لا حق لها عليه. وفي الوقت نفسه لا تتحرك لمحاسبته إن قصر في رعاية شؤونها، أو فرَّط في حقوقها، أو خان الأمانة التي أوكلتها إليه، وكأن هذا هو الأصل في الحاكم.

بعيداً عن الإطالة والاستطراد في وصف الواقع المؤلم، نريد أن نعرض صورة لرعاية شؤون الأمة في الإسلام كما صورتها خطبة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نتلوها بتعقيب يبرز بعض عناصرها، تاركين للقارئ فرصة المقارنة الأمينة بين واقع حاكم يحكم بما أنزل الله، وواقع حكام طواغيت يصدون عن سبيل الله. يقول أبو يوسف رحمه الله في خراجه: حدثني محمد بن إسحاق قال حدثي من سمع طلحة بن معدان العمري قال:خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال: «أيها الناس إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث: أن يؤخذ بالحق، ويعطى في الحق، ويمنع من الباطل، وإنما أنا ومالكم كولي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف،

ولست أدع أحداً يظلم أحداً، ولا يعتدي عليه حتى يضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق، ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم عليّ لا أجتبي شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليّ أن أزيد في أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم، ولكم عليّ أن لا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم في ثغوركم، وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء، قليل الفقهاء كثير الأمل، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب، ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر، يا أيها الناس إن الله عظم حقه فوق حق خلقه، فقال فيما عظم من حقه: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم فأدرّوا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم، ولا تجهلوا عليهم، وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم، فإذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك، فإن ذلك أبلغ في جهاد عدوكم، أيها الناس إني أشهدكم على أمراء الأمصار، أني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيئهم ويحكموا بينهم، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إليّ».

هذه هي خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دستور دولة في سطور معدودات، وهي تقطر بلاغة وفقها وعدلا فلله درّه حاكما وعالما وخطيبا بليغا، ويا لله لمنابر المسلمين اليوم كيف غدّت مناخ أقوام عجم القلب واللسان.

نقول وبالله التوفيق:

١ ـ مجمل خطبته رضي الله عنه تقول بأن عمر الحاكم يريد أن يعرّف الأمّة بحقها عليه وعلى أمرائه وولاته، فها هو يرسم سياسته على الملأ، ويوصي أمراءه أمام الناس، وفي ذلك ضمان لاستقامته واستقامتهم، وتعزيز ثقة الأمة بنفسها، وتجنيبها الخنوع والاستكانة

والاستخذاء والجهل، وتفعيل لدورها في القوامة على الحاكم، ألا تراه يقول: «ولكم علي أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها، لكم علي كذا ولكم علي كذا وكذا...» ولا نراه توانى في تبصير الأمة بحقها في محاسبته إن قصر أو خالف، فلا يسعه إلا أن يقول: «فخذوني بها».

٢ ـ يبصر رضي الله عنه الناس بالأساس الذي يقوم عليه في رعايته شؤونهم، والذي بلزومه يستحق طاعتهم فيجعله مقدمة خطبته إذ يقول: «أيها الناس إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله» ... فسبحان الله ما أبلغه في التذكير بحقه من الطاعة ومتى يستحقها على الأمة، فكأني به يريد أن يقول: أطيعوني ما التزمت كتاب الله وسنة رسوله في رعاية شؤونكم، ولم يغفل رضي الله عنه أن يذكرهم بالحكم بما أنزل الله مرة أخرى في سياق خطبته، ولكن بأسلوب آخر يكتفي فيه بذكر الآية الكريمة، قال تعالى: (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) فالحكم بما أنزل الله من أعظم حقوق الله على عباده، فلا يُتخذ الله ربا إلا بالتزام أوامره ونواهيه وتحكيم شرعه، ولا يخفى عليكم الفرق بين مدلول الألوهية والربوبية، فاقتضى المقام ذكر هذه الآية.

٣ ـ يحدد عمر الأسس التي تقوم عليها سياسته المالية، ولا يقصد بالمال هنا النقد بل كل ما يتمول به منقولاً أو غير منقول، ولا يخفي ما للمال من أهمية في الحكم إذ هو أحد ركائز رعاية الشؤون، يقول عمر: «وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث: أن يؤخذ بالحق ويعطى بالحق. ويمنع من الباطل» فكما أن لملكية الفرد أسبابا مشروعة في تحصيلها وتصريفها، وهناك أوجهاً باطلة يمنع صرفه وتنميته فيها كالربا والشركات المساهمة والإسراف أو التبذير، فكذلك ملكية الدولة لها أسباب تحصل بها لا يجوز تجاوزها، ولها أوجه تنفق فيها جعلها الشرع كل ما فيه مصلحة للمسلمين أفرادا وجماعات، وهناك وجوه يحرم صرفها فيها، كالتبذير من قبل الحاكم أو من ينوب عنه، أو تمكين العدو منه فقول عمر «أن يعطى في الحق» ليس مرادفا لقوله «ويمنع من الباطل»، وبما أن الحاكم يكون دائما مظنة إساءة التصرف فيها، والاستئثار بها نراه رضي الله عنه يقول: «وإنما أنا ومالكم كولي اليتيم إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف» فيقيد رضي الله عنه حقه في هذه الأموال

الذي هو عوض له عن تعطيله عن السعي لكسب رزقه، وتفرغه لشؤون الحكم، يقيده بأمرين هما: الحاجة «إن افتقرت» وبالمعروف. ويعود عمر ليؤكد هذه الخصال الثلاث التي لا يصلح المال إلا بها في ثنايا خطبته في موضوع تذكير الناس بحقوقهم «لكم علي أن لا أجتبي شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه»، فهذا المال، مال الدولة، هو مال المسلمين ولكن تدبيره وتصريفه للخليفة، والخليفة مقيد فيه بأحكام الشرع في وجوه جبايته ووجوه صرفه، ثم يحدد رضي الله عنه مصارف هذا المال في ثلاثة: «ولكم علي أن أزيد في أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم» وهذه المصارف الثلاثة هي ركائز الكيان الإسلامي: الأمة، الدولة، الجيش فالأعطيات تكون لعامة المسلمين وأفرادها ولا يخفى ما في ذلك من محاربة للفقر وسد لحاجاتهم، وتمكين من استغلال ثروات البلاد وغير ذلك، أما الأرزاق فهي لموظفي الدولة وعمالها وللجند، وفي ذلك مصلحة عظيمة هي تمكين هذا الجهاز من القيام بمهامه الرعوية، أما سد الثغور فهو أمر متعلق بحمل الدعوة وحفظ الكيان، ولا تسد الثغور إلا بإعداد القوة رجالا وعتادا، وهذا أيضا من أعظم الوجوه التي تصرف فيها الأموال.

٤ ـ ويضع عمر سياسة أمنية تضمن قوة الجبهة الداخلية وتماسكها، لا تقوم على تشكيل عشرات الأجهزة الأمنية والاستخبارية، التي تتجسس على الناس، وتنكل بهم، بل تقوم على منع التظالم بين الناس، فتحفظ بها نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وكراماتهم، ما يصلح حال البلاد الاقتصادية والسياسية والعلمية وغيرها. يقول رضي الله عنه: «ولست أدع أحدا يظلم أحدا ولا يعتدي عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق»، ولضمان ذلك في باقي الأمصار وأطراف الدولة يوصي عمر ولاته وأمراءه بأن لا يغفلوا عن هذا الأمر «ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم»، يقول في رسالة بعث بها إلى أبي عبيده وهو بالشام «... ثم ادن الضعيف حتى تبسط لسانه ويجترئ قلبه وتعهد الغريب فإنه إذا طال حبسه ترك حاجته وانصرف إلى أهله ...» وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن سوِّ بين الناس في مجلسك وجاهك حتى لا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يطمع شريف في

حيفك.

٥ ـ ثم يرسم رضي اللّه عنه سياسة جهادية يجملها في أمرين:

- التمويل: إذ جعل الإنفاق على الجند وسد الثغور أحد المصارف الرئيسة لأموال الدولة يقول: «ولكم علي أن أزيد في أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء اللّه وأسد ثغوركم».
- المحافظة على القوة البشرية التي هي مادة الجهاد، »ولكم علي أن لا ألقيكم في المهالك»، وعدم تكليف الجنود أكثر من طاقتهم «ولا أجمركم في ثغوركم» والتجمير هو جمعهم في الثغور وحبسهم عن العود إلى أهلهم ، ويقول موصيا أمراءه: «وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم، فإذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك، فإن ذلك أبلغ في جهاد عدوكم».

١ ـ ثم يلتفت عمر إلى الولاة والأمراء بعد فراغه من ذكر واجباته، فيبصرهم كيف يسوسون الناس، ويحدد مهماتهم على الملأ، ولا يغفل عن تحديد مرجعيتهم في كل أمر يشكل عليهم: أما السياسة التي يرسمها لهم فقد أجملها رضي اللّه عنه في أمور هي:

أ ـ حفظ حقوق الناس وتمكينهم منها بسهولة ويسر، «فأدرّوا على المسلمين حقوقهم» فلا يخفي ما في كلمة «أدروا» من معان عظيمة تتراوح بين الكثرة واليسر والسهولة في إيصال المسلمين إلى حقوقهم.

ب ـ رعايتهم النفسية وحفظ كرامتهم وعزتهم: «ولا تضربوهم فتذلوهم» «ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تجهلوا عليهم».

ت ـ رعايتهم الأمنية بمنع التظالم فيما بينهم والقوامة على علاقاتهم بعضهم ببعض «ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم».

ث ـ حفظ أمولهم «ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم».

ج ـ صيانة الروح الجهادية فيهم: «قاتلوا بهم الكفار طاقتهم، فإذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك، فإن ذلك أبلغ في جهاد عدوكم».

أما مهماتهم فثلاث:

أ ـ تعليم الناس أمور دينهم «لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم».

ب ـ رعاية شؤونهم الاقتصادية: «ويقسموا عليهم فيئهم».

ج ـ القضاء: أي رعاية العلاقات بين الناس «ويحكموا بينهم» أما مرجعيه هؤلاء الولاة والأمراء فهو عمر بن الخطاب أي الخليفة «فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إلي».

٧ ـ لم ينس رضي الله عنه أن يذكرهم بأمور دينهم ويرشدهم إلى الطريق الصحيح، في مواجهة الفتنة ولا فتنة في نظر عمر أشد من قلة الأمانة أو تضييعها وأولى الناس بحفظ أماناتهم هم الأمراء والعلماء يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس: الأمراء والعلماء»، ثم كثرة القراء وقلة الفقهاء، حيث يسود الجهل بأمور الدين، ثم كثرة الأمل حيث تقعد الأمة عن الجهاد والتضحية بالأنفس والأموال وتصبح نهبا لأعدائها مستباحة حرماتها، وتحجم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويعمل فيها حكامها بالإثم والعدوان، فيذلونها ويوردونها موارد الهلاك، وفي مثل هذه الأجواء لا بد أن يظهر أقوام يعملون للآخرة ظاهرا يطلبون بعملهم هذا الدنيا، وهؤلاء هم علماء السلاطين باعوا دينهم بدنيا الحكام، يقول عمر رضي الله عنه «اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء قليل الفقهاء وكثير الأمل يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ...».

فماذا أوصاهم عمر بل ماذا أوصانا، فما تحدث عنه هو زماننا، يقول: «ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر»، إذن يوصينا ابن الخطاب بلزوم أمرين هما التقوى والصبر، أما التقوى فالتزام أوامر الله ونواهيه، وأول أوامر الله وأولاها بالالتزام في هذا الزمان هو

السعي للتغيير، من أجل حفظ الأمانة الضائعة، وهي الحكم بما أنزل الله والسعي لتفقيه الناس في أمور دينهم، ولا يكون ذلك إلا بجيش من الفقهاء والمجتهدين وحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم، والتي لا تكون إلا بالجهاد. والجهاد وكثرة الأمل أمران متباينان لا يلتقيان البتة، فالتقوى إذن ليست اعتزال الناس والقعود عن العمل للتغيير، ولا أدل على ذلك من اقترانها بالصبر، إذ الصبر ليس صبرا على الطاعة أو عن المعصية أو على البلاء في النفس والمال والولد فقط، بل هو أيضا صبر على العمل للتغيير «الإصرار»، وصبر على الأذى الذي يقتضيه مثل هذا العمل في مثل هذا الزمان فلا يخفى ما يلقاه أهل التقوى في زماننا هذا من أذى ومطاردة وقمع وتنكيل وما سلاحهم في مواجهة ذلك إلا الصبر. يقول تعالى: ﴿والعصر (١) إن الإنسان لفي خسر (٢) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوْا بالحق وتواصوْا بالصبر(٣)﴾.

وفي الختام، هذه هي الصورة الحقيقية لحكامنا وأمرائنا، وهكذا تكون الرعاية فقط وإن كنت قد أسأت التعليق على خطبتكم يا ابن الخطاب فأستغفر الله، ثم أستميحك عذرا فأنا من أبناء الزمان الذي وصفت، وأدعوا الله أن يرضى عنك ويرضيك، ويقيض لنا حاكما يعمل فينا بعملك ويحمل الأمانة كما حملت، ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ ❑

خاتمة ..

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣
مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥
ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ
غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾

آمين

اللهم صل وسلم وبارك على خير خلقك نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم صلاة أهل السموات والأرضين عليه وأجر يا رب لطفك الخفي في أمورنا بفضل رحمتك وكرمك ولطفك يا كريم.

اللهم إني أسألك بك يا رب العالمين، أسألك باسمك الأعظم الذي إن سئلت به أجبت، وإن استغفرت به غفرت، وإن استرحمت به رحمت، وإن استشفيت به شفيت، يا مجيب دعوة الداعين:

أسألك يا رب بك يا أيها الذي ليسَ إلَّاهُ ربٌ يُدعى، سألتك يا مالك حوائج السائلين الذي يُعطِي إذا سُئل، ولا يزداد على كثرة السؤال إلا جودا وكرما، وعلى كثرة الإلحاح إلا تفضلا وإحسانًا، يأتيه المُثقَلُ بالهموم شاكيا، فيفرج كرباته، والغارق في الذنوب مستغفرا، فيغفر زلاته، والمستيئس من النجاة، فيمد له يد نجاته، إذا أساءت العباد حَلِمَ وأمْهَلَ، وإن أحسنوا تفضلَ وقَبلَ وإن عصوا ستر، وإن أذنبوا عفا وغفر، وإذا دعوه أجاب، فكان أقرب إليهم من حبل وريدهم، وأرحم بهم من والدهم على وليدهم، وإذا نادوه سمعهم، وإذا أقبلوا عليه أسرع

إليهم، من تقرب إليه بشبر قربه ذراعا، ومن أتاه يمشي أسرع إليه هرولة، وإذا ولَّوا عنهُ تكرم وتفضل ودعاهم، ولم يوصد بابه أمامهم، شديد العقاب، وهو الغفور الرحيم، لكل مُسترحمٍ لديه رحمة، ولكل راغبٍ إليه زُلفى، تتابعت نعمه وآلاؤه، حتى اطمأنت الأنفس بتتابعها، وتظاهرت المنن منه حتى اعترف أولياؤه بالتقصير عن حقه، أسبغ نعمه عليهم ظاهرة وباطنة، سألتك بمن تظاهرت العِبَرُ حتى نطقت الصوامتُ بحجته، ودل كل ما كُتب على صفحة نجوم السماء، وحبات رمل أديم الأرض على عظيم قدرته، وأظهر من الآيات حتى أفصحت السماوات والأرضون بأدلته، وقهر بعظيم قدرته حتى خضع كل شيء لعزته وعنت الوجوه لعظمته .

سألتك يا الله بك أن تنزل علينا شآبيب رحمتك، وأن تتقبل أعمالنا وان تجعلها خالصة لوجهك، وان تستر علينا في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك لنا وللمسلمين أجمعين من خير ما سألك الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وعبادك الصالحون، وأعوذ بك لهم ولنا من شر ما استعاذ بك منه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وعبادك الصالحون

أسألك الخير كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد خير خلقك، وعلى آله وصحبه وسلم صلاة أهل السموات والأرضين عليه وأجر يا رب لطفك الخفي في أمورنا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الحمد لله على نعمائه، ونسأله تعالى أن يكون أجرى الحق على ألسنتنا وبأيدينا، وأن يكون عصمنا من الزلل، وأن يتجاوز عنا برحمته، وفضله، وكرمه، فإنا والله لذاته العلية محبون، على ما فينا من التقصير، والشرود عن الجادة، والانغماس في الدنيا، ومع أن هذا كله يدل على تقصير من جانب المحب، إلا أننا نسأله تعالى أن لا يكون حبنا له ادعاء،

أنا مذنب أنا مخطىء أنا عاصي   هو غافر هو راحم هو عافي
قابلتهن ثلاثة بثلاثة   وستغلبن أوصافه أوصافي

حدثنا المزني قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت: يا أبا عبدالله، كيف أصبحت؟ فرفع رأسه، وقال: أصبحت من الدنيا راحلا، ولاخواني مفارقا، ولسوء عملي ملاقيا، وعلى الله واردا، ما أدري روحي تصير إلى جنة فأهنيها، أو إلى نار فأعزيها، ثم بكى، وأنشأ يقول[١٨]:

إليك إله الخلق أرفع رغبتي … وإن كنتُ -يا ذا المنِّ والجود- مجرماً
ولَّما قسا قلبي وضاقت مذاهبي … جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوكَ سُلّمَا
تعاظمني ذنبي فلَّما قرنته … بعفوك ربي كانَ عفوكَ أعظما
فَمَا زلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ … تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا
فلولاكَ لم يصمد لإبليسَ عابدٌ … فكيفَ وقد أغوى صَفيَّكَ آدما
فإن تعفُ عني تعفُ عن متمردٍ … ظَلُومٍ غَشُومٍ لا يزايلُ مأثما
وإن تنتقمْ مني فلستُ بآيسٍ … ولو أدخلوا نفسي بجُرْمٍ جهنَّما
فَلِلَّهِ درُّ الْعَارِفِ النَّدْبِ إنَّهُ … تفيض لِفَرْطِ الْوَجْدِ أجفانُهُ دمَا
يُقِيمُ إذَا مَا الليلُ مَدَّ ظَلاَمَهُ … على نفسهِ من شدَّة الخوفِ مأتما
فَصِيحاً إذَا مَا كَانَ فِي ذِكْرِ رَبِّهِ … وَفِي مَا سِوَاهُ فِي الْوَرَى كَانَ أعْجَمَا
ويذكرُ أياماً مضت من شبابهِ … وَمَا كَانَ فِيهَا بِالْجَهَالَةِ أجْرَمَا
فَصَارَ قَرِينَ الهَمِّ طُولَ نَهَارِهِ … أخا السُّهدِ والنَّجوى إذا الليلُ أظلما
يَقُولُ حَبِيبِي أنْتَ سُؤْلِي وَبُغْيَتِي … كفى بكَ للراجينَ سؤلاً ومغنما
ألستَ الَّذِي غذيتني وهديتني … وَلاَ زلْتَ مَنَّاناً عَلَيَّ وَمُنْعِمَا
عَسَى مَنْ لَهُ الإحْسَانُ يَغْفِرُ زَلَّتي … ويسترُ أوزاري وما قد تقدما
حَواليَّ فضلُ اللَّه من كل جانب … ونورٌ من الرحمن يفترش السَّمَا
وفي القلب إشراقُ المحبِّ بوصلِهِ … إذا قارب البشرى وجاز إلى الحمى
حواليَّ إيناسٌ من اللَّه وحده … يطالعني في ظلمة القبر أنجما
أصونُ ودادي أن يدنسه الهوى … وأحفظ عهد الحبِّ أن يتثلما
ففي يقظتي شوقٌ وفي غفوتي مُنًى … تلاحق خطوي نشوة وترنُّما
ومن يعتصم باللَّه يسلم من الورى … ومن يَرْجُه هيهات أن يتندَّما

١٨- روى المزني بعض هذه الأبيات، وألحقت بها باقي القصيدة من مراجع أخرى.

كذلك ونسأله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، صائبة، خالية من حب الشهرة، وحب الذكر، وأن لا يكون نصيبنا منها إلا الخير في الدنيا والآخرة، وأن يغفر بفضله لسادتنا العلماء، ولمن أخذنا عنهم هذا الدين العظيم، وأن لا يجعل في صدورنا غلا للذين آمنوا، فإنا والله نحب المسلمين، ونحب لهم الخير، ونحب لهم أن يجتمعوا على ما جمع الله عليه قلوب من لو أنفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في الأرض جميعا، ما ألف بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، فاللهم ألف بين قلوب المسلمين واجمعهم على محبتك وطاعتك وحسن الإيمان بك، وحَسَنِ العمل الخالص لوجهك الكريم.

وبعد، فهذا ما اجتهدنا فيه في هذه المسألة ، وهو جهد المقل، وللمسلم على المسلم حق النصح، فمن أراد مخاطبتي وأداء واجب النصح لي على زلة غير مقصودة، أو رأي مرجوح، أو استفسار عن شيء من ذلك، فعليه مكاتبتي على بريدي الالكتروني:

imammalek@hotmail.com